روائع الأدب العالمي
56

غانية اطلنطا

تأليف الكاتب الفرنسي

بيير بينوا



غانية أطلنطا

غانية أطلنطا

تأليف
پيير بنوا

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 00 961 1 803 674 فاكس : 00 961 1 790 223
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الاسم الأصلي للكتاب
L'ATLANTIDE

اسم المؤلف
Pierre BENOIT

فهرس

خطاب تمهيدي(١)

"حسي إينيفيل" في ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٠٣ .

لو قدر للصفحات التالية أن ترى ذات يوم ضوء الشمس فسأكون يومئذ قد حُرمته. فما أحدد من أجل لنشرها هو الضمان الأكيد الذي يكفل لي ذلك.

أرجو ألا يحمل قصدي على غير مرماه حينما أتهيأ لهذا النشر أو أطالب به. ولعل هناك من يصدقني حينما أؤكد أني لا أربط بين هذه الكراسة المحمومة وبين كرامتي مؤلفاً بأية وشيجة. وأنا منذ الآن بعيد كل البعد عن هذه الأشياء جميعاً. والحق أنه ليس ثمة عناء في أن يخاطر آخرون بالسير في طريق لن تكون لي منها رجعة.

الساعة الرابعة صباحاً. لا يلبث الفجر أن ينشر أضواءه الوردية على "الحمادة". وها هو ذا البرج يغفو من حولي، وإني لأسمع من خلال باب حجرة "أندريه دي سانت أفيت" الموارب تنفساته الهادئة، بل الهادئة جداً.

سأرحل أنا و"أندريه" بعد يومين. وسنترك البرج لنتوغل بعيداً نحو الجنوب. لقد وصل القرار الوزاري أمس صباحاً.

والآن قد مضى وقت التراجع مهما يكن من اشتداد رغبتي فيه. لقد طالبت أنا و"أندريه" بهذه المهمة. ما كنت أطالب به من تصريح بالاتفاق مع "أندريه"، غدا أمراً واقعا في هذه الساعة. أترى كنا نطرق أبواب الرؤساء ونبعث بالشفعاء إلى الوزارة، أكنا نفعل هذا كله لنخاف ونجفل أمام المغامرة....!

ذكرت الخوف. أنا أعرف أني لا أستشعر خوفاً. لكنني شعرت بالخوف ذات ليلة في الجرارة؛ إذ وجدت اثنين من الحراس ممثلا بهما وعلى بطنيهما تشريط البرابرة الصليبي البغيض. وإني أعرف ما هو الخوف. وإني لأعلم أن ما أستشعره- حينما أحدق بنظري إلى هذا الفضاء المظلم الذي لا يلبث أن تبزغ منه فجأة الشمس الهائلة المحمرة- ليس خوفاً، وأحس في نفسي صراعاً بين رعب من المجهول، وبين ما يجذبني نحوه.

ربما كان هذا دخانا أو تخيلات عقل مجهود وعين خدعها السراب. وسيأتي من غير شك ذلك اليوم الذي سأعاود فيه قراءة هذه الصفحات وعلى شفتي ابتسامة هي مزيج من الشفقة والضيق-

---

(١) سلم الملازم "فريير" هذه الرسالة والمخطوط الذي يرافقها- وكان هذا المخطوط في غلاف خاص مقفل- إلى الجاويش "شاتلان" في الفرقة الثالثة من سلاح الفرسان في 10 نوفمبر "تشرين الثاني" عام 1903، يوم رحل هذا الضابط إلى "تاسيلي الطوراق الأزجر" (بالصحراء الوسطى). وكان الجاويش قد أمر بتسليمها في أول إجازة له إلى السيد "لورو" مستشار الشرف بمحكمة استئناف "ريوم"، وهو اقرب شخص إلى الملازم "فريير". وتوفي فجاة رجل القانون هذا "بل انتهاء مدة السنوات العشر المحددة لنشر هذا المخطوط. فنتج عن ذلك صعوبات أرجات إلى اليوم نشر هذا المخطوط.

ابتسامة رجل ناهز الخمسين يعاود قراءة رسائل قديمة.

دخان وتخيلات! ولكن هذا الدخان وهذه التخيلات عزيزة على نفسي. جاء في البرقية: «على الكابتن "دي سانت أفيت" والملاز م "فريير" أن يعملا لكشف الروابط الطبيعية بين الحجر الأبيض والجير الكربوني. وعليهما أن ينتهزا هذه الفرصة ويستعلما عرضاً عما طرأ في موقف "الأزجر" من تغير نحو حكمنا....» ولو لم يكن للرحلة في النهاية إلا مثل هذه الأغراض التافهة لشعرت بأني ما كنت لأسافر.

وإني إذن لأتمنى ما أخشى. وسيخيب رجائي إذا لم أواجه ما يسبب لي هذه الرعدة الغريبة.

وفي أعماق وادي المياه ينبح ابن آوى. ومن حين إلى حين يشق شعاع القمر السحب المحملة بالحرارة شقاً مفضضا، فتترنم يمامة على النخيل متخيلة أن الشمس الفتية قد بادرت بالظهور.

صوت أقدام بالخارج. أنحني إلى النافذة. خيال ملتف في ثياب سود لامعة ينساب على حافة سطح البرج. برق في الليل المكهرب. لقد أشعل الرجل لفافة وجثا في الجنوب يدخن.

إنه "صغير بن شيخ "رائدنا الطارقي الذي سيقودنا بعد ثلاثة أيام إلى هضاب مجهولة في مقاطعة "ايموسكاوك" الغامضة بين جبال الحجر الأسود والأودية المتسعة الجافة، والملاحات الفضية، والأغوار، وكثبان الذهب غير البراق يعتليها- حينما تهب الريح- تاج خفاق من الرمل الشاحب.

"صغير بن شيخ" ! هو هذا الرجل. لقد خطرت ببالي جملة "ديفرييه" المؤثرة: «في اللحظة التي وضع فيها الكولونيل قدمه في الركاب تلقى ضربة سيف(١)....» "صغير ابن شيخ"!..... إنه هناك. ها هو ذا يدخن في هدوء لفافة من اللفافات التي أعطيته إياها. رب اغفر لي هذه الخيانة.

ينشر المصباح ضوءه الأصفر على الورق. قدر غريب ذلك الذي حتم عليّ- دون أن أعرف لذلك سبباً بالضبط- أن أتهيأ لدخول "سان سير"، وجعل مني زميلا لـ"أندريه دي سانت أفيت". كان في إمكاني أن أدرس القانون أو الطب. ولو فعلت ذلك لطاب لي العيش في بلدة ذات كنيسة ومياه جارية، ولما صرت هذا الشبح الذي يرتدي القطن وهو ينظر في قلق لا يمكن التعبير عنه إلى الصحراء التي ستبتلعه بعد قليل.

دخلت حشرة كبيرة من النافذة وأخذت تطن وتتخبط بين الحائط الملون وزجاج المصباح، وأخيراً سقطت مهزومة على الورقة البيضاء وقد احترق جناحاها بنار الشمعة التي مازالت عالية.

إنه جُعلُ إفريقي ضخم أسود تتخلله بقع رمادية باهتة.

إنني أفكر في الآخرين، في إخوته بـ"فرنسا"، في الجعلان الحمر التي كنت أراها في أمسيات الصيف العاصفة تندفع من الأرض في بلدتي كأنها كرات صغيرة. كنت أقضي عطلتي هناك طفلا، وبعد ذلك إجازاتي ضابطاً. وفي أثناء إجازتي الأخيرة وفي المرعى نفسه كان يماشيني

---

(١) ديفيرييه: "محنة بعثة فلاترز" عن "مجلة الجمعية الجغرافية" عام ١٨٨١.

شخص نحيف "أبيض يرتدي وشاحاً حريريا يقيه نسيم الليل وهو جد بارد هناك" . والآن حينما تعاودني هذه الذكرى لا أملك إلا أن أدع بصري يشخص لحظة نحو ركن مظلم من حجرتي حيث يلمع على الحائط العاري زجاج صورة غير واضحة. وإني لأدرك جيداً ما قد فقد من منزلته هذا الشخص الذي كان يلوح لي كأنه كل شيء في هذه الحياة. والآن لم تبق ثمة أهمية عندي لهذا السر المؤلم. وأنا أعرف أنه لو أخذ مرتلو الـ"رولا" المتجولون يرددون أغانيهم الشائعة المليئة بالذكريات لما استمعت إليهم قط، بل لطردتهم بعيداً إذا ما أثقلوا في الغناء.

ما الذي أحدث هذا التغيير؟ أقصة أو لعلها أقصوصة سردها على كل حال شخص مثقل بأفظع الشبهات؟

لقد انتهي "صغير بن شيخ" من تدخين لفافته. وإني لأسمعه يعود في خطوات بطيئة إلى مقره في البناء (ب) على مقربة من مكان الحراس إلى اليسار.

وبما أننا سنرحل في يوم ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) فقد ابتدأت تحرير هذا المخطوط الملحق بهذه الرسالة في يوم الأحد أول نوفمبر (تشرين الثاني) وانتهيت منه يوم الخميس ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٠٣ .

"أوليفييه فريير"
ملازم في الفرقة الثالثة من سلاح الفرسان.

الفصل الأول

مركز في الجنوب

في يوم السبت ٦ يونيو (حزيران) عام ١٩٠٣ قطع حادثان- يختلفان أهمية- الحياة المملة التي كنا نحياها في مركز "حسي إينيفيل": ذلك هو وصول خطاب من الآنسة "سيسيل دي س..."، وورود أحدث أعداد «الجريدة الرسمية» للجمهورية الفرنسية.

وقال الجاويش "شاتلان" وهو يتصفح أعداد الجريدة بعد أن جردها من أربطتها:

- لو تكرم سيدي الملازم!

فأومأت إليه مجيباً بحركة من رأسي وأنا غارق في قراءة خطاب الآنسة "دي س..." هذا ما كتبته حرفيا هذه الفتاة المحبوبة: «عندما يصلك هذا سأكون أنا وأمي قد هجرنا بلا شك "باريس" إلى الريف، فلو أنك تجد عزاء في أن يكون ضيقي بالحياة بقدر ما تجد أنت من الضيق في بلدتك، فليهنئك ذلك! لقد أقيم سباق الجائزة الكبرى، فراهنت على الحصان الذي عينته لي وقد خسرت بالتأكيد. تناولنا في الليلة السابقة العشاء عند آل "مارسيال دي لاتوش"، وكان هناك "إلياس شاتريان" وهو لا يزال يثير الإعجاب بشبابه. أبعث إليك بكتابه الأخير الذي أثار بعض الضجة. ويبدو أن آل "مارسيال دي لاتوش" قد صوروا فيه على طبيعتهم. وأرفق مع هذا آخر مؤلفات "بورجيه" و"لوتي" و"فرانس" وبعض الأغاني الشائعة في المراقص. أما في السياسة فيقال إن تطبيق القانون على الهيئات الدينية سيقابل صعوبات كثيرة. لا جديد في المسارح. لقد اشتركت لمدة الصيف في مجلة الـ"ألستراسيون" فلو راقك ذلك... في الريف لست أدري ماذا أفعل. لا أرى أمامي إلا جماعة التنيس الحمقى أنفسهم. فلن يكون لي أي فضل في الكتابة دائماً إليك. أرجو أن تعفيني من تعليقاتك على "كوميمال" الصغير. لست موالية للحركة النسوية لأنني أثق بمن يدعونني جميلة وبخاصة بك. وأخيراً لا أطيق التفكير فيما لو أبحت لنفسي أن أخلع العذار مع أحد خدم العزبة بربع ما تفعل أنت من غير شك مع أولاد "نايل"... لندع ذلك؛ فثمة تخيلات جارحة».

كنت قد وصلت إلى هذا القدر من كلام تلك الفتاة الطائشة عندما رفعت رأسي لشهقة دهش من الجاويش.

- سيدي الملازم!

- ماذا؟

- يا لسخافاتهم في الوزارة! يحسن أن تقرأ.

وناولني «الجريدة الرسمية»، فقرأت ما يلي:

«بقرار في تاريخ أول مايو (أيار) عام ١٩٠٣ ألحق الكابتن "دي سانت أفيت"، خارج الهيئة بسلاح الفرسان الثالث وعين قائداً لمركز "حسي إينيفيل"».

وأخذ سخط "شاتلان" يزداد عنفاً.

- الكابتن "دي سانت أفيت" قائداً لهذا المركز! مركز لم يؤخذ عليه شيء قط! إنهم يعتبروننا مستودعاً للقمامة!

كانت دهشتي تضاهي دهشة "صف الضابط"، ولكن في اللحظة نفسها رأيت وجهاً كريهاً هو وجه الخبيث "جورو"، الجندي الذي كنا نستخدمه في الأعمال الكتابية. لقد توقف عن الكتابة وأخذ يستمع في اهتمام وخبث.

فقلت بلهجة جافية:

- أيها الجاويش، إن الكابتن "دي سانت أفيت" زميل من دفعتي. فانحنى "شاتلان" وخرج. ولحقت به، وقلت له وأنا أربت كتفه:

- يا صديقي لا تغضب. تذكر أننا راحلان بعد ساعة إلى الواحة. فلتعدّ الرصاص. يجب أن نصلح من طعامنا المعتاد.

وما عدت إلى مكتبي حتى أشرت إلى "جورو" بالانصراف، ولما صرت وحيداً أتممت سريعا رسالةً الآنسة "دي س..." ثم أخذت «الجريدة الرسمية» وأعدت قراءة القرار الوزاري الذي عين لمركزنا رئيساً جديداً.

لقد مرت أشهر خمسة وأنا أقوم بهذه المهمة. والحق أني تحملت تماماً هذه التبعة وتذوقت الاستقلال كثيراً. ويمكنني أن أؤكد دون فخر أن العمل تحت إدارتي كان يختلف عما كان في أيام الكابتن "ديوليفول" الرئيس الأسبق لـ"سانت أفيت". كان الكابتن "ديوليفول" طيب القلب من المستعمرين القدماء، خدم صف ضابط مع "دودز" و "دوشين"، ولكنه كان شديد الميل إلى تعاطي الكحول وكان إذا شرب يخلط بين اللهجات، حتى لقد كان يستجوب هوسه بلهجة الـ"ساكالاف". وليس من أحد أكثر منه تقتيراً في استنفاد المياه في المركز. وبينما كان ذات صباح يعد شراب الـ"ابسنت" بصحبة الجاويش "شاتلان"، كان هذا الأخير ينعم النظر في كأس الكابتن، فرأى - وهو في غاية من الدهش- السائل الأخضر يستحيل أبيض نتيجة لقدر من الماء زائد على المعتاد. فرفع رأسه وقد شعر بأن شيئا خارقاً قد حدث، كان الكابتن متخشباً يحدق إلى الماء والدورق مائل في يده تسقط منه القطرات على السكر. لقد مات.

ومرت خمسة أشهر بعد وفاة هذا السكير الظريف دون أن تهتم الجهات العليا- على ما يظهر- بتعيين من يخلفه. وكنت آمل في اللحظة نفسها أن يتخذ قرار ما يخول لي من السلطة ما كنت

أقوم به فعلا... واليوم يأتي هذا التعيين المفاجئ...

الكابتن "دي سانت أفيت".. كان ممن اخترتهم من مجندي "سان سير"، ولم أره بعد ذلك قط. وأخيراً استرعى انتباهي تقدمه السريع والإنعام عليه بأوسمة الشرف جزاء استحقه بعد ثلاث رحلات استكشافية خطيرة للغاية في "تبسة" و"الحير". فجأة حدثت المأساة الغامضة في رحلته الرابعة، في البعثة المعروفة مع الكابتن "مورانج" تلك التي لم يعد منها غير مستكشف واحد. وما أسرع ما تنسى الأشياء في "فرنسا"! وانقضت على ذلك ست سنوات. لم أسمع خلالها عن "دي سانت أفيت" شيئاً حتى اعتقدت أنه قد ترك الجيش. وهأنذا أجده الآن رئيسا لي.

وقلت لنفسي: «إنه سواء عندي أن يكون ذلك الرجل أم غيره رئيساً لي، كان في المدرسة ظريفاً، وكانت الصلات بيننا على أحسن ما يرام. على أنه لم تكن أقدميتي كافية لتسمح لي بأن أرقى كابتن».

وخرجت من مكتبي وأنا أصفر.

كنت أنا و"شاتلان" وقتئذ بالقرب من البركة في منتصف الواحة الفقيرة مختبئين وراء الأعشاب المتشابكة. وقد وضعنا بندقيتينا على الأرض التي هبطت حرارتها. وأخذت الشمس تنحدر إلي المغيب وهي تصبغ بلونها الأحمر القنوات الصغيرة الراكدة حيث تجري مياه الري للمزروعات الخاصة بالمقيمين السود.

لم ننبس ببنت شفة أثناء رحلتنا ،ولا أثناء تربصنا. كان "شاتلان" ظاهر الغضب.

وأسقطنا في صمت عدة قمريات بائسة الواحدة تلو الأخرى، كانت تقبل تجر أجنحتها- وقد أثقلتها حرارة النهار- لتطفئ ظمأها من هذا الماء الأخضر الثقيل. ولما اصطف تحت أقدامنا ستة من تلك الأجسام النحيفة الدامية مددت يدي إلي كتف "صف الضابط":

- "شاتلان"!

فارتعد فرقاً.

- "شاتلان"! لقد نهرتك منذ حين. يجب ألا تحقد عليَّ. إنها الساعة الفظيعة التي تسبق وقت الراحة، ساعة القيظ اللعينة.

أجاب في لهجة كان يريد أن تكون مشعرة بالغضب ولكنها لم تبن إلا عن التأثر:

- إن سيدي الملازم هو الآمر الناهي.

- "شاتلان"، يجب ألا تحقد عليَّ إنك تريد أن تنهي إلي شيئاً، وأنت تدرك ماذا أعني.

- لست أدري. لست أدري حقاً.

- "شاتلان"، "شاتلان" كن جادًّا. حدثني قليلاً عن الكابتن "دي سانت أفيت".

فرد عليَّ في جفاء:

– أنا "لا" أعرف شيئاً.

– لا شيء. إذن ما هذه الكلمات التي تفوهت بها منذ حين؟....

فتمتم مجيبا وقد خفض جبهته في عناد:

– إن الكابتن "دي سانت أفيت" رجل شجاع. لقد رحل وحده إلى "بلما" وإلى "الحير". في مناطق لم يذهب إليها أحد قط. إنه لرجل شجاع.

فقلت له في عذوبة متناهية:

– إنه شجاع من غير شك، غير أنه قتل رفيقه الكابتن "مورانج"، أليس كذلك؟

فارتعد الجاويش الشيخ وأصر على عناده:

– إنه شجاع.

– إنك لطفل يا "شاتلان". أتخشى أن أنقل حديثك إلى قائدك الجديد؟

كنت قد أصبت المرمى، فانتفض.

– الجاويش "شاتلان" لا يهاب أحداً ياسيدي الملازم. لقد حارب في "أبوماي" ضد الأمازون، في بلاد تخرج إليك من وراء كل شجيرة ذراع سوداء تقبض على ساقك على حين تجد أخرى تبترها بضربة قاضية من سكين.

– فما يقوله الناس وما تقوله أنت نفسك....

– كل هذا لغو باطل.

– اللغو ما يتناقلونه يا"شاتلان" في كل مكان بـ"فرنسا"؟

فنكس رأسه ولم يجب. فصحت به:

– أيها العنيد. ألا تتكلم؟

فقال متوسلا:

– سيدي الملازم، سيدي الملازم، أقسم أن ما أعرف....

– ما تعرفه ستخبرني به في الحال، وإلا فاقسم بشرفي ألا أوجه إليك كلمة مدة شهر إلا فيما يخص العمل وحده.

"حسي إينيفيل"– ثلاثون فارساً من الوطنيين، أربعة أوربيون أنا والجاويش و"أونباشي" و"جورو". كان التهديد فظيعاً فسرعان ما أثمر فقال وهو يتنهد من أعماق نفسه:

– حسن يا سيدي الملازم، هاك القصة. على أني أرجو على الأقل ألا تأخذني بأني نقلت إليك تهماً ما كان يجدر بي أن أنقلها عن رئيس، خاصة أنها لا تستند إلا إلى ما يدور في المقصف من أحاديث.

– تكلم.

– كان ذلك عام ١٨٩٩ . وكنت في "صفاقس" في اللواء الرابع من سلاح الفرسان. كنت حسن السمعة، ولا أتعاطى الشراب. فاختارني الكابتن للإشراف على مطبخ الضباط، وكانت وظيفة طيبة حقا، وكلفت بالمشتريات والحسابات ورصد الكتب المستعارة من المكتبة (وكانت قليلة جدا) ومفتاح خزانة الشراب؛ لأن مثل هذه الأمور لا يمكن ائتمان «المراسلة" عليها، وكان الكولونيل عزبا فهو يتناول الطعام في النادي. ووصل ذات ليلة متأخراً ،وعلى محياه علامات القلق. وما إن جلس حتى أمر بالتزام الصمت فقال:

– أيها السادة أريد أن أبلغكم خبراً وأن أعرف رأيكم فيه. المسألة هي أنه في الصباح الباكر ستصل الباخرة «مدينة نابولي» إلي "صفاقس" وعلى ظهرها الكابتن "دي سانت أفيت" الذي عين في "فريانا" وهو في طريقه ليتسلم مهام منصبه.

وصمت الكولونيل وقلت في نفسي : "حسن! علينا أن نعنى بطعام الغد، لأنك تعرف يا سيدي الملازم العادة المتبعة منذ قامت أندية الضباط بـ"إفريقيا" . فحينما يمر ضابط يذهب زملاؤه إلى الباخرة ويدعونه ليقضي مدة انتظار قيام الباخرة في النادي، ويدفع ثمن ذلك بقص أخبار الوطن. وفي هذا اليوم يحتفى بالزائر ولو كان ملازماً صغيراً. وعندما يمر ضابط بـ"صفاقس " فذلك يعني شيئاً كثيراً: لوناً جديداً من الطعام، وزجاجة من الشراب المعتق؛ من أجود الأصناف.

ولكني فهمت في هذه المرة من النظرات المتبادلة بين الضباط أن الشراب الجيد سيظل في خزانته.

– لقد سمعتم جميعاً على ما أظن أيها السادة عن الكابتن "دي سانت أفيت" وما يحوم حوله من الشائعات. ليس علينا أن نقيم وزناً لهذه الشائعات. فلعل فيما ظفر به من ترقية وإنعام ما يسمح لنا بأن نرجو أن تكون هذه الشائعات لا تستند إلي أية حقيقة. ولكن هناك مرحلة لسنا ملزمين أن نقطعها بين تبرئة ضابط واستقبال زميل على مائدتنا. وإني لأكون سعيداً لو استطلعت آراءكم في هذا الموضوع.

وأطبق السكون. وتبادل الضباط النظرات وتجهموا جميعاً فجأة حتى كثيري الهذر من صغار ضباط الصف" . كنت أدرك وأنا في ركني أنهم قد غفلوا عني، فحاولت كل ما يمكن حتى لا تبدر مني بادرة تنبئ بوجودي. وأخيراً انبرى أحد القواد قائلا:

– إننا نشكرك يا سيدي الكولونيل لتفضلك باستشارتنا؛ فجميع زملائي على ما أعتقد يعرفون إلى أية شائعات أليمة كنت ترمي بحديثك، فإذا سمحت لنفسي أن أتكلم، فما ذلك إلا لأني كنت أعمل بالإدارة الجغرافية للجيش في "باريس" قبل أن أجيء إلى هنا، وهناك عرفت أن لكثير من الضباط، وحتى الثقات منهم، رأياً يتجنبون إبداءه في هذه القصة البائسة وإن كان مفهوماً أنه ضد مصلحة "دي سانت أفيت" .

وقال كابتن آخر:

– كنت في "بماكو" أيام بعثة "مورانج" و"سانت أفيت". إن رأي الضباط هناك يختلف– مع الأسف– قليلاً عما عبر عنه القائد. ولكني أريد أن أضيف أنهم جميعاً يعترفون بأن ما لديهم ليس إلا شكوك وظن.

والظن لا يغني عن الحق شيئاً إذا ما فكر المرء في شناعة الأمر.

فقال الكولونيل:

– لكنها على كل حال أيها السادة جد كافية لتسوّغ امتناعنا عن استقباله. ليس لنا أن نصدر حكماً، غير أن مشاركتنا له في الطعام ليست واجبة علينا. إنها دليل على تقدير أخوي. والمسألة هي أن نعرف أتوافقون على منح "دي سانت أفيت" هذا الشرف أم لا؟

قال ذلك وهو ينظر إلى الضباط واحداً بعد آخر، فكانوا يجيبون على التعاقب بالسلب بتحريك رؤوسهم.

– أرى أننا متفقون. ولكن– مع الأسف– لم تنته مهمتنا بعد. ستصل الباخرة "مدينة نابولي" إلى الميناء صباح الغد، وسيغادر القارب الذي يقل المسافرين الميناء في الساعة الثامنة. يجب أيها السادة أن يتطوع أحدكم ويذهب إلى الباخرة. لربما خطر للكابتن "دي سانت أفيت" أن يحضر إلى النادي. وليس في نيتنا أن نحمله إهانة عدم استقباله إذا حل علينا معتمداً على العادة المتبعة في استقبال أمثاله. يجب أن نمنع حضوره ويجب إفهامه أنه يحسن به ألا يغادر الباخرة.

وعاد الكولونيل ينظر إلى ضباطه، فما كانوا يستطيعون إلا الموافقة. ولما كان يبدو على وجوههم أنهم غير مرتاحين، قال:

– لا آمل أن أعثر فيكم على من يتطوع لمثل هذه المهمة؛ فأجدني مضطرًا إلى أن أعين أحدكم بالأمر. كابتن "جراندجان"، إن السيد "دي سانت أفيت" في رتبة كابتن. فمن الأصلح أن يقوم ضابط من رتبته بإبلاغه قرارنا. وأنت أيضاً أحدثنا عهداً هنا. ولذا أراني مضطرا أن أعهد إليك بهذه المهمة الشاقة. ولست في حاجة إلى أن أطلب إليك إنجازها بكل ما يمكن من لباقة.

فانحنى الكابتن "جراندجان" في حين تنفس الآخرون الصعداء. وانزوى الكابتن جانباً ما بقي الكولونيل. وما إن خرج الرئيس حتى أفلتت منه هذه العبارة:

– ثمة أشياء يجب أن يحسب حسابها عند الترقية.

وكان الجميع في اليوم التالي وقت الغداء ينتظرون عودته بفارغ الصبر. فسأل الكولونيل باختصار:

– ما الخبر؟ لم يجب الكابتن في الحال. وجلس إلي المائدة حيث كان زملاؤه يعدون شرابهم. أما

هو- فكان رفاقه يسخرون منه لقلة تعاطيه الشراب- فقد عب كوباً كبيراً دفعة واحدة دون أن ينتظر ذوبان السكر فعاد الكولونيل يقول:

- ما الخبر ياكابتن؟

- يا سيدي الكولونيل لقد تم كل شيء. تستطيع أن تطمئن، لن ينزل إلى البر. ياإلهي يالها من مهمة ثقيلة.

لم يجرؤ الضباط على أن ينبسوا بكلمة، غير أن نظراتهم وحدها كانت تفصح عن فضول قلق.

تناول الكابتن جرعة ماء:

- هاكم القصة: لقد أعددت حديثي وأنا في طريقي إليه في القارب وحينما ارتقيت الدرج شعرت بأن كل ما أعددته قد تبخر. كان "سانت أفيت" في حجرة التدخين صحبة قبطان الباخرة. وخيل لي أنني لن أجد في نفسي القوة على أن أبلغه جلية الأمر وقد رأيته متهيئاً للنزول. كان يرتدي ثوب النهار وسيفه على المقعد. وكان يلبس مهمازه. ولا يلبس المهماز على الباخرة. وقدمت نفسي وتبادلنا بعض الحديث. ولعله كان يبدو على سيمائي التكلف؛ إذ أدركت منذ أول لحظة أنه قد حدس الأمر. وتذرع بعذر ما تاركا القبطان، وقادني إلى موخرة السفينة على مقربة من عجلة القيادة الضخمة. وهناك تجاسرت على الكلام. ماذا قلت ياسيدي الكولونيل؟ لابد أنني قد تعثرت في الحديث. لم يكن ينظر إليَّ. وسرح ببصره بعيداً وقد اتكأ على حاجز السفينة وعلى ثغره ظل ابتسامة. ولما ارتج علي نظر إلي في برود وقال:

- إني أشكر لك أيها الزميل العزيز ما تحملت من مشاق. على أنه لم يكن ما يدعو إلى ذلك؛ فإني متعب، وما كنت أنوي النزول من الباخرة. ولكن قد أسعدني الحظ أن أتعرف إليك. وبما أني لا أستطيع الاستمتاع بضيافتك أرجو أن تتفضل بقبول ضيافتي ما بقي القارب بجانب الباخرة.

وعدنا إلى قاعة التدخين. وأعد بنفسه الكوكتيل وأخذ يحدثني، فألفينا لنا أصدقاء مشتركين، لن أنسى أبداً هذا الوجه وهذه النظرة الساخرة التائهة، وهذا الصوت الحزين الرقيق. يا سيدي الكولونيل ويا سادتي إني أجهل ما يحكى في الإدارة الجغرافية أو في مراكز "السودان"، ولكن لن يكون هناك إلا لبس فظيع. رجل مثل هذا يقدم على اقتراف مثل هذا الجرم! صدقوني ليس هذا ممكناً.

وختم "شاتلان" حديثه بعد فترة صمت بقوله:

- هذه هي القصة يا سيدي الملازم. لم أر قط في حياتي غداءكئيبا كهذا. وأسرع الضباط في تناوله دون أن يعربوا عما كانوا يشعرون به من ضيق لم يحاول أحد أن يقاومه. وكنا نلاحظ خلال

هذا الصمت المطبق النظرات تتجه خفية في غير ما انقطاع نحو « مدينة نابولي » التي كانت تتراقص هناك بفعل النسيم على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ.

وفي المساء عندما تقابل الضباط على مائدة العشاء كانت الباخرة مازالت هناك. وحينما أنبأ الصفير والدخان المتصاعد من المدخنة ذات اللونين الأحمر والأسود برحيل الباخرة إلى "قابس"، حينئذ فقط عادوا إلى أحاديثهم وإن لم تكن مرحة كالعادة.

ومنذ ذلك الوقت ياسيدي الملازم تجنب القوم في نادي "صفاقس" كل موضوع يؤدي إلى التحدث عن الكابتن "دي سانت أفيت" كما يتجنبون الطاعون.

كان "شاتلان" يتكلم بصوت خفيض تقريباً ولم يستمع سكان الواحة القليلون إلى قصته الفريدة. وانقضت ساعة على آخر طلقة من بنادقنا. وكانت طيور القمري وقد عاودها اطمئنانها تستحم حول البركة. وحلقت طيور كبيرة تحت النخيل الظليل. وجعلت ريح قليلة الحرارة ترجح في رعدة سعفها الكثيف، كنا قد وضعنا خوذتينا بجانبنا لتعرِّض وجوهنا لخطرات هذه النسمة الخفيفة. فقلت:

- "شاتلان" حان وقت العودة إلى البرج.

وجمعنا في بطء ما تساقط من طيور القمري، وأحسست بنظرة "صف الضابط" تنصب عليَّ. كانت نظرة يشوبها التأنيب والأسف على اعترافه. ولكني لم أجد القوة خلال المدة التي استغرقناها في عودتنا على أن أقطع هذا السكون البغيض بكلمة واحدة.

وحينما وصلنا كان الليل قد شملنا تقريباً. كنا لا نزال نرى العلم في أعلى المركز وهو يتساقط على الصاري، بيد أننا لم نكن نميز ألوانه وقد غابت الشمس في الغرب وراء الكثبان المتعرجة على سواد السماء البنفسجي.

ولما دخلنا من باب الحصن تركني "شاتلان" وهو يقول:

- إني ذاهب إلى الإسطبل.

ولما صرت وحيداً توجهت إلى ناحية من البرج حيث مسكن الأوربيين ومخزن الذخيرة. وثمة كآبة لا توصف جعلتني أنكس رأسي.

وفكرت في زملائي في الحاميات الفرنسية: في مثل هذه الساعة كانوا دون ريب في طريقهم إلي منازلهم حيث تنتظرهم على فرشهم ملابس السهرة: الحلل المزركشة ذات الأكتاف البراقة.

فقلت في نفسي: غداً سأبعث بالتماس لنقلي.

كان الدرج المصنوع من اللبن مظلماً، وكانت أضواء باهتة تتحرك في حجرة المكتب حين دخولي.

وقد جلس إلي مكتبي رجل منكب على السجلات وقد أولاني ظهره فلم يفطن لحضوري.

- حسن! "جورو" أرجو يابني ألا تشعر بمضايقة. فأنت في بيتك. فنهض الرجل فرأيته طويل القامة نحيفها شاحب اللون.

- الملازم "فريير"، أليس كذلك؟

فتقدم ومد إليّ يده:

- كابتن "دي سانت أفيت". أنا مسرور يا زميلي العزيز.

وفي هذه اللحظة ظهر "شاتلان" عند باب المكتب فقال له القادم الجديد:

- أيها الجاويش ليس لي أن أهنئك على القليل الذي اطلعت عليه. لم أجد رجلا واحداً لا يعوزه حزام. وكانت كعوب البنادق في حالة تبعث على الاعتقاد بأن السماء تمطر في "حسي إينيفل" ثلاثمائة يوم في السنة. ثم أين كنت هذا المساء؟ لم أجد من الفرنسيين الأربعة في المركز حين وصولي غير كاتب واحد بين يديه كأس من الشراب. كل هذا سيتغير. أليس كذلك؟ انصراف.

فقلت في صوت خافت وقد وقف "شاتلان" جامداً، في حركته انتباه:

- أحب أن أخبرك بأن الجاويش كان معي وأنني المسؤول عن غيابه من المراكز، وأنه "صف ضابط" لا غبار عليه، وأننا لو كنا قد أنبئنا بقدومك...

فقال في ابتسامة كلها سخرية باردة:

- بالتأكيد! ولذا لا أنوي أيها الملازم أن أسأله عن إهمال تقع عليك تبعته. ليس له أن يعرف أن الضابط الذي يترك ولو ساعتين مركزاً مثل "حسي إينيفيل" مهدد بألا يجد شيئاً عند عودته. إن نهابي قبيلة "الكمبا" يا زميلي العزيز مغرمون بالأسلحة النارية؛ وأنا على يقين بأنهم لن يترددوا لحظة، إذا انتهزوا فرصة غياب الضابط الذي أعرف أنه طيب السيرة، في الاستيلاء على الستين بندقية التي تملأ المخزن معرضين هذا الضابط للمثول أمام مجلس عسكري. ولكن أرجو أن تتبعاني. سنتم التفتيش الصغير الذي قمت به في عجلة منذ الساعة.

كان قد وصل إلى الدرج. واقتفيته في صمت وقد تبعنا "شاتلان".

وسمعت هذا الأخير يتمتم في ضجر أترك لكم أن تتخيلوه:

- حقا إن الحياة ستكون شاقة هنا.

الفصل الثاني

الكابتن "دي سانت أفيت"

ولم نحتج إلا إلى أيام قليلة ليتأكد لنا بطلان مخاوف "شاتلان" الخاصة بعلاقتنا الرسمية مع رئيسنا الجديد. وكثيراً ما ظننت أن "سانت أفيت" بما أظهر من خشونة لأول وهلة إنما أراد أن يظهر ما له من سلطان علينا مؤكداً لنا أنه يعرف كيف يشمخ بأنفه بالرغم من ماضيه المثقل.

ومع ذلك فقد بدا في اليوم التالي لوصوله في مظهر مختلف كل الاختلاف عن مظهره الأول، حتى لقد شكر للجاويش حسن حالة المركز وحسن تدريب الجنود. أما معي أنا، فقد كان ظريفاً للغاية. وقال لي:

– نحن من دفعة واحدة. أليس كذلك؟ إذنً فلن أصرح لك برفع الكلفة بيننا؛ إذ من حقك أن ترفعها.

علامات ثقة باطلة وا أسفاه! وظواهر كاذبة لحرية الفكر بيني وبينه. هل من شيء يمكن التوغل فيه بسهولة كالصحراء التي تفتح صدرها لكل من يريد أن يفنى فيها؟ وهل ثمة من هو أكثر غموضاً منها؟ بعد ستة أشهر قضيناها في مسكن واحد وعشنا خلالها عيشة واحدة تتيحها دائماً مراكز الجنوب، سألت نفسي: أليس من أغرب المخاطرات أن أرحل غداً مع رجل إلى تلك الجهات الموحشة المجهولة، مع أني لا أعرف من دخائل نفسه أكثر مما أعرف عن تلك الفيافي التي نجح في تشويقي إليها؟!

وأول ما استثار دهشتي في هذا الرفيق الغريب هو المتاع الذي أمر أن يلحق به.

لما قدم علينا فجأة من "وارجالان" كان قد عهد إلى الناقة الكريمة التي امتطاها بحمل ما يمكن أن يحمله حيوان رقيق مثلها دون أن ينفق، كأسلحته: السيف والمسدس وبندقية قوية، وبعض متاع قليل جدا. ولم يصل باقي المتاع إلا بعد خمسة عشر يوماً مع القافلة التي تقوم بتموين المركز.

وحملت ثلاثة صناديق كبيرة الحجم على التعاقب إلى حجرة الكابتن. وقد دل جليا على ثقلها ما كان يبدو على وجوه الحمالين من تقطيب.

وقد تركت "سانت أفيت" وحده يأخذ حريته وهو ينظم شؤونه، وطفقت أقرأ الرسائل التي حملتها إلي القافلة.

ثم دخل بعد قليل المكتب وألقى نظرة إلى ما وصل إليَّ من مجلات قليلة وقال:

– عجباً! أيصل إليك هذا؟

وكان يتصفح في الوقت نفسه العدد الأخير من مجلة «الجمعية الجغرافية في برلين».
فأجبته:

– نعم! إن هؤلاء السادة يهتمون ببحوثي الچيولوچية في "وادي المياه" وأعالي "غرغيرة".

فتمتم يقول وهو يتصفح المجلة:

– لعلي أستفيد من هذا.

– إنها رهن أمرك.

– أشكرك، أخشى ألا يكون لدي ما أهبه لك في مقابلها ما عدا "بلين" على ما أذكر. على أنك.... أنت تعلم– يقيناً كما أعلم– ما يقوله "بلين" عن "غرغيرة" نقلا عن الملك "يوبا". وعلى أية حال فهلم لتساعدني على تنظيم شؤوني وسترى ما يلائمك دون حاجة إلى مزيد من رجاء.

فابتدأنا بإخراج بعض الآلات المتيورولوچية والفلكية من ترمومترات بوادان وسالرون وفاستريه، ومقياس ضغط فورتان، ومقاييس زمن، ومقياس للزاوية، ومنظار فلكي، وبوصلة ذات منظار، وباختصار كل ما يسميه "ديفرييه" أبسط عدة وأخفها حملا على الجمال.

وكنت كلما ناولني "سانت أفيت" آلة من هذه الآلات، أضعها في نظام على المائدة الوحيدة التي كانت في الحجرة. ثم صاح بي:

– لم يبق الآن غير الكتب وسأناولها لك. فكوّمها في أحد الأركان حتى تُهيأ الرفوف.

لبثت معه ساعتين أساعده على ترتيب مكتبة كاملة. وأية مكتبة! لم ير مثلها مركز في الجنوب.

اجتمعت بين جدران حجرة البرج الأربعة المطلية بكل نصوص القدماء التي يمكن أن يكون فيها ما يمت للصحراء بصلة: "هيرودوت" و"بلين" بالتأكيد، و "سترابون"، وكذلك "بطليموس" و"بومبونيوس ميلا" و"اميان مرسلان". ولكنني لمحت إلى جانب هذه الأسماء التي خفضت قليلاً من جهلي أسماء "كوريبوس" و"بول أوروز" و"أراتوستين" و"فوثيوس" و"ديودور" الصقلي و"سولان" و"ديون كاسيوس" و"أيزيدور الأشبيلي"، و"مارتن" الصوري و"أيتيكوس" و"آتينية".... و«كتاب تاريخ "أوغسطس"» و«رحلة "أنطونيوس أوغسطس"» و«صغار الجغرافيين اللاتينيين» تأليف رييز، و"صغار الجغرافيين الإغريق» تأليف "كارل مولر".... منذ ذلك الحين سنحت لي فرصة للتعرف بـ"أجارتشيد" من "كوس" و"الأرتيميدور الأيفيزي". على أني أعترف بأن وجود هذه البحوث في هذه اللحظة في حجرة ضابط من ضباط السواري قد أثار شعوري.

وأذكر أيضاً «وصف إفريقيا» لـ"ليون" الإفريقي والتواريخ العربية لـ"ابن خلدون" و"اليعقوبي"

و"البكري" و"ابن بطوطة" و"محمد التونسي".... ولا أذكر من هذا الخليط إلا كتابين يحملان اسمي عالمين فرنسيين معاصرين. على أنهما رسالتان باللاتينية لـ"برليو"(١) "وشرمر"(٢)

وبينما أنا أكوم هذه الكتب المختلفة الأحجام بحيث تحتفظ بتوازنها قدر المستطاع كنت أحدث نفسي:

– لقد اعتقدت أن "سانت أفيت" مكلف بملاحظات علمية في مهمته مع "موراخ". فإما أن تكون ذاكرتي قد خانتني تماماً، وإما أن يكون قد غير منذ ذلك الوقت منهجه في الحياة؛ على أنه من المؤكد أنني لا يهمني شيء من هذا الخليط من الكتب.

ولابد أنه قد شاهد علامات الدهشة واضحة على وجهي كل الوضوح؛ إذ قال لي بصوت لمست فيه شيئاً من التحدي:

– لعل اختياري للكتب قد أدهشك.

فقلت:

– ليس من حقي أن أقول إنه أدهشني ما دمت أجهل الغرض الذي استصحبتها من أجله. وأعتقد أن في مقدوري أن أقول مؤكداً إنه لم يحدث أن امتلك ضابط مكتبة مثلت فيها العلوم القديمة أصدق تمثيل مثل مكتبتك هذه. وأقول ذلك وأنا لا أخشى أن يكذبني أحد.

وبدا على شفتيه ظل ابتسامة. ثم قطعنا الحديث في ذلك اليوم.

وكان مما شاهدته بين كتب "سانت أفيت" كراسة ضخمة ذات قفل متين. وقد فاجأته مراراً وهو يدون فيها بعض المذكرات. وكان إذا دعاه سبب إلى مغادرة حجرته يضع الكراسة بعناية في خزانة من الخشب الأبيض هيأتها له أريحية الإدارة. وإذا لم يكن لديه عمل ما أمر بوضع الرحل على الجمل الذي جاءنا عليه. وبعد بضع دقائق كنت أستطيع أن أرى، وأنا على سطح الحصن، خيالاًمزدوجاً يختفي بسرعة في خطوات واسعة في الأفق خلف ثنية من الأرض الحمراء.

وأخذت هذه الجولات تطول مرة بعد مرة. وكان يعود بعد كل جولة تسيطر عليه نشوة تحملني على إدامة النظر إليه خلال تناول الطعام – وقد كان الوقت الوحيد الذي نقضيه في الواقع معاً– ويخالجني من ذلك قلق يزداد يوماً بعد يوم.

وفي ذات يوم ظهر على حديثه التفكك أكثر من العادة. قلت لنفسي:

---

(1) Doctrina ptolemaei ab injuria recentiorum vindicata, sive Nilus Superior et Niger verus, hodiernus Eghiren, abantiquis explorati. paris. in- 8. 1874. مع خريطتين. (تعليق السيد لورو)

(2) De nomine et genere populorum qui berberi Vulgo dicuntur, paris, in-80,1892. (تعليق السيد لورر)

– ليس من دواعي الارتياح أن يكون المرء في غواصة يتعاطى ربانها "الأفيون" . فما عسى أن يكون المخدر الذي يتعاطاه ذلك الرجل؟

وفي اليوم التالي ألقيت نظرة سريعة على أدراج زميلي. وقد طمأنني مؤقتاً التفتيش الذي كنت أراه واجباً عليَّ؛ ولكنني لعله يحمل في ردائه الأنابيب وحقنة "برافاز" .

كنت في ذلك الوقت أتصور أن خيال "أندريه" في حاجة إلى منبه صناعي.

على أن الملاحظة الدقيقة قد خيبت ظني إذ لم أجد ثمة ما يريبني. وعلى كل حال كان "أندريه" لا يتناول الخمر تقريباً، وقد كان قليل التدخين.

بيد أني لم أكن أستطيع أن أنكر ما كان يبدو عليه من حمى مقلقة متزايدة. كان يعود دائماً من جولاته شديد الشحوب، واضح بريق العينين، قوي الرغبة بالإفضاء بما في نفسه، ضيق الصدر جدًّا.

وفي ذات مساء غادر المركز حوالي الساعة السادسة عندما هبطت الحرارة، وأخذنا ننتظره طيلة الليل. وقد اشتد قلقي من وجود عصابات اللصوص؛ إذ أكدت القوافل وجود هذه العصابات في الأقاليم المجاورة للمركز.

وقد أسفر الفجر دون أن يعود، ولم يعد إلا الظهر وقد سقط الجمل إعياء إذ لم يستطع البروك.

ووقع بصره أول ما وقع على الجماعة التي كنت قد أعددتها للبحث عنه وقد احتشد رجالها ودوابها في الفناء بين الأبراج.

وأدرك أنه لابد من أن يعتذر. ولكنه انتظر حتى ساعة الغداء وقال:

– آسف لما سببته لك من قلق؛ غير أن الكثبان كانت رائعة في ضوء القمر. لقد تركت نفسي في انسياقها...

– ليس عندي ياعزيزي ما آخذه عليك. إنك مطلق التصرف وأنت هنا السيد. ولكن اسمح لي بأن أنبهك إلى عبارة عن لصوص "الكمبا" وعن الأذى الذي قد يلحق بقائد المركز إذا تغيب طويلا.

فابتسم وأجاب في بساطة:

– أنا لا أكره أن يكون للمرء ذاكرة قوية.

كان معتدل المزاج للغاية.

– يجب ألا تحقد عليَّ. لقد خرجت في جولة صغيرة كالعادة ثم بزغ القمر. وعندئذ عاودتني ذكرى هذا المكان: سيكون قد مضى في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) القادم ثلاث وعشرون سنة عندما خرج "فلاترز" من هذا المكان إلى حتفه في نشوة عنيفة زاد في عنفها

يقينه بأنه لن يعود.

فتمتمت:

- إنها لعقلية غريبة لرئيس بعثة.

- لا تسئ إلى "فلاترز". فما من رجل أحب الصحراء حتى الموت مثله.

فقلت:

- إن "بالات" و"دولز" وكثيرين غيرهما قد أحبوها كذلك. ولكنهم لم يعرضوا للخطر إلا أنفسهم. فقد كانوا غير مسؤولين إلا عن حياتهم فقط. أما "فلاترز" فكان مسؤولاً عن حياة ستين رجلاً معه. ولا تستطيع أنت أن تنكر أنه تسبب في قتل أفراد بعثته جميعاً.

وماكدت أنطق بهذه الجملة حتى ندمت عليها. وأخذت أفكر في حديث "شاتلان" في نادي "صفاقس" حيث يتقون- كما يُتَّقى الطاعون- أي حديث يمكن أن يوجه تفكيرهم نحو بعثة "مورانج"- "سانت أفيت".

ولكن لحسن الحظ لم يسمع زميلي جملتي إذ كانت عيناه البراقتان شاردتين. ثم سألني فجأة:

- بأي حامية كان أول التحاقك؟

- بحامية "أوكسون".

فضحك ضحكة متقطعة.

- "أوكسون". الساحل الذهبي- في دائرة "ديجون": ستة آلاف ساكن. على سكة حديد "باريس- ليون- مارسيليا". كان يوم الأحد يوم استقبال زوجة قائد السواري كما كان السبت يوم استقبال زوجة القائمقام. الإجازات يوم الأحد: أول أحد في الشهر في باريس. والثلاثة الأخر في "ديجون". هذا ما يفسر لي حكمك على "فلاترز".

أما أنا يا عزيزي فقد كان أول حامياتي في "بوغار". نزلت هناك من الباخرة في صباح يوم من أيام شهر أكتوبر (تشرين الأول)، كنت في العشرين من عمري ملازماً ثانياً في الفيلق الأول الإفريقي وعلى كمي الأسود الشريط الأبيض. «أمعاء معرضة للشمس» كما يسمي نزلاء الليمان أشرطة حراسهم.... "بوغار"! "بوغار"!

كنت قد بدأت ألمح أرض إفريقيا قبل ذلك بيومين وأنا على ظهر الباخرة. وإني لأرثي لهؤلاء الذين لا يشعرون بخفقة شديدة حينما يرون لأول مرة تلك الصخور الشاحبة ويفكرون في أن هذه الأرض تمتد إلى آلاف الأميال. كنت مازلت طفلا وكنت أملك نقوداً. كنت قد وصلت مبكراً. كان في إمكاني أن أمكث ثلاثة أيام أو أربعة في مدينة "الجزائر"

لألهو. ولكن في المساء نفسه أخذت القطار إلى "برواغيه".

وهناك على بعد مائة كيلو متر من "الجزائر" لا توجد سكك حديدية، ثم لا توجد بعد ذلك إلا في مدينة "الكاب". كانت المركبة لا تسير إلا ليلا لشدة الحرارة. وكنت أترك المركبة عند سفح الجبل لأسير بجانبها محاولا أن أتذوق في هذا الجو أول قبلة من الصحراء.

وعند منتصف الليل استرحنا قليلا في معسكر "الزواف"، وهو مركز مقام على طريق "دارس" يسيطر على واد جاف انبعث منه نفح محموم من نوار الزقوم. كان هناك جماعة من الكتبة العسكريين والجنود النظاميين متجهين نحو الحاجز في الجنوب تحت قيادة القناصة وحراس القطر. كان بعضهم وهم من نزلاء سجن "الجزائر" و"دويرة" يرتدون البدل العسكرية ولا يحملون سلاحاً بالتأكيد. أما الآخرون فكانوا من المدنيين وأي مدنيين! إنهم مجندو السنة وقوادو حي "لاشابيل" و"الجوت دور".

رحلوا قبلنا، وما لبثت المركبة أن لحقت بهم. رأيت على بعد في ضوء القمر على الطريق الصفراء ذلك الجمع الأسود المتراص الذي يكون القافلة. ثم سمعت أغنية خافتة. كان أولئك الأشقياء يغنونها. وأخذ أحدهم يردد في صوت حزين جهير هذا المقطع الذي كان يسري كئيباً في قيعان الأودية الزرقاء:

والآن، وقد كبرت.
هاهي ذي تذرع الرصيف
مع أفراد عصابة
"ريشار لنوار".

وكان الآخرون يرددون في صوت واحد هذا المقطع البغيض:

في الباستيل، في الباستيل
ما أشد حبهم
لنيني بو دي شيان.
ما أجملها، ما أظرفها،
في الباستيل، في الباستيل.

ورأيتهم حولي تماماً عندما حاذتهم المركبة. وتحت القبعات البغيضة كانت العيون في هذه الوجوه الشاحبة الحليقة تشع ناراً بشعة، وكان التراب الساخن يوقف الأصوات الجافة في الحناجر. واعترتني كآبة بغيضة حين خلفت المركبة وراءها ذلك الكابوس المزعج وصحت:

– بعيداً بعيداً إلى الجنوب في تلك الأماكن التي لا تصل إليها قاذورات المدنية.

وكلما أجهدتني الرحلة وانتابتني لحظة غم، وشوق إلى أن أقف في الطريق التي اخترتها لنفسي، أذكر كتيبة "برواغيه" فلا أفكر حينئذ إلا في متابعة السير.

ولكن ياله من جزاء عندما أجد نفسي في أحد هذه الأماكن حيث لا تفكر الحيوانات التعسة في الهروب لأنها لم تر إنساناً قط، وحيث تمتد الصحراء متطاولة حتى لو انهار العالم القديم لا تجد ثنية على الكثبان أو سحابة في السماء البيضاء تنبئك بذلك.

فتمتمت قائلا:

– هذا حق! لقد أحسست هذا الإحساس نفسه ذات مرة في أواسط الصحراء عند "تيدي كلت".

كنت إلى تلك اللحظة قد تركته يسترسل في حديثه دون مقاطعة. وأدركت أخيراً ما ارتكبت من خطأ حينما قاطعته بتلك العبارة المشؤومة. وعاودته ضحكته العصبية البغيضة:

– آه! حقا في "تيدي كلت". إني أنصح لك بما فيه مصلحتك، إذا أردت ألا يسخر منك الناس فاجتنب هذا النوع من الذكريات. إنك تذكرني بـ"فرومنتان" أو بـ"موباسان" المسكين الذي تكلم عن الصحراء لأنه وصل إلى "جلفا" على يومين من شارع باب "أزون" و"ميدان الحكومة" وعلى أربعة أيام من شارع الأوبرا، والذي أعتقد أنه في جوف الصحراء على طريق القوافل العتيقة إذ رأى بالقرب من "أبي سعدة" جملا تعساً كان يحتضر. "تيدي كلت"! الصحراء؟

فقلت بشيء من الكدر:

– ولكن يخيل إليّ أن "عين صلاح"....

– "عين صلاح"! "تيدي كلت". يا صديقي المسكين، إن آخر مرة مررتها هناك وجدت جرائد قديمة وعلب سردين فارغة، قدر ما يرى في غابة "فانسين" يوم الأحد.

وأنساني تحفظي هذا التحيز وهذه الرغبة الواضحة في إثارتي؛ فقلت في مرارة:

– بالتأكيد إنني لم أذهب أنا إلى ...

وأمسكت ولكن سبق السيف العذل.

وواجهني بنظراته، فقال في هدوء:

– إلى أين؟

فلم أجب. فردد سؤاله:

– إلى أين؟

وإذ كنت لازمت الصمت قال لي:

- إلى وادي "تارحيت". أليس كذلك؟

كان البلاغ الرسمي يقول إن الكابتن "مورانج" دفن على حافة وادي "تارحيت" على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً من "تيماساو" على خط عرض شمالي 23.5 . فصحت في طيش:

- "أندريه" أقسم لك...

- بم تقسم لي؟

- إنه لم يخطر لي قط...

- الكلام عن وادي "تارحيت"؟ ولماذا؟ ولأي سبب لا يتحدث إنسان أمامي عن وادي "تارحيت"؟

وهز كتفيه أمام صمتي المليء بالتوسلات. وقال في بساطة:

- أبله!

وغادرني دون أن أفكر في الرد على كلمته هذه.

لم يكن كل هذا التواضع ليهدئ من روعه. وتأكدت من ذلك في اليوم التالي. لا يمكن أن يوصف الأسلوب الذي أظهر به غضبه إلا بأنه بعيد عن اللياقة.

وما كدت أترك فراشي حتى دخل عليَّ الحجرة وسألني:

- أيمكنك أن تشرح لي معنى ذلك؟

كان يحمل في يده سجلا إداريا. وكان من عادته في أزماته العصبية أن ينزع إلى فحصها آملا في أن يعثر على قرينة تجعله رجلا عسكريا فذا.

وقد أسعده الحظ بما أمل في هذه المرة.

وفتح السجل وعلا وجهي احمرار شديد حينما لمحت فيه طبعة أولية باهتة لصورة كنت أعرفها حق المعرفة.

- وسأل في ازدراء:

- ما هذا؟

كثيراً ما فاجأته وهو يدقق النظر في صورة الآنسة "دي س..." دون مراعاة لشعوري. فأدركت في هذه اللحظة سوء نيته لإثارة الشجار بيني وبينه. وتماسكت وأقفلت الدرج على تلك الصورة البائسة.

غير أنه لم يكن ينتظر هذا الهدوء من جانبي. فقال:

- من الآن فصاعداً أرجو أن تلاحظ ألا تترك ذكرياتك الغرامية بين الأوراق الرسمية.

ثم أضاف بابتسامة كلها إهانة:

- يجب ألا تعطي فرصة لإثارة "جورو".

فقلت وأنا شاحب الوجه:

- "أندريه" إني آمرك....

فانتصب واقفاً وهو يقول:

- ماذا؟ يا لها من مسألة سخيفة! لقد صرحت لك بالتحدث عن وادي "تارحيت" أليس كذلك؟ أظن أن لي الحق كل الحق....

- "أندريه"!

وأخذ ينظر في ازدراء إلى الصورة المعلقة بالحائط التي أشفقت على طبعتها من هذا المشهد العصيب.

- أرجو ألا تغضب. ولكن أعترف فيما بيننا بأنها- حقا- على شيء من النحافة.

وقبل أن أجد الوقت الكافي لإجابته كان قد اختفى وهو يترنم بأغنية الأمس الشائنة:

"في الباستيل، في الباستيل

ما أشد حبهم

لنيني بو دي شيان"

ولبثنا ثلاثة أيام لا نتجاذب فيها أطراف الحديث. وكان حنقي لا يوصف. هل كنت مسؤولا عن مصائبه؟ أم هل كنت مخطئاً إن كان في أكثر ما أفوه به بعض التعريض؟...

وقلت في نفسي: إن هذا الموقف لا يحتمل. لا يمكن أن يستمر أكثر من هذا!

وكان فعلا قد أوشك أن ينتهي.

لم يمض أسبوع على واقعة الصورة الشمسية حتى وصل إلينا البريد. لم أكد ألقي نظرة على فهرس المجلة الألمانية التي تحدثت عنها آنفاً حتى اعترتني الدهشة. كنت قد قرأت: «سفر واكتشاف اثنين من الضباط الفرنسيين، الكابتن "مورانج" والملازم "دي سانت أفيت"، في الصحراء الغربية».

وسمعت في اللحظة نفسها صوت زميلي وهو يقول:

- هل هناك شيء مهم في هذا العدد؟

فقلت بلا اكتراث:

- لا!

- أرنيه.

فامتثلت، وما كنت أستطيع أن أفعل غير هذا.

وبدا لي أن لونه قد شحب وهو يطالع الفهرس. غير أنه قال لي بصوت طبيعي للغاية:

- ستعيرني هذا. أليس كذلك؟

ثم خرج وهو يلقي عليَّ نظرة متحدية.

وانقضى النهار متثاقلا ولم أره إلا في المساء. كان يبدو شديد المرح حتى لقد آلمني مرحه.

ولما انتهينا من العشاء ذهبنا إلى السطح واتكأنا على حاجزه. ومن هناك أخذنا نلقي بنظرنا على الصحراء التي أخذ يغشاها الظلام من ناحية الشرق شيئاً فشيئاً. وقطع "أندريه" ذلك الصمت:

- آه! بالمناسبة قد أعدت إليك المجلة. كنت على حق؛ ليس فيها ما يهم.

كان يبدو شديد السخر.

- ماذا؟ ماذا أصابك؟

فأجبت وأنا أختنق:

- لا شيء.

- لا شيء؟ أتريدني أن أنبئك بما أصابك؟

نظرت إليه في استعطاف. فهز كتفيه. لابد أنه كان يصفني بالحمق. جن علينا الليل مسرعاً. وكانت لاتزال الحافة الجنوبية لوادي المياه مصفرة.

وفجأة انحدر "ابن آوى" في منحدر الأحجار وهو يعوي متألماً. فقال "دي سانت أفيت":

- إن "ابن آوى" يبكي بلا سبب، إن هذا لنذير شؤم.

ثم عاد يقول في قسوة:

- أما تريد أن تتكلم؟

وبذلت جهداً كبيراً لأنطق بهذه الجملة البائسة:

- ياله من نهار متعب! ويا له من ليل ثقيل... ثقيل. إننا لا نشعر بأنفسنا..... لا ندري....

وردد صوت "دي سانت أفيت" المتباعد:

- نعم! إنها ليلة ثقيلة ثقيلة! ثقيلة مثل تلك الليلة التي قتلت فيها الكابتن "مورانج".

الفصل الثالث

بعثة "مورانج" و"سانت أفيت"

- إذن فقد قتلت الكابتن "مورانج".

هذا ما قاله لي "أندريه دي سانت أفيت" في اليوم التالي وفي الساعة نفسها وفي المكان نفسه بهدوء غير مكترث بوطأة الليلة، تلك الليلة المفزعة التي قضيتها.

- ولم قلت لك ذلك؟ لست أدري. لعل ذلك بسبب الصحراء. هل أنت الرجل الذي يتحمل ثقل هذا الاعتراف، والذي يتحمل تبعاته عند الحاجة؟ لست أدري أيضاً عن هذا شيئاً. لسوف ينبئنا المستقبل. والآن أكرر أنه ليس ثمة حقيقة ثابتة غير أني قد قتلت الكابتن "مورانج".

لقد قتلته. ومادمت ترغب في أن أبين لك الأحوال، فلا تعتقد أنني سأجهد عقلي كي أبتدع لك قصة، أو أني أبدأ فأقص عليك كالطبيعيين ما كانت عليه سنوات طفولتي، أو كما يريد محدثو الكاثوليك أن أنبئك بأمري: هل كنت أعترف كثيراً وأنا طفل، وأية لذة كنت أجد. لا أميل إلى الظواهر الباطلة. سيروقك إذن أن أبتدئ قصتي تماماً في الوقت الذي عرفت فيه "مورانج".

أقول لك أولا إنه مع ما كلفني من مشاق وإهانات فلست بآسف على معرفته. وموجز القول مع غض النظر عن مسألة سوء الزمالة لأني قد ارتكبت خيانة شنيعة بقتله. إني أدين له ولعلمه بالنقوش الصخرية بالشيء الوحيد الذي جعل حياتي أكثر قيمة من حياة زملائي البائسة في "أوكسون" وفي أي مكان آخر.

والآن هاك الوقائع: سمعت لأول مرة اسم "مورانج" في المكتب العربي بـ"وارجالان" حيث كنت ملازماً. ولابد أن أضيف أن هذا الاسم أثار في غضباً شديداً. كنا في زمن جد مضطرب. وكانت عداوة سلطان "مراكش" كامنة في الصدور. ففي "التوات" حيث دبر قتل "فلاترز" و"فرسكالي"، كان عظمته يساعد أعداءنا في مؤامراتهم. وكان أيضاً مركز تموين للبدو الفارين. وقد طلب حكام "الجزائر" وهم "ترمان" و"كامبون" و"لافريير" باحتلال المقاطعة. وكان وزراء الحربية يشاركونهم في هذا الرأي سرا. ولكن كان هناك برلمان لم يوافق بسبب "إنجلترا" و"ألمانيا" وخاصة بسبب إعلان حقوق الإنسان والمواطن التي تنص على أن الثورة من أقدس الواجبات حتى لو كان الثوار من المتوحشين الذين يقطعون الرأس بمهارة. ومجمل القول أن السلطات الحربية قد اضطرت إلى زيادة حاميات الجنوب سرا وإلى إنشاء

مراكز جديدة مثل هذا المركز ومركز "بريسوف" و"حسي المياه" وحصن "ماك ماهون" وحصن "لالمان" وحصن "مريبل". ولكن كما يقول "كاسترس"، لن نقهر البدو بالحصون بل ببطونهم. والبطون تغذيها واحات "توات". كان علينا إقناع هؤلاء السادة محامي "باريس" بضرورة الاستيلاء على واحات "توات". وكان الأفضل أن يقدم لهم صورة حقيقية عن الدسائس التي كانت تدبر لنا هناك.

وكان أهم مدبري هذه الدسائس – ومازالوا – السنوسيين. وقد اضطرت قواتنا رئيسهم الروحي إلي نقل مركز جمعيته على مسافة ٥٠٠٠ كم تقريبا من هناك في "شيمدرو" في "تبسة". وقد جاءتهم (أقول جاءتهم تواضعاً) فكرة تتبع آثار هؤلاء الثوار في رحلاتهم المختارة: "غاط" و"تيماسنين" و"سهل أجيمور" و"عين صلاح". وكانت هذه الطريق كما ترى ابتداء من "تيماسنين" على الأقل الطريق نفسها التي سلكها "جيرار رولفز" في عام ١٨٦٤.

وكنت قد أصبت بعض الشهرة أثر رحلتين قمت بإحداهما إلى "أجادس" وبالأخرى إلى "بلما". وكنت معروفاً بين الضباط بأني من الملمين بالمسألة السنوسية. فطلب إليَّ إذن أن أقوم بهذه المهمة الجديدة.

فلفتُّ نظرهم إلى ما يعود من فوائد من إصابة عصفورين بحجر واحد وإلقاء نظرة أثناء الطريق على الحجَّار الشمالي لنتبين أمر الطوارق في "أهيتا رهن" وهم يحتفظون دائماً بعلاقات ودية مع السنوسيين، كما كانت الحال وقت أن اتفقوا على ذبح بعثة "فلاترز"، فاعترفوا لي في الحال بصواب رأيي. هذا هو التغير الذي طرأ على خط سيري الأصلي: عندما أصل إلى "إيغلاشم" على بعد ستمائة كيلو متر جنوب "تيماسنين" يكون عليَّ أن أتجه إلى الجنوب الغربي حتى "شيخ صلاح" متوغلا بين جبال "مويدر" والحجار بدل أن أصل مباشرة إلى "توات" عن طريق "غاط" و"عين صلاح". ومن هناك يكون عليَّ أن أصعد شمالا حتى "عين صلاح" عن طريق "السودان" و"أجادس" ثمانمائة كيلو متر تقريبا علاوة على المسافة الأصلية التي تقدر بحوالي ثلاثة آلاف وستمائة كيلو متر تقريبا، ولكن مع ذلك كنت على يقين بأني سأقوم بملاحظة دقيقة بقدر الإمكان للطرق التي يسلكها أعداؤنا سنوسيو "تيبستي" وطوارق الحجار. وفي الطريق – ولكل مستكشف هواية – سررت حينما فكرت أن في مقدوري أن أفحص قليلا التكوين الجيولوچي لهضبة "إجيريه" التي تكلم عنها "دوفرييه" والآخرون في اختصار موئس(١).

وقد تهيأ كل شيء للرحيل من "وارجالان". كل شيء – أعني شيئاً قليلا – ثلاثة

---

(١) لا دراية عندي بنوع صخور "إجيريه". ولكن كل شيء يحملني على الاعتقاد بانها جيرية. «طوارق الشمال» تاليف هـ. "دوفيرييه". (تعليق السيد "لورو").

جمال، جمل لي وآخر لزميلي "بوجمة" - وهو من الكمبا المخلصين صحبني في رحلتي إلى "العير"، وهو آلة لتركيب رحال الجمال ونزعها أكثر منه رائداً في بلاد لا أجهلها - والثالث يحمل غذاءنا وقربا صغيرة لماء الشرب. فقد عنيت بأن أجعل استراحاتنا بقرب الآبار.

وقد كانت جماعة قامت بمثل هذه الرحلات مع كل واحد منهم مائة من النظاميين ومدفع أيضاً. أما أنا فاتبعت طريقة "دولز" و"رينيه كييه" إذ ذهبت منفرداً.

وكنت سعيداً بهذه اللحظة التي لا يربط الإنسان فيها بالعالم المتمدن غير خيط دقيق عندما وصلت برقية وزارية إلى "وارجالان" تقول في اختصار:

« أمر إلى الملازم "دي سانت أفيت" بتأجيل رحيله حتى وصول الكابتن "مورانج" الذي سيرافقه في رحلته الاستكشافية ».

لقد ساورني ما يفوق خيبة الأمل. فأنا وحدي الذي فكر في القيام بهذه الرحلة. وقد تجشمت كل المصاعب التي تعرفها لأحمل الجهات العليا على الاقتناع بالفكرة. وفي اللحظة التي سعدت فيها بأني سأقضي ساعات طويلة منفرداً في جوف الصحراء، إذا بهم يلحقون بي رجلا غريباً عني، بل - أكثر من هذا - رئيساً لي.

وزاد من سخطي ما أسرف فيه زملائي من تعزية.

وأمدهم الدليل الذي بحثوا فيه بالمعلومات الآتية:

« "مورانج" (جان ماري فرنسوا) دفعة ١٨٨١ . يحمل شهادة. كابتن خارج الهيئة. (الإدارة الجغرافية للجيش) ».

وقال أحدهم:

- هاك الإيضاح: إنه شخص ذو سند قوي، يبعثونه إليك ليحرز ثمرة انتصارك في أمر تحملت كل أعبائه. شهادة! ياللسخافة.

نظريات "أردان دي بيك" أو لا شيء سواء عندهم.

فقال قائدنا:

- لست أشاركك في الرأي تماماً. لقد عرفوا في البرلمان - والأسرار مع الأسف دائماً تُفشى - أن الهدف الحقيقي لبعثة "دي سانت أفيت" إنما هو حملهم على احتلال الـ"توات". ولابد أن يكون "مورانج" هذا من المخلصين للجنة الجيش. وهؤلاء الناس جميعاً - كما ترى وزراء ونواباً وحكاماً - يراقب بعضهم بعضاً. وسيحل يوم تدون فيه قصة متناقضة عن توسع الاستعمار الفرنسي الذي تم دائماً دون علم السلطات إن لم يكن بالرغم منها.

فأجبت في مرارة:

– مهما يكن من شيء فالنتيجة واحدة. سنكون فرنسيين يتجسس كل منا على الآخر ليل نهار في طرق الجنوب. ياله من حلم بديع في وقت لا يكفي فيه كل انتباهنا للتهرب من دعابات الوطنيين. متى يصل إلى هنا هذا السيد؟

– بعد غد من غير شك، لقد أنبئت بقافلة قادمة من "غاردايا" فمن المحتمل أن يلحق بها. وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأنه لا يستطيع الرحيل منفرداً.

ووصل فعلا الكابتن "مورانج" بعد يومين بفضل قافلة "غاردايا" وكنت أول شخص طلب الكابتن رؤيته.

وحينما دخل حجرتي حيث كنت قد انسجمت في وقار عندما أصبحت القافلة على مرأى منا، تملكتني دهشة بغيضة؛ إذ لا حظت أنه سيصعب علي أن أظل حاقداً عليه طويلا.

كان ضخم الجثة مكتنز الوجه محتقنه، أزرق العينين ضاحكهما، صغير الشارب أسوده، أشيب الشعر أو يكاد.

وقال في الحال في صراحة لم أعهدها في أحد غيره:

– أقدم لك عظيم اعتذاري يا زميلي العزيز. لابد أن تكون حاقداً على هذا الشخص الثقيل الذي أحبط كل مشروعاتك وأخر رحيلك.

فأجبته في برود:

– البتة يا سيدي الكابتن.

– يجب أن تحقد على نفسك قليلا. إن معرفتك بطرق الجنوب المشهورة في "باريس" هي التي رغبتني في اختيارك رائداً حينما تشاورت وزارة المعارف ووزارة التجارة مع الجمعية الجغرافية لتكليفي بالمهمة التي جاءت بي إلى هنا. لقد عهدت إليّ تلك الهيئات الثلاث المحترمة بمهمة استكشاف طريق القوافل القديمة التي كانت تنقل عليها التجارة منذ القرن التاسع بين تونس والسودان عن "توزر" و"وارجالان" والسوق و"كوع بوروم"، على أن أدرس هذا الطريق لأعرف هل من الممكن أن تعاد إليه روعته القديمة. ولكني علمت في الوقت نفسه من الإدارة الجغرافية بالرحلة التي اعتزمت أنت القيام بها. فطريقنا مشترك من "وارجالان" إلى "شيخ صلاح". ولابد أن أعترف لك فضلا عن ذلك بأن هذه هي أول رحلة أقوم بها من نوعها. إني لن أخشى أن أحاضر الساعة كاملة عن الأدب العربي في مدرج مدرسة اللغات الشرقية ولكني ألاحظ أنني سأشعر بضيق حين أسأل في الصحراء أأتجه يميناً أم يساراً؟ وسنحت لي فرصة فريدة لأحيط بذلك علما. وسأكون مديناً بكل هذا لرفيق ظريف.

فلا تحقد عليَّ إذا كنت قد انتهزت هذه الفرصة واستخدمت نفوذي لتأخير رحيلك من "وارجالان" إلى اللحظة التي أستطيع فيها أن ألحق بك. وليس لي أن أضيف إلى هذا غير كلمة واحدة: فأنا مكلف بمهمة هي في أصلها مدنية محضة. أما أنت فمعين من قبل وزارة الحربية. وحتى اللحظة التي نصل فيها إلى "شيخ صلاح" ونولي ظهورنا لنتجه: أنت إلى الـ"توات" وأنا إلى "النيجر"، سأتبع نصائحك وأوامرك كلها حرفيا كمرءوس لك وآمل أيضاً أن أقول كصديق.

وكلما تقدم به الحديث في هذه الصراحة، كان يخالجني فرح عظيم؛ إذ أرى أن ما استشعرت من مخاوف منذ لحظة قد أخذ يتلاشى. ولكنني أحسست برغبة شريرة في أن أقابله ببعض التحفظ؛ لأنه تحكم في مرافقتي وهو بعيد عني، دون أن يرجع في ذلك إليَّ.

- إني شاكر لك هذا الكلام المعسول يا سيدي الكابتن. متى تريد أن نغادر "وارجالان"؟

وأبدى حركة قلة اكتراث وقال:

- متى شئت أنت، غداً أو هذا المساء. لقد أخرت رحيلك. ولابد أن تكون قد انتهيت من استعدادك للسفر منذ زمن بعيد.

لقد رد سهمي في نحري إذ لم أكن قد فكرت في الرحيل قبل الأسبوع التالي.

- غداً، سيدي الكابتن؟ ولكن... أمتعتك؟

فعلت وجهه ابتسامة حلوة وقال:

- رأيت ألا آخذ معي من الأمتعة إلا القليل: بعض الملابس والأوراق التي لا يتعب جملي من حملها. أما الباقي، فأنا في انتظار نصائحك ورهن موارد "وارجالان".

لقد خذلت. لم تكن ثمة ما أعترض عليه. ولكن سرعان ما أسرني بما أبداه من حرية الفكر وحسن المعاملة.

وقال زملائي حين جمعنا الشراب:

- إن الكابتن يبدو عظيما للغاية.

- للغاية!

- فهو بالتأكيد لن يسبب لك مضايقات. وعليك فقط أن تحترس من أن يجني هو الثمرة كلها بعد ذلك.

فأجبت متهرباً:

- نحن لا نعمل معاً.

- كنت شارد الفكر، شارد الفكر فقط أقسم على ذلك. منذ هذه اللحظة صرت لا أحقد

على "مورانج" . ولكن صمتي أكد لهم أني أضمر له حقداً دفيناً. وبعدما أخذت الشكوك تحوم حول الحادث حدَّث الجميع أنفسهم قائلين:

«إنه آثم بلا شك. نحن من رأيناهما يرحلان معاً، نستطيع أن نؤكد ذلك».

نعم إنني آثم... ولكن لا من أجل دوافع الغيرة الوضيعة.... ياللسماجة!

ولم يبق بعد ذلك غير الهرب، الهرب إلى أماكن لا يلقى المرء فيها أناساً يفكرون ويعقلون.

وأقبل "مورانج" متأبطاً ذراع القائد الذي بدا سعيداً بهذا التعارف الجديد.

وقدمه القائد في ضجة:

- أيها السادة، أقدم لكم الكابتن "مورانج" ضابطاً من أنصار المدرسة القديمة فيما يتصل بالمرح، أقسم لكم. إنه يريد أن يرحل غداً. ولكن علينا أن نقيم له احتفالاً يبعد هذه الفكرة عنه بعد ساعتين. يمكنك يا سيدي الكابتن أن تقضي بيننا ثمانية أيام.

فأجاب "مورانج" وهو يبتسم في عذوبة:

- أنا رهن إشارة الملازم "دي سانت أفيت".

وأصبح الحديث عاما وتلاقت الأكواب والضحكات، ورأيت زملائي يكادون يغشى عليهم من الضحك أثناء الأحاديث التي لم يكف عن الإفاضة فيها القادم الجديد في مرح متصل. أما أنا فلم أشعر قط بالحزن مثلما شعرت به وقتئذ.

وحان وقت الذهاب إلى حجرة الطعام.

وصاح القائد في سرور متزايد:

- إلى يميني، يا كابتن. آمل أن تستمر في أحاديثك الظريفة عن "باريس"، فنحن هنا نجهل كل شيء كما تعرف.

- إنني رهن أمرك يا سيدي القائد.

- اجلسوا أيها السادة.

فامتثل الضباط محدثين ضجة مرحة وهم يحركون مقاعدهم. ولم أكف عن النظر إلى "مورانج" وهو لا يزال واقفاً. وقال:

- سيدي القائد، سادتي أتسمحون؟

وقبل أن يجلس إلى هذه المائدة حيث لم يكف لحظة واحدة عن الظهور بمظهر أشد المدعوين مرحاً، تمتم الكابتن "مورانج" في صوت خفيض وهو مغمض العينين بصلاة الشكر.

الفصل الرابع

نحو خط عرض ٢٥°

قال الكابتن "مورانج" بعد مضي خمسة عشر يوماً:

– أنت على خبرة بطرق الصحراء القديمة أكثر مما جعلتني أتصور، مادمت تعرف بلدتي "التادكة". ولكن البلدة التي حدثتني عنها هي تادكة "ابن بطوطة" التي حدد موقعها هذا المؤرخ على مسيرة سبعين يوماً من الـ"توات" والتي وضعها "شيرمر" بحق في بلاد "أولياء مدين" المجهولة. وعن طريقها كانت تمر قوافل الـ"سنراي" في القرن التاسع عشر في رحلاتها السنوية إلى "مصر".

أما "التادكة" التي أعنيها فهي الثانية، عاصمة الملثمين التي وضعها "ابن خلدون" على مسيرة عشرين يوماً جنوب "وارجالان" أو ثلاثين يوماً حسب رواية "البكري" الذي يسميها "تادمكة". إنني أتجه نحو "تادمكة" هذه. ولابد من أن تعرف "تادمكة" هذه بين أطلال السوق. فعن طريق السوق كانت تمر الطريق التجارية التي كانت في القرن التاسع تربط الجريد التونسي بالكوع الذي يحدثه "النيجر" عند "بوروم". ومن أجل أن أدرس هذا الطريق لأعرف هل من الممكن أن يرجع إليها ما كان لها من شأن، عهدت إليَّ الوزارات بهذه المهمة التي أكسبتني سرور مرافقتك.

وتمتمت قائلاً:

– ستلاقي خيبة أمل من غير شك. فكل شيء ينبئني بأن التجارة التي تسلك هذا الطريق ضئيلة.

فأجاب في برود:

– سوف نرى.

حدث هذا ونحن نسير على حافة ملاحة ذات لون واحد. كانت تلك البقعة العريضة الملحية المتسعة تلمع في زرقة شاحبة تحت أشعة الشمس المشرقة. وكانت جمالنا الخمسة تلقي بظلال خطواتها المتحركة في زرقة أشد قتامة. وكان الساكن الوحيد لهذه القفار، هو طير من فصيلة "مالك الحزين". يرتفع ويحلق من حين إلى حين في الفضاء، ثم يهبط الأرض بعد ما نسير، كأنما هو مربوط بخيط.

كنت أتقدم القافلة في انتباه للطريق. وكان "مورانج" يتبعني وهو مشتمل في برنس أبيض

كبير وعلى رأسه "شِشية" الفرسان المستقيمة، وحول عنقه سبحة ضخمة، حباتها بيضاء وسوداء تنتهي بصليب ملون مثلها. كان يمثل بذلك تمام التمثيل الآباء البيض أتباع الكاردينال "لافيجيري".

كنا قد تركنا الطريق التي اتبعها "فلاترز" لننحدر نحو الجنوب الغربي بعد استراحة يومين في "تيماسنين". ولي شرف الإشارة إلى أهمية "تيماسنين" قبل "فورو"، وهي نقطة ارتكاز في خطوط القوافل، وفي تعيين المكان الذي بنى فيه الكابتن "بين" حصنه. وبفضل وقوعها على تقاطع الطرق المؤدية إلى الـ"توات" من "فزان" و"تبسه" ستصبح "تيماسنين" مكتباً مهما للاستعلامات. أما المعلومات التي حصلت عليها من هناك أثناء هذه الأيام عن حركات أعدائنا السنوسيين، فكانت ذات شأن خطير. وقد لاحظت أيضاً عدم اهتمام "مورانج" المطلق بالتحقيق الذي قمت به.

وقد قضى هذين اليومين في حديث مع الحارس الشيخ الأسود لمقبرة تطوي تحت قبتها الجيرية جثمان الولي سيدي "موسى". وإني آسف أن نسيت الأحاديث التي جرت بينه وبين هذا الموظف. ولكني أدركت من دهشة الزنجي المشوبة بالإعجاب مدى جهلي بأسرار هذه الصحراء الشاسعة وقد كانت تلك الأسرار عادية لزميلي.

وإذا أردت أن تعلم شيئاً مما أبداه "مورانج" من الخوارق في هذه الرحلة، فاصغ إليَّ، أنت الذي عنده علم ببعض عادات أهل الجنوب. حدث ذلك بالضبط على مسافة مائتي كيلو متر من هنا في منطقة الكثبان الكبيرة، في الجزء البغيض الذي يظل فيه المرء بلا ماء لمدة ستة أيام. ولم يبق معنا من الماء إلا ما يكفي ليومين حتى نصل إلى أول بئر. وأنت تعلم أن لمياه هذه الآبار، كما كتب "فلاترز" لزوجته: «لابد أن نعالجها ساعات لكي ننظف فوهتها حتى نحصل على ما يروي الناس والحيوانات». ولقينا هناك قافلة كانت متجهة نحو الشرق إلى "غدامس" وكانت قد جنحت إلى الشمال كثيراً. وكانت أسنمة الجمال التي كادت تفنى تدل على ما كابدته تلك الجماعة من عناء ومشقة. وكان يتبع القافلة جحش صغير رمادي اللون يثير الشفقة وهو يتعثر في خطاه، وقد تركه التجار لأنهم على يقين بموته المحتوم. وكان يتبعهم بالغريزة باذلاً كل ما يملك من الجهد شاعراً بأنه إذا ما خارت قواه كان في ذلك نهايته فتحلق عليه الصقور الصلع. إنني أحب الحيوانات؛ فإني أوثرها على الإنسان لأسباب قوية. على أنه لم يكن ليدور بخلدي أن أفعل ما فعل "مورانج". يجب إن أنبئك بأن قربنا كانت جافة تقريباً، وأن جمالنا التي لولاها لأصبحنا لا شيء في الصحراء الخالية لم تكن قد شربت منذ ساعات طوال. أناخ "مورانج" جمله وفك قربة وسقى الجحش. نعم لقد أحسست بسرور حينما رأيت جنبي الحيوان البائس الناحلين يهتزان من الارتياح، غير أن التبعة كانت تقع

على عاتقي. وكنت أرى أيضاً علامات الدهشة على "بوجمة" وعلامات الاستنكار على وجوه أفراد القافلة الظماء، فنبهته فلم يكترث قال: «لقد منحته نصيبي. سنصل إلى بئر "البيوذ" حوالي الساعة السادسة من مساء الغد. وأنا على علم بأني لن أحس بالظمأ حتى نصل إلى هناك». قال ذلك بلهجة لمست فيها لأول مرة لهجة الكابتن الرئيس. فقلت في نفسي: «هذا سهل قوله. فهو يعلم تماماً أن قربتي وقربة "بوجمة" تحت أمره متى شاء». ولكني لم أكن أعرف "مورانج" حق المعرفة فإنه لم يشرب فعلا حتى مساء اليوم التالي حين وصلنا إلى "البيوذ" رافضاً كل عروضنا بابتسامة عناد.

أي طيف القديس "فرنسوا داسيز"! أي تلال "أومبري" النقية تحت ضوء الشمس المشرقة! توقف "مورانج" عند طلوع شمس مشرقة على حافة مجرى شاحب يسيل في هدير من عين في صخور "إجيريه" الرمادية. كانت المياه غير المنتظرة تجري على الرمل، وكنا نرى أسماكاً صغيرة سوداء يضاعف من حجمها ضوء الشمس. أسماك في قلب الصحراء! وظللنا نحن الثلاثة بكماً أمام تناقض الطبيعة. وضلت سمكة في خليج صغير من الرمل ولبثت تتخبط في غير جدوى وبطنها الأبيض نحو السماء. وأمسك بها "مورانج" وتأملها قليلا ثم أعادها إلى جدول الماء الجاري. أي طيف القديس "فرنسوا داسيز"! وأي تلال "أومبري" على أني أقسمت على ألا أقطع وحدة السياق بما يعرض من تفصيلات بعيدة عن الموضوع.

وقال لي الكابتن "مورانج" بعد أسبوع:

- أنت ترى أني كنت على حق حينما نصحت لك بالاتجاه قليلا إلى الجنوب قبل الوصول إلى "شيخ صلاح". وكان ثمة هاتف يهتف بي أن هضبة "إجيريه" ليست بذات جدوى فيما يعنيك. أما هنا فما عليك إلا أن تنحني لتجمع من الحصى ما يسمح لك أن تعين الأصل البركاني لهذه المنطقة سالكاً في ذلك طريقة أكثر إقناعاً من طريقة "بودريه" و"دي كلوازو" و الدكتور "ماريس".

قال ذلك ونحن نسير على الجانب الغربي من جبال "تيفيدست" بالقرب من خط عرض ٢٥° شمالا. فقلت له:

- إنه لا يسعني إلا أن أقدم شكري.

سأظل دائماً أذكر هذه اللحظة. كنا قد تركنا جمالنا وأخذنا نجمع فتات الصخور التي هي أدل على هذا المكان. وكان "مورانج" يميز بينها تمييزاً يدل على واسع درايته بعلم الچيولوچيا، وقد أنكر في إباء أن له دراية ولو صغيرة بهذا العلم.

وحينئذ وجهت إليه السؤال التالي:

- هل أستطيع أن أعبر عن عرفاني بالجميل؟

فرفع رأسه ونظر إلي:

- أرجوك!

- إني لا أدرك حق الإدراك الفائدة العملية للرحلة التي قمت بها.

فابتسم وقال:

- وكيف ذلك؟ أليس ثمة قيمة في نظرك لكشف طريق القوافل القديمة، ولإثبات وجود صلة من غابر الأزمان بين بلاد البحر المتوسط وبلاد "السودان"؟ أليس ثمة أهمية للأمل في تصفية المجادلة التاريخية التي قامت بين علماء مثل "أنفيل" و"هيرين" و"برليو" و"كاترمير" من جانب و"جوسلان" و"ولكنز" و"تيسو" و"فيفيان دي سانت مارتان" من جانب آخر؟ إنك لصعب ياعزيزي.

فقلت:

- لقد تكلمت عن فائدة عملية. إنك لا تنكر أن هذه المجادلة لا تعدو بعض علماء الجغرافيا وبعض مستكشفين لم يبرحوا مكاتبهم، وكان "مورانج" يداوم الابتسام وقال:

- يا صديقي لا تؤنبني. هلا ذكرت أنك مكلف بهذه المهمة من قبل وزارة الحربية، وأني أنا كلفت بمهمتي من قبل وزارة المعارف؟ وهذا الدافع المختلف يسوغ أغراضنا المتباعدة. وهو يفسر على كل حال، وأنا أعترف لك بذلك، ليس للهدف الذي أرمي إليه أية صفة عملية.

فأجبته منساقاً معه:

- إنك أيضاً مبعوث وزارة التجارة، ومن ثمة فأنت مكلف أن تدرس هل من الممكن أن تعاد الطريق التجارية القديمة في القرن التاسع، فلا تحاول أن تخدعني؛ إذ إنك مع علمك بالتاريخ وجغرافية الصحراء كنت تعرف مهمتك قبل أن تبرح "باريس". فالطريق من "الجريد" إلى "النيجر" قد اندثرت، اندثرت تماماً. فقد كنت تعرف بأن ليس ثمة تجارة ذات شأن تمر بهذا الطريق. ومع ذلك قد قبلت أن تدرس هذا الطريق وهل يمكن أن تعاد؟

واجهني "مورانج" بنظراته وقال في اجتراء محبب:

- ولو كان هذا صحيحاً، ولو كنت على يقين قبل سفري كما تدعي أنت، أتعرف ماذا يجب أن نستخلص من ذلك؟

- أكون سعيداً لو سمعتك تفضي إلي به.

- يا صديقي العزيز أستطيع أن أستخلص ببساطة أنني كنت أقل منك في اختلاق ذريعة لسفري، وأنني أخفيت الدوافع الحقيقية التي أتت بي إلى هنا بوسائل أقل شأناً من وسائلك.

- ذريعة! أنا لا أرى...

- أرجو الآن أن تكون صريحاً بدورك. أنا مقتنع بأنه كانت تخالجك رغبة شديدة بإطلاع

المكاتب العربية على حركات السنوسيين. ولكن أعترف بأن هذه المعلومات التي ستمدهم بها لم تكن الغرض الوحيد المباشر لرحلتك. إنك عالم چيولوچي يا عزيزي. ووجدت في هذه المهمة فرصة لإشباع ميولك. وما من أحد سيفكر في تانيبك على ذلك مادمت قد عرفت أن توفق بين ما هو نافع لوطنك وما هو حبيب إلى نفسك. ولكن بالله عليك لا تحاول أن تنكر. لا أطلب دليلاً آخر غير وجودك هنا عند سفح "التيفيدست"، هذا الجبل الفريد بغير شك من الناحية المعدنية. ولكن استكناهه قد طوح بك نحو مائة وخمسين كيلو متراً إلى الجنوب عن طريقك المرسوم.

كان من المستحيل أن يكشف أحد سري بلباقة كما كشفه هو. فدافعت عن نفسي مهاجما:

– هل لي أن أستخلص من كل هذا أني أجهل الدوافع الحقيقية لرحلتك، وأنه لا صلة لها بالدوافع الرسمية؟

كنت قد شططت بعض الشيء. أحسست ذلك لما اصطبغ به رد "مورانج" من جد هذه المرة:

– لا يا صديقي العزيز. ليس لك أن تستخلص هذا. فإني ما كنت لأشعر بأي ميل للكذب وللاحتيال على الهيئات المحترمة التي جعلتني أهلا لثقتها ومعونتها. وسأبذل قصارى جهدي لأحقق الأهداف التي حددت لي. غير أني لا أشعر بما يجعلني أخفي عليك وجود غرض آخر، غرض شخصي، أعيره كثيراً من الاهتمام. ولنقل، إذا أردت وهنا نستعمل تعبيراً يؤسف له، وهو أن الهدف هو الغاية في حين أن الأهداف الأخرى ليست إلا وسائل لتحقيقه.

– أيعتبر فضولا مني . . .؟

فأجابني زميلي:

– مطلقاً. لم يبق على "شيخ صلاح" إلا مسيرة أيام قلائل وسنفترق عما قليل؛ فالشخص الذي هديت أولى خطواته في الصحراء بكل هذه العناية ملزم بالايخفي عليك شيئاً.

كنا قد توقفنا عن المسير في واد صغير جاف تنبت فيه بعض النباتات الضعيفة، وكانت على مقربة من هذا المكان عين ماء تكتنفها دائرة من الأعشاب الرمادية. وكانت الجمال– وقد حطت عنها رحالها أثناء الليل– تبذل جهدها في خطوات كبيرة لترعى بعض أعشاب شوكية من نبات الحد. وكانت سفوح جبال "التيفيدست" سوداء ملساء تعلو رءوسنا في خط أفقي تقريباً. وأخذ يتصاعد في الجو الراكد دخان أزرق من نار أشعلها "بوجمة" لطهو عشائنا.

لا من حس أو هبوب ريح. كان الدخان يصعد مستقيما بطيئاً إلى طبقات الجو الشاحبة. فسألني "مورانج":

– أسمعت عن "أطلس المسيحية" ؟

– أعتقد أن نعم. أليس هو مصنفاً جغرافياً نشره القس "البندكتان" بإشراف رجل يدعى "دوم جرانجر" ؟

فقال "مورانج" :

– إن ذاكرتك أمينة. ولكن اسمح لي بأن أذكر أشياء لم يتوافر لك من الأسباب ما يثير اهتمامك بها مثلي. كان الغرض من «أطلس المسيحية» أن يعين حدود التوسع المسيحي العظيم على مر العصور، وذلك في كل أقطار المعمورة. وهذا عمل خليق بعلم هؤلاء القسس، وجدير بـ"دوم جرانجر" هذا العالم الكبير.

فتمتمت قائلا :

– وهذه الحدود أهي التي جئت بلاشك تتبينها هنا؟

فأجاب زميلي :

– لهذه الحدود جئت فعلا.

وسكت. واحترمت أنا صمته مصمما على كل حال ألا أدهش لشيء. وبعد لحظات من التفكير عاود الحديث بلهجة قد استعادت فجأة وقارها واختفى منها كل شيء حتى المرح الذي كان منذ شهر مضى يسبب الفرح لضباط "وارجالان" الشبان :

– لا يستطيع المرء أن يقف في منتصف طريق "التسار" دون أن يتعرض للسخرية.

– لقد بدأت أفضي بأسراري. سأنبئك بكل شيء، فلا تشك في أني سأحتفظ، ولا تدقق في تفاصيل بعض الحوادث من حياتي الخاصة. ولئن كنت قد قررت أن أدخل الدير منذ أربع سنوات فإن ذلك كان نتيجة لهذه الحوادث. فلا يهمك أن تعرف دواعي اعتزامي هذا. وإني لأعجب من أن يكون اتصالي بشخص قليل الشأن كافياً لتغيير مجرى حياتي. وإني لأعجب أيضاً أن مخلوقة لا مزية لها إلا أنها جميلة قد يجعلها الخالق تؤثر في حياتي بطريقة غير متوقعة. كان لدى الدير الذي طرقت بابه أقوى الدوافع إلى الشك في عقيدتي. فما يفقده الجيل بهذه الطريقة فكثيرا ما يستعيده بهذه الطريقة نفسها. وموجز القول أنه لا يسعني إلا أن أوافق الأب الرئيس الذي منعني من تقديم استقالتي. كنت أحمل براءة كابتن من السنة السابقة. وبناء على أمر رئيس الدير التمست أن أحال إلى الاستيداع لمدة ثلاث سنوات. وفي نهاية سنوات التصوف الثلاث، كان عليه أن يقرر هل فني العالم في نظري.

«وفي أول يوم دخلت الدير ألحقت بإدارة الـ"دوم جرانجر" الذي عينني بلجنة «أطلس المسيحية» المشهورة. وبعد امتحان قصير عرف ما أستطيع أن أؤديه له من خدمات. وهكذا ألحقت بمصنع خرائط إفريقيا الشمالية. كنت لا أعرف كلمة عربية واحدة. ولكن حدث

أثناء وجودي في حامية "ليون" أن واظبت في كلية الآداب على محاضرات "برليو"، وهو جغرافي مطلع بلا شك تسيطر عليه فكرة كبيرة وهي تأثير المدنيات اليونانية والرومانية في إفريقيا. وقد اكتفى "دوم جرانجر" بهذه الناحية من حياتي. وفي الحال زودت بوساطته بمعاجم بربرية لـ"فنتور" و"دلابورت" و"بروسلار" و«كتاب قواعد التيمهاك» لـ"ستنهوب فليمان"، وكتاب «قواعد اللغة التماشيكية» للقائد "هانوتو". وبعد ثلاثة أشهر أصبح في مقدوري أن أفك رموز أي نقش تيفيناري. ولعلك تعلم أن التيفينار هي كتابة الطوارق الوطنية. وهي تعبر عن اللغة التماشيكية التي تبدو لنا كأنها احتجاج غريب من العنصر الطارقي على أعدائهم المسلمين.

«وكان "دوم جرانجر" يعتقد بالفعل ان الطوارق كانوا مسيحيين منذ عصر بعيد كان يجب أن يحدده، قد يوافق عصر ازدهار الكنيسة المسيحية في "إيبون". ولعلك تعلم أكثر مما أعلم أنهم اتخذوا من الصليب وحدة سخيفة من الزخرفة. ويلاحظ "ديفرييه" وجوده في أبجديتهم وعلى أسلحتهم وبين رسومات ملابسهم. والوشم الوحيد الذي يضعونه على الجبهة وظهر اليد وهو صليب ذو أربعة فروع متساوية. إن قرابيس سروجهم ومقابض سيوفهم وخناجرهم صليبية الشكل. وليس مما يدعو إلى تذكيرك أن الطوارق كانوا يتخذون لرحال جمالهم من الأجراس الصغيرة زينة مع أن الإسلام ينهى عن الأجراس إذ يعدها من الرموز المسيحية.

«على أننا، أنا و"دوم جرانجر"، لم نعر التفاتاً عظيما لهذه الدلائل التي تشبه كثيراً الدلائل التي امتلأ بها كتاب «عبقرية المسيحية». ولكن من المستحيل أن ترفض كل قيمة لبعض البراهين اللاهوتية. وإله الطوارق "أمناي"- وهو بلاشك "أدوناي" العهد القديم- هو إله واحد. وهم يعتقدون أن ثمة في الآخرة جحيما يدعونه «النار الأخيرة» حيث يحكم إبليس الذي نسميه "لوسيفير". وجنتهم حيث يلقون جزاء ما قدموا من حسنات يسكنها "الأنجيلوزن" وهم الملائكة عندنا. ولا تعترض بأن هذه العقائد تشبه عقيدة القرآن؛ لأني سأواجهك بالبراهين التاريخية، وأذكرك بأن الطوارق حاربوا على مر القرون حتى كادوا يفنون ليدافعوا عن عقائدهم.

«وكثيراً ما درست على "دوم جرانجر" هذه الملحمة العظيمة إذ نرى الوطنيين يثبتون للغزاة العرب. وقد رأيت معه جيش سيدي "عقبة" أحد أتباع النبي- ﷺ- يتوغل في الصحراء للتغلب على قبائل الطوارق الكبرى وليعرض عليهم التعاليم الإسلامية. وكانت هذه القبائل يومئذ موسرة رغدة العيش، وهي "اليوهاجرين" و"الإيمددرين" و"الوادلين" "قل جريس" و"قل الحير". ولكن خلافاتهم الداخلية أضعفت مقاومتهم. غير أن هذه المقاومة كانت شديدة.

ولم ينجح العرب في الاستيلاء على عاصمة البربر إلا بعد حروب طويلة قاسية. وبنى "عقبة" على أنقاضها مدينة جديدة، هذه المدينة هي السوق. أما المدينة التي هدمها سيدي "عقبة" فهي "تادمكة البربرية". وما طلبه مني "دوم جرانجر" هو بالتحقيق أن أحاول الكشف عن آثار أنقاض مدينة السوق الإسلامية تادمكة البربرية، ولعلها تادمكة المسيحية.

فتمتمت قائلا:

– لقد فهمت.

فقال "مورانج":

– حسن جداً. ولكن يجب عليك أن تعرف الآن أن لهؤلاء الرهبان (أساتذتي) اتجاهاً عمليا، تذكر أنهم ظلوا، بعد أن قضيت ثلاث سنوات في الدير، على شكهم في عقيدتي. وأخيراً وجدوا الوسيلة إلى اختبار عقيدتي نهائيا، كما وجدوا الطريقة للملاءمة بين التسهيلات الرسمية وأغراضهم الشخصية. ودعيت ذات صباح إلى الأب الرئيس. وهاك ما حدثني به في حضرة "دوم جرانجر" الذي كان يؤمن على كلامه في صمت:

– ستنتهي مدة الاستيداع بعد خمسة عشر يوماً، وستعود إلى "باريس" تلتمس من الوزارة أن تعيدك إلى الخدمة. ولن تصادف أية عقبة في التحاقك بالإدارة الجغرافية للجيش بفضل ما تعلمته هنا وللصلات التي استطعنا أن نحتفظ بها مع هيئة القيادة العليا. وحينما تكون في شارع "جرينيل" ستصلك تعليماتنا.

كنت دهشاً من ثقتهم بمعلوماتي. ولما أصبحت كابتن في الإدارة الجغرافية فهمت الحقيقة. إن مرافقتي اليومية في الدير لـ"دوم جرانجر" وتلاميذه جعلتني أحس إحساساً قوياً بضآلة معلوماتي. ولكن اتصالي بزملائي جعلني أشعر بعظيم ما حصلت عليه من العلم، حتى إنني لم أهتم بتفاصيل مهمتي. فكانت الوزارات هي التي لجأت إلي تلتمس موافقتي. ولم أتدخل في شيء ما إلا مرة واحدة، عندما علمت أنك ستغادر "وارجالان" في هذه الرحلة التي نحن بسبيلها، أبديت عدة أسباب لقلة قيمتي العملية كمستكشف، وبذلت جهدي لتأخير رحيلك لكي ألحق بك. وآمل أن تكون قد كففت عن الحقد عليَّ.

كان الضوء يلوذ بالغرب حيث اختفت الشمس وراء ستائر بنفسجية رائعة، وكنا منفردين في هذا الفضاء المتسع في سفح الصخور السوداء القاتمة. لا شيء غيرنا، لا شيء.... لا شيء غيرنا.

ومددت إلى "مورانج" يدي، فشد عليها ثم قال:

– وإذا كانت تظهر لي طويلة تلك الآلاف من الكيلومترات التي تفصل بيني وبين اللحظة التي أتم فيها مهمتي، فسأستطيع آخر الأمر أن أجد في الدير ما لست بمستعد له من الأمور.

فاسمح لي أن أنبئك بأن هذه بضع المئات من الكيلومترات الباقية حتى أصل إلى "شيخ صلاح" تلوح لي هذه الساعة قصيرة للغاية وأنا أقطعها في صحبتك.

وعلى صفحة الماء الشاحب في الينبوع الصغير بدت نجمة ثابتة جامدة كأنها مسمار من الفضة.

فتمتمت وقلبي مفعم بحزن لا أدري سببه:

- "الشيخ صلاح"! صبراً إننا لما نصل إليها.

والحق أننا ما كنا لنصل إليها أبداً.

الفصل الخامس

النقش

أطار "مورانج" قطعة من الصخر من الجانب الأسود للجبل بضربة من عصاه الحديدية، وسألني وهو يناولني إياها:

- ما هذا؟

فقلت:

- بازلت.

- لاخطر لهذه القطعة! إنك لم تلق عليها إلا نظرة واحدة

- بل هي بالعكس ذات قيمة كبيرة جداً. ولكن أعترف بأن ثمة أشياء غيرها في هذه اللحظة تشغلني عنها.

- ماذا؟

فقلت له وأنا أشير إلى ناحية الغرب عند الأفق إلى نقطة قاتمة في الجانب الآخر من السهل الأبيض:

- انظر قليلا في هذا الاتجاه.

كانت الساعة السادسة صباحاً والشمس قد أشرقت. ولكن كنا نبحث عنها بغير جدوى في السماء التي كانت تدهش بملاستها واستوائها. ما من نسمة. ما من نسمة.

وفجأة برك أحد جمالنا. وظهر فجأة ظبي كبير وارتمى برأسه في ذعر على الجدار الصخري. وظل هناك في ذهول على بضع خطوات منا وهو يرتعد على سيقانه النحيلة.

ولحق بنا "بوجمة" وغمغم:

– إذا ارتجفت سيقان الظبي دل ذلك على أن السماء توشك أن تنهمر بماء غزير.

وصوب إلي "موراغ" نظراته ثم اتجه بها إلى الأفق حيث كانت النقطة السوداء قد تضاعفت.

– عاصفة.... أليس كذلك؟

– بلى! عاصفة.

– وهل ترى في ذلك سبباً لما يخالجك من قلق؟

– لم أجبه في الحال. كنت أحادثه حديثاً قصيراً وهو منهمك في تهدئة الجمال التي أخذت تثور.

وأعاد "موراغ" عليَّ سؤاله، فهززت كتفي.

– قلق؟.... لست أدري. لم أر عاصفة في "الحجَّار" على الإطلاق غير أني لست مرتاح البال. وكل العوامل تحملني على الاعتقاد بأن هذه العاصفة ستكون شديدة جدا. ومهما يكن من شيء فانظر الآن وارتفع على الصخرة المسطحة غبار خفيف. وفي هذا الجو الراكد أخذت بعض ذرات من الرمل تدور بسرعة ازدادت حتى أصبحت مدهشة. وكانت تقدم لنا منظراً مصغراً لما سينقض علينا بعد قليل ومر بنا سرب من الأوز البري وهو يصيح صياحاً حادا. كان يطير على ارتفاع بسيط وهو مقبل من الغرب.

فقال "بوجمة":

– إنه يهرب نحو سبخة "أما ندغور".

وقلت في نفسي:

– ليس للخطأ من سبيل إلى حدسي. ونظر إليَّ "موراغ" في فضول وسألني:

– ماذا يجب أن نفعل؟

– نمتطي جمالنا في الحال قبل أن يذهب الذعر بوعيها تماماً، ونسرع في البحث عن ملجأ مرتفع من الأرض. أنت تدرك موقفنا تماما... إنه من السهل أن نتبع مجرى واد جاف. غير أنه ربما هبت العاصفة قبل مضي ربع الساعة. وسيتدفق من هنا سيل عظيم قبل نصف الساعة وستمر الأمطار على هذه التربة الصلبة تقريباً كما يمر الماء يُلقى به في أرض مرصوفة. لا شيء من الماء يتسرب إلى الأرض ولكن سيعلو منسوبه. ومع ذلك يحسن أن تنظر...

أشرت على ارتفاع عشرة أمتار في سفح الممر الصخري– إلى خطوط طويلة جوفاء متوازنة لعوامل تحاتّ قديمة.

– بعد ساعة ستسيل المياه على هذا الارتفاع. وها هي ذي آثار السيل. هلم بنا إلى الأمام.

فليس لنا من الوقت ما نضيع منه لحظة وقال "موراغ" في جمود:

– إلى الأمام.

وتحملنا مشاقا جسيمة في إناخة الجمال. ما إن امتطى كل منا جمله حتى اندفعت المطايا في سرعة جعلها الذعر تضطرب شيئاً فشيئاً.

وفجأة هبت الريح. ريح عاصف. وفي اللحظة نفسها تقريباً ولى النهار من الوادي وأصبحت السماء فوق رؤوسنا في لمحة عين أشد حلكة من جدران الممر السوداء حيث كنا نسير بسرعة تبهر.

وصحت بزملائي في الريح:

– درج... درج في الصخر. إن لم نصل إلى أحدها بعد دقيقة واحدة فسيقضى علينا.

لم يسمعاني. ولكن عندما التفت ورائي ألفيتهما يحافظان على ما بيننا من مسافة.

كان "موراغ" يسير ورائي مباشرة و"بوجمة" في المؤخرة يسوق أمامه بمهارة مدهشة الجملين اللذين كانا يحملان أمتعتنا.

ومزق الظلمة برق يخطف الأبصار. وقصف الرعد ورددت أصداءه الصخور. وسرعان ما تساقطت قطرات ضخمة دافئة. وفي لحظة التصقت بأجسامنا المبللة البرانس التي كانت تمتد وراءنا أفقيا من شدة السرعة.

وصحت فجأة:

– نجونا!

وانفتحت بغتة ثغرة عن يميننا في منتصف الجدار. كانت هذه الثغرة مجرى واد يتفرع من الوادي الذي توغلنا فيه بسوء تفكيرنا في ذلك الصباح. كان سيل يندفع في هدير.

ولم أكن أقدر قبل ذلك ما للجمال من ثبات لا يقارن في تسلق الجوانب القائمة من المرتفعات. وأخذت جمالنا تتصلب تارة وتمد سيقانها الطويلة تارة ثانية وتنحنى بين الصخور التي بدأت تتفتت تارة ثالثة وهكذا. وقامت في هذه اللحظة بما لا تستطيع أن تقوم به البغال في جبال البرانس.

وما انقضت بضع لحظات من المجهود الخارق حتى ألفينا أنفسنا آخر الأمر بمنأى عن الخطر على ما يشبه سطح من البازلت يشرف من خمسين متراً على مجرى الوادي حيث كنا على وشك الهلاك، والمصادفة المواتية هي التي هيأت لنا الأمور؛ إذ رأينا من ورائنا كهفاً في وسط الصخور، وقد نجح "بوجمة" في إيواء الجمال به. وعلى عتبة الكهف استطعنا أن نتأمل في صمت المنظر الخلاب الذي بدا لأنظارنا.

إنك رأيت بلا شك مناورات المدفعية في معسكر "شالون". ورأيت أرض "المارن" الجيرية

تتفاعل تحت تأثير المفرقعات كالمحابر التي كنا نضع فيها ونحن في- "الثانوية"- بعض قطع الطباشير. إن التربة تنتفخ وترتفع وتفور بين ضوضاء المقذوفات المتفجرة. لقد حدث مثل هذا تقريباً ولكن في وسط الصحراء وفي خلال الظلام. وكانت المياه تتدفق ناصعة في هذه الثغرة السوداء، ثم أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً نحو ملجئنا، وكان ذلك يحدث باطراد. اختلط قصف الرعود بصوت أشد منه قوة هو صوت الجدار الصخري الذي تحتً أسفله السيول لينهار دفعة واحدة ويذوب في لحظات في المياه المتدفقة.

وقد مكثنا أنا و"مورانج" مدة انهمار الماء (وقد كان ذلك ساعة وربما كان ساعتين) في صمت مكبين على هذا الإناء الغريب، متلهفين إلى أن نشهده دائماً. كان يخالجنا سرور ممزوج برعب لا يوصف، ونحن نشعر بمسطح البازلت الذي لجأنا إليه يتمايل تحت ضربات السيل العنيفة. وأعتقد أننا ما فكرنا لحظة واحدة في أن نتمنى زوال هذا الكابوس الهائل لما كان له من جمال وروعة.

وأخيراً بزغ شعاع من الشمس. وحينئذ فقط نظر بعضنا إلى بعض، ومد إليَّ "مورانج" يده وقال في بساطة:

- شكراً.

- ثم أضاف مبتسماً:

- أن نُقضى غرقاً في وسط الصحراء أمر فيه ما يدعو إلى السخرية.

لقد جنبتنا هذه النهاية المتناقضة بفضل ما فيك من حزم.

آه! لو كان جمله عثر به وجرفه السيل في تياره إلى اللانهاية لما كان بعد ذلك ما كان....

هذا هو ما أفكر فيه في لحظات الضعف. لكن كما قلت لك أتراجع بسرعة عن هذه الفكرة.

لا ، لا.... إني لا آسف ولا أستطيع أن آسف على وقوع ما حدث.

تركني "مورانج" ليتوغل في الكهف الصغير حيث تسمع أصوات الرضا من جمال "بوجمة". وظللت وحيدا أتأمل السيل يتصاعد ويتصاعد دون توقف لما كان ينتهي إليه من مدد متدفق من الفروع التي قد أفلت زمامها. كانت الأمطار قد كفت وبدت الشمس ساطعة في السماء التي استعادت زرقتها. وقد أخذت ملابسي تجف على جسمي بسرعة غريبة، إذ كنت أحس بها مبللة منذ لحظة قصيرة.

وأحسست بيد على كتفي، وكان "مورانج" بجانبي مرة أخرى وقد أضاءت وجهه ابتسامة غريبة. وقال لي:

- هلم....

فتبعته في تلهف. وتوغلنا في الكهف.

وكانت الثغرة التي كفت لمرور الجمال تسمح للضوء بأن يدخل. وقادني "مورانج" نحو قطعة ملساء من الصخر كانت تواجهنا وقال لي في سرور لم يفلح في إخفائه:

– انظر!

– ماذا؟

– ماذا؟ ألست ترى؟

فقلت له في شيء من الجبن:

– أرى أن هناك كثيراً من نقوش الطوارق، ولكن أظن أني أنبأتك بأني لا أجيد قراءة التيفينارية أو كتابتها. فهل لهذه النقوش قيمة تفوق ما صادفنا من نقوش أخرى من قبل أكثر من مرة؟

قال "مورانج":

– انظر إلى هذه!

كان في صوته نبرة انتصار، حتى لقد وجهت إلى النقش كل اهتمامي.

ونظرت.

كان ثمة نقش رسمت حروفه على شكل الصليب. وبما أن له قيمة كبيرة في هذه المغامرة أرى أن أعيد رسمه لك. ها هو ذا:

كان الرسم مرسوماً في كثير من الانتظام والحروف محفورة حفراً عميقاً في الصخرة. ومع ضآلة علمي بالنقوش الصخرية في ذلك الزمن لم أجد صعوبة في أن أعرف أن هذا النقش قديم جداً.

وتأمل فيه "مورانج" بسرور أخذ يزداد شيئاً فشيئاً.

وألقيت عليه نظرة تساؤل:

فقال لي "مورانج":

– وبعد ذلك؟ ماذا ترى في هذا؟

– ماذا تريد أن أقول؟ أكرر لك أني أجد مشقة في حل رموز التيفينارية.

فقال زميلي مقترحاً:

– أتريد أن أساعدك؟

ولاح لي أن الوقت غير ملائم لمحاضرة في النقوش البربرية بعدما كان قد اعترانا من انفعالات نفسية. ولكن سرور "مورانج" كان من الوضوح بحيث كنت أشعر بألم وضيق لو أني عكرت عليه صفوه..

وانطلق زميلي في الشرح وكأنه أمام سبورة:

– مـا يجب أن نلاحظه أولاً في هذا النقش هو تكراره على شكل الصليب. بمعنى أنه يحتوي على الكلمة نفسها مرتين من أسفل إلى أعلى ومن اليمين إلى اليسار. وبما أن الكلمة مكونة من سبعة أحرف فالحرف الرابع يبدو طبيعيا في الوسط. وهذا الوضع الفريد في النقوش التيفينارية يدعو إلى العناية والاهتمام. على أن ثمة ما هو أحسن من هذا، فلنحل الرمز الآن.

وأخفقت ثلاث مرات من سبع حتى بمساعدة "مورانج" الدائبة في تهجي الكلمة.

وقال "مورانج" وهو يغمز بعينه بعد أن انتهيت من التمرين:

– هل نجحت؟

فأجبته في شيء من الضجر:

– مطلقاً. لقد تهجيت الكلمة: أ ن ت ي ن هـ ا: انتينها. انتينها.

لا أرى كلمة من هذا النوع أو قريبة منها في كل لهجات الصحراء التي أعرفها.

ففرك "مورانج" يديه، وكان سروره يزداد حتى جاوز الحد.

– لقد وجدت. وهذا على التحقيق ما يجعل الاكتشاف فريداً.

– وكيف ذلك؟

– لا يوجد فعلا في العربية أو البربرية ما يعادل هذه الكلمة.

– إذن...

– إذن يا صديقي العزيز نحن أمام كلمة أجنبية منقولة بحروف تيفينارية.

– وهذه الكلمة إلى أية لغة تنتمي في رأيك؟

– تذكر أولاً أن الحرف "ي" لا يوجد في أبجدية التيفينارية..

استبدل هنا بأقرب الأصوات إليه في النطق وهو: "هـ". فضع هذا الحرف إلى المكان الذي يناسبه في الكلمة فنحصل على...

– "أنتينيا".

– "أنتينيا"، بالضبط. نحن أمام كلمة يونانية مكتوبة بالتيفينارية. وأعتقد الآن أنك توافقني على الاعتراف بأن كشفي على جانب عظيم من الخطورة.

في هذا اليوم لم نزد في شرح النص. ودوّت صيحة قلق وخوف. وكان ينتظرنا في الخارج حيث أسرعنا في الحال منظر غريب. ومع أن السماء كانت قد استعادت صفاءها كان السيل لا يزال يقذف بمياهه التي تعلوها رغوة صفراء مما جعلنا لا نستطيع أن نتكهن بمتى ينتهي. وفي وسط السيل رأينا حطاماً غريباً رمادي اللون رخواً تتقاذفه المياه يسير مع التيار متخبطاً دون أمل.

على أن ما أدهشنا في أول وهلة منظر "بوجمة" وهو يقفز في اتجاه متوازٍ بين صخور حافة

الوادي كأنه يتعقب هذا الحطام. لقد كان عهدنا به هادئاً. أما الآن فقد بدا في غاية الجنون. وفجأة أمسكت بذراع "موراغ"؛ فقد تحرك هذا الشيء الرمادي، وبرزت منه رقبة طويلة بائسة، وانبعث صوت محزن لحيوان مذعور.

وصحت:

- إنه لمخبول. هذا أحد إبلنا أفلت زمامه والسيل يجرفه.

فقال "موراغ":

- إنك لمخطئ. إن جمالنا كلها في الكهف، أما الجمل الذي يجري "بوجمة" وراءه فليس من جمالنا. وأضف إلى ذلك أن الصوت الحزين الذي سمعناه لم يصدر عن "بوجمة"؛ لأنه شجاع لا يجول برأسه هذه الساعة غير فكرة واحدة وهي أن يضع يده على هذا الجمل الغارق الذي يعد رأس مال لا مالك له.

- فمن الذي صاح إذن؟

فقال زميلي:

- فلنحاول إذا أردت أن نصعد مجرى السيل الذي ينحدر فيه رائدنا بهذه السرعة القوية.

ودون أن ينتظر مني ردًّا توغل على الحافة الصخرية التي حطمها السيل حديثاً....

وفي هذه اللحظة نستطيع أن نقول إن "موراغ" قد ذهب ليلقى حتفه.

وتتبعته، وتجشمنا مشاقا كثيرة لنتقدم مسافة مائتين أو ثلاثمائة متر. وأخيراً لمحنا تحت أقدامنا خليجاً صغيراً تتلاطم فيه المياه وهي تنخفض.

فقال "موراغ":

- انظر!

فثمة حزمة سوداء تتأرجح على مياه الخليج.

ولما صرنا على الحافة رأينا أنه جسم رجل يرتدي رداء الطوارق الطويلة ذات الزرقة القاتمة.

وقال "موراغ":

- هات يدك وثبِّت الأخرى على الصخر.

كان قويا جدا. وبعد لحظة كأنه يلهو إذ أعاد الجسم إلى الشاطئ.

وقال في شيء من الرضا:

- إنه مازال حيا. والآن يجب أن ننقله إلى الكهف. إن هذا المكان لا يصلح لإفاقة غريق.

وحمل الجسم بين ساعديه القويين.

- من الغريب أن وزنه لا يتفق مع قامته الطويلة.

ولما قفلنا راجعين في طريقنا إلى الكهف، كانت ملابس الطارقي القطنية قد جفت تقريباً.

غير أن لونها كان قد بهت كثيراً وصار هذا الرجل أزرق اللون. وقد جهد "مورانج" في إعادته إلى الحياة. وبعد أن ناولته كأساً من الشراب فتح عينيه وحملق إلينا في دهشة ثم تمتم بالعربية- وقد أغمض عينيه- بصوت يصعب فهمه، هذه الجملة التي لم نفهم معناها إلا بعد أيام:

- أيمكن أن أكون قد بلغت نهاية مهمتي!

فقلت:

- أية مهمة يعني بكلامه؟....

فأجاب "مورانج":

- دعه يسترجع رشده تماماً.... افتح صندوقاً من صناديق الطعام المحفوظ. لا داعي لملاحظة الاحتياطات المنصوصة في حالة غرق الأوربيين مع أناس من هذا القبيل.

وكان في الواقع عملاقاً ذلك الرجل الذي أنقذنا حياته. كان وجهه معتدلا جميلا تقريباً بالرغم من نحافته. كان أبيض اللون ذا لحية خفيفة. وكان شعره الأبيض يدل على أنه رجل في العقد السادس. وعندما وضعت أمامه صندوق اللحم المحفوظ أشرقت فرحة نهم في عينيه. كان الصندوق يحتوي على ما يكفي لغداء أربعة من أشد الرجال شراهة، فابتلعه في لمحة عين.

فقال "مورانج":

- يالها من شهية قوية شديدة! والآن نستطيع أن نستجوبه في غير تردد.

كان الطارقي قد أعاد على جبهته ووجهه اللثام الأزرق التقليدي. لابد أنه كان يشعر بجوع شديد، حتى إنه لم يبادر بهذا العمل الضروري. وكنا في هذه اللحظة لا نرى غير عينيه اللتين أخذتا ترنوان إلينا في بريق أخذ ينطفئ شيئاً فشيئاً وأخيراً تمتم:

- ضباط فرنسيون!

وأخذ يد "مورانج" ووضعها على صدره ثم لثمها.

وفجأة ظهرت في عينيه علامات القلق. وسأل:

- وجملي؟...

فأفهمته أن رائدنا كان يحاول أن ينقذ الجمل. وأخذ بدوره يقص علينا كيف تعثرت دابته وتدحرجت في السيل وسقط هو أيضاً وهو يحاول أن يمسك بزمامها، وكيف ارتطمت جبهته بصخرة فصاح ثم صار لا يذكر شيئاً.

فسألته:

- ما اسمك؟

- "إج أنطواين".

- من أي القبائل أنت؟

- قبيلة "قل تهات".

- إن رجال "قل تهات" عبيد لقبيلة "قل رحالة" الذين هم من كبار نبلاء "الحجَّار".

فأجاب وهو ينظر خزراً:

أجل!

كأن هذه الأسئلة الدقيقة عن "الحجار" لم ترقه.

- إن "قل تهات" إذا لم أكن مخطئاً يقيمون على السفح الجنوبي الغربي لجبل العتكور[1]. ماذا كنت تفعل بعيداً عن مجالكم حينما أنقذناك؟

فأجاب:

- كنت ذاهباً إلى "عين صلاح" عن طريق "تتا".

- وماذا كنت تريد أن تفعل في "عين صلاح"؟

كاد يجيب، ولكني فجأة رأيته يرتعد، وصوب نظره إلى نقطة في الكهف؛ فاتجهنا بأنظارنا إليها فرأينا النقش الصخري الذي كان سبباً منذ ساعة مضت في سرور كبير لـ"مورانج".

فسأله "مورانج" في فضول مفاجئ:

- أتعرف ما هذا؟

لم ينبس الطارقي ببنت شفة. ولمعت عيناه ببريق غريب. فسأله "مورانج" ملحا:

- أتعرف ما هذا؟

وأضاف.

- "أنتينيا"؟

فردد الرجل:

- "أنتينيا".

ثم لزم الصمت.

فصحت به وقد شعرت بغضب غريب يتملكني:

- أجب الكابتن.

فنظر إلي الطارقي واعتقدت أنه سيتكلم؛ غير أن عينيه جمدتا في الحال، وأحسست بأن ملامحه أخذت تجمد تحت لثامه البراق.

حولنا أنظارنا أنا و"مورانج":

فإذا "بوجمة" على عتبة الكهف يلهث كسيفاً حسيراً إذ عدا ساعة لا غناء فيها.

---

(١) إسم آخر يطلق على منطقة الحجار بلغة التمهاك. (تعليق السيد "لورو").

الفصل السادس

من مساوئ الخس

في اللحظة التي تواجه فيها "إج أنطواين" و"بوجمة" بدا لي أني لمحت في الطارقي و"الكمبا" رعدة سرعان ما أخفياها. وإني أكرر أن هذا لم يكن إلا أثراً خاطفاً. وهذا الأثر كان كافياً لأن أعقد عزمي على أن أدقق في الاستفسار من رائدنا عن زميلنا الجديد حينما نكون منفردين.

كانت بداية هذا اليوم قد أعيتنا بما فيه الكفاية، فقررنا أن نقضي بقيته هنا؛ بل أن نقضي الليل في الكهف حتى تغور المياه تماماً.

وبعد أن استيقظت أخذت أتبين على الخريطة طريقنا لهذا النهار فإذا بـ"مورانج" يقترب مني، فلاحظت عليه أمارات الضيق.

فقلت له:

- ستصل إلى "الشيخ صلاح" في مدى ثلاثة أيام. ولربما كان ذلك مساء بعد غد إذا واصلت الجمال سيرها كما يجب.

فقال:

- لربما افترقنا قبل هذا.

- وكيف ذلك؟

- لقد غيرت من طريقي قليلا؛ إذ ليس في نيتي أن أذهب رأساً إلى "طميسة". سأكون سعيداً لو توغلت قبل ذلك قليلا داخل جبال "الحجار".

فزويت ما بين حاجبي:

- ما هذا الرأي الجديد؟

وفي اللحظة نفسها كانت عيناي تبحثان عن "إج أنطواين" الذي كنت رأيته بالأمس ثم منذ لحظات مضت كان يتحادث مع "مورانج". كان منهمكاً ببرود في إصلاح نعليه بخيط مشمع أعطاه إياه "بوجمة". ولم يرفع رأسه.

فأبان "مورانج" في ضيق شديد:

- لقد أخبرني هذا الرجل عن مكان نقوش مشابهة في كثير من كهوف "الحجار" الغربي. وتوجد هذه الكهوف بالقرب من الطريق التي سيسلكها في عودته. وعليه أن يمر بـ"تتا"،

ومن "تتا" إلى "طميسة" عن طريق "سلة"، لا تزيد المسافة على مائتي كيلومتر. وهذه طريق مطروقة[١]، تقل بمقدار النصف عن الطريق التي كنت سأقطعها وحدي من "الشيخ صلاح" إلى "طميسة" حيث كنا سنفترق. وأنت ترى أن هذا هو أيضاً السبب الذي يدفعني بعض الشيء إلى .....

فأجبته:

- قليلا، قليلا جدا. ولكن هل اتخذت قراراً نهائيًّا؟

فقال:

- نعم.

- ومتى تريد أن تفارقني؟

- إن من مصلحتي أن أفعل ذلك اليوم. إن الطريق التي سيسلكها "إج أنطواين" ليدخل "الحجار" تقاطع هذه الطريق على بعد تسعة عشر كيلو متراً تقريباً من هنا. ولي بهذه المناسبة حاجة عندك.

- تفضل.

- أن تترك لي أحد الجمال؛ لأن رائدي الطارقي فقد جمله.

فأجبت في فتور:

- إن الجمل الذي يحمل متاعك ملكك وكذلك جملك.

ومكثنا صامتين لحظات. وكان "مورانج" صامتاً في ضيق. أما أنا فكنت أدرس خريطتي. وفي كل مكان بخاصة عند الجنوب كانت أقاليم "الحجار" المجهولة تبدو فيها بقع عدة بيضاء بين سواد الجبال المفروض وجودها.

فقلت في النهاية:

- أتعدني بأن تذهب إلى "طميسة" عن طريق "تتا" و"سلة" بعد أن تلم بهذه الكهوف؟

فنظر إليّ في ذهول:

- ولم هذا السؤال؟

- لأنك إذا وعدتني بذلك، وإذا لم تكن صحبتي تضايقك بالتأكيد، فإني سأرافقك. وأنا لا أكترث بمائتي كيلو متر تطول بها طريقي وسأصل إلى "الشيخ صلاح" من الجنوب بدلا من الغرب. هذا كل شيء.

فنظر إليَّ "مورانج" في انفعال وقال:

- لم تفعل هذا؟

---

(١) عين الكاتب بيسوبل منذ عام ١٨٨٨ طريق "تتا" إلى "طميسة" ومراحلها "طوارق الغرب"، رحلات ١ر١٠ (تعليق السيد "لورو").

- يا صديقي العزيز- وكانت هذه أول مرة أنادي "مورانج" بهذا اللقب- يا صديقي العزيز إن لي حاسة تزداد قوة في الصحراء وهي حاسة الخطر. لقد أعطيتك مثلا لذلك أمس صباحاً وقت العاصفة ومع أنك على علم بالصخور يبدو لي أنك لا تستطيع أن تكوِّن رأياً واضحاً عن "الحجار" ولا عن المفاجآت التي يمكن أن تحدث في هذا المكان؛ ولذلك أفضل ألا أدعك تعرّض حياتك منفرداً لبعض الأخطار.

فأجابني بسذاجته المحبوبة:

- إن معي رائداً.

وكان "إج أنطواين" مكبا على إصلاح نعليه وهو جالس القرفصاء كعادته دائماً. فاتجهت إليه:

- أسمعت ما قلته للكابتن؟

فأجاب الطارقي في هدوء:

- نعم.

- سأرافقه. سنفارقك عند "تتا" التي لابد أن تقودنا إليها دون عناء. أين هذا المكان الذي اقترحت على الكابتن أن تقوده إليه؟

فأبدى الطارقي هذه الملاحظة في برود:

- لست أنا الذي اقترح. وإنما هو الذي طلب إليَّ ذلك. والكهوف التي تحوي هذه النقوش توجد على مسيرة ثلاثة أيام جنوباً في الجبل.

إن الطريق وعرة في البداية، ثم تأخذ في التحسن بعد ذلك، ويستطيع الإنسان أن يصل إلى "طميسة" في غير عناء. وثمة آبار عذبة حيث يذهب الطوارق "تايتوك" الذين يحبون الفرنسيين ليسقوا جمالهم منها.

- وهل تعرف الطريق جيداً؟

فهز كتفيه. وبدت في عينيه ابتسامة ازدراء وقال:

- لقد سلكتها عشرين مرة.

- إذن إلى الأمام.

وسرنا ساعتين دون أن أبادل "مورانج" كلمة واحدة. وتملكني إحساس بما كنا مقدمين عليه من جنون ونحن نخاطر بأنفسنا في غير اكتراث في أقل جهات الصحاري طرقاً وأكثرها خطراً. بل إن كل الضربات التي قوضت التقدم الفرنسي منذ عشرين عاماً إنما خرجت من هذا "الحجار" الرهيب. وإذا كنت قد انضممت عن طيب خاطر إلى هذه الرحلة الجنونية فلم يكن لي أن أحجم عنها. وأية فائدة في أن أشوه عملي هذا بما أظهر من ضجر مستمر؟ ثم

يجب أن أعترف بأن المظهر الذي جعلت تأخذه رحلتنا لم يكن ليشعرني بالنفور. كنت منذ تلك اللحظة أشعر بأننا في طريقنا إلى شيء فريد أو إلى مغامرة فظيعة. لا يمكن أن تضيفنا الصحراء مدى أشهر أو سنين. فهي تتحكم فيك إن عاجلا أم آجلا. ستمحو خلال الضابط الطيبة ورعب الموظف وتقتلع منه تقديره للتبعة. ماذا كان وراء هذه الصخور الغامضة وهذا الخلاء المغلق الذي ابتلع أشهر الباحثين عن الغموض؟ وقلت في نفسي سنذهب .... سنذهب.

ثم سألت "موراخ":

– أمتأكد أنت على الأقل أن لهذا النقش قيمة تسوغ ما نحن مقدمون عليه؟

فاهتز "موراخ" سروراً. كنت أدركت ما انتابه من مخاوف عندما بدأنا الرحلة. ولكن لما كنت قد هيأت له سبيل إقناعي فقد ولّت عنه شكوكه ولاح له الفوز مؤكداً!

فأجابني بلهجة أرادها متزنة، فجاءت حارة:

– لم يعثر قط على نقش يوناني عند خط عرض منخفض مثل هذا. إن المواقع المتطرفة التي وجدت فيها هذه النقوش جنوب "الجزائر" و"ليبيا". أما في "الحجار"! أتتخيل ذلك؟ حقا إن هذا النقش منقول بحروف تيفينارية. ولكن هذه الصفة لا تقلل من قيمته، بل تزيد منها.

– ترى ماذا يكون معنى هذه الكلمة؟

فقال "موراخ":

– إن "أنتينيا" لا يمكن إلا أن يكون اسم علم. لمن يكون؟

أعترف بأني أجهل ذلك. وإذا كنت في هذه الساعة أتجه نحو الجنوب وأنا أحملك على مصاحبتي فذلك لأنني واثق أني سأحصل على معلومات أخرى. أما أصل الكلمة فليس هناك أصل واحد بل من الجائز أن يكون ثمة ثلاثين أصلا. ولتعلم أن أبجدية التيفينار لا تتفق مع أبجدية "اليونان"، وهذا ما يكثر من الفروض. أتريد أن أطلعك على بعضها؟

– كنت على وشك أن أطلب إليك ذلك.

– هناك أولا ,avri أنتي، وvauc, نيوس أي المرآة الموضوعة في واجهة السفينة. وهذا شرح "يسر جفاريل" أو أستاذي المحترم "برليو". وهذا الاسم قد ينطبق على الأشكال المحفورة في مقدمة السفن، ويوجد لها اسم فني لا يمكنني العثور عليه الآن ولو ضربت بالعصا مائة وخمسين مرة [1].

وهناك أيضاً ,avrjvna التي لابد أنها مشتقة من avri و ,vaoc أي التي تقف أمام ,vaoc أي المعبد، التي تكون أمام المذبح: الكاهنة إذن. وهذا شرح يسر "جيدار"

---

(١) ربما كان من المستحسن ان نشير إلى انّ "تماثيل مقدمة السفن" هو عنوان مجموعة من الشعر للسيدة "دولارو مادور".

و "رينان" من كل الوجوه.

ثم هناك ávrivéa, من أنتي avri, و véoc, نيوس أي جديد. لهذه الكلمة معنيان: فأما هذه التي هي عكس شابة أعنى عجوزاً، عدوة التجديد أو عدوة الشباب.

وثمة معنى آخر vari, أي مبادلة. وهذا معنى يأتي في الوقت المناسب ليعقّد الاحتمالات التي عثرنا عليها من قبل. وتوجد أربعة معان للفعل véc الذي يعني على الترتيب: يذهب، يسيل، يحلج أو ينسج، يجمع- وزد على ذلك... ولاحظ أنني في مكاني على رحل هذ الجمل المريح، لا أجد بين يدي قاموس "إستيين" الكبير ولا مفردات "باسو" أو "باب" أو "ليدل سكوت". وهذا ياصديقي لأثبت لك فقط أن علم النقوش ما هو إلا علم نسبي؛ إذ يكون من وراء كل كشف نص جديد تخطئة للقواعد السابقة، وهذا إن لم يكن خاضعاً لحالة علماء النقوش النفسية وفكرتهم الخاصة عن الكون(١).

فقلت:

- وهذا ما أراه على وجه التقريب. ولكن دعني أعجب من أنك مع شكوكك في الأهداف التي ترمي إليها، لا تتردد في أن تواجه مخاطر ربما عدت جسيمة

فابتسم "مورانج" ابتسامة باهتة:

- أنا لا أفسر يا صديقي ولكنني أجمّع. وسيخرج "دوم جرانجر" من كل ما سأقدمه له بنتائج لا يسمح لي بها عملي الضئيل. وما قصدت أنا إلا اللهو. فاغفر لي.

وفي هذه اللحظة التوى سير من أحد سيور الجمال لم يكن محكماً تمام الإحكام بلا شك. فانقلب جزء من الحمل وسقط على الأرض. فأسرع بالنزول "إج أنطواين" عن مطيته وساعد "بوجمة" في إصلاح التلف. ولما انتهيا سرت بجملي بجوار جمل "بوجمة" وقلت:

- لابد أن تحكم حزم الجمال عند أول استراحة لأنها ستسير في الجبل.

ونظر إليّ الرائد في دهشة إذ لم أجد حتى هذه الساعة غناء عن أن أطلع رائدنا على مشروعاتنا الجديدة. وكنت أظن أن "إج أنطواين" قد أطلعه.

فقال "الكمبا":

- يا سيدي الملازم، إن الطريق من الوادي الأبيض إلى "الشيخ صلاح" ليس جبليا.

- لن نسير في طريق الوادي الأبيض. سنتجه جنوباً إلى "الحجار". فتمتم:

- عن طريق "الحجار"! ولكن....

- ولكن ماذا؟

---

(١) يبدو أنّ الكابتن "موراغ" قد نسي ان يذكر في هذا التصنيف الاصل Avoivea وهي لفظة من للهجة "لدورية" مشتقة من Avoivn ، من Avoos اي زهرة وربما كان معناها "مزدهر" (تعليق السيد "لورو")..

- أنا لا أعرف الطريق.

- إن "إج أنطواين" سيقودنا.

- "إج أنطواين".

فنظرت إلى "بوجمة" وقد أفلتت منه هذه الصيحة المكتومة، وألقى على الطارقي نظرة فيها مزيج من الدهشة والرعب.

كان جمل "إج أنطواين" يسير على بعد عشرة أمتار أمامنا بجانب جمل "مورانج" وكان الرجلان يتحدثان. ففهمت أنه لابد أن "مورانج" كان يحدثه عن هذه النقوش. ولكننا لم نكن متخلفين عنهما كثيراً حيث لا يسمعان حديثنا.

ونظرت إلى رائدي مرة أخرى فرأيته شاحب اللون. فسألته في صوت خفيض:

- ماذا دهاك "بوجمة"؟ ماذا دهاك؟

فتمتم:

- ليس هنا يا سيدي الملازم. ليس هنا!

وكانت أسنانه تصطك. وأضاف في همس:

- ليس هنا، هذا المساء في وقت الراحة عندما يكون متجها نحو الشرق وهو يصلي، بعد غروب الشمس.إذن دعني وسأحدثك، ولكن ليس هنا. إنه يتكلم ولكنه ينصت. ابتعد! الحق الكابتن.

فتمتمت وأنا أحث جملي ضاغطاً بقدمي على عنقه لألحق بـ"مورانج":

- يالها من مسألة غريبة!

كانت الساعة حوالي الخامسة مساء عندما توقف "إج أنطواين" الذي كان يمشي في مقدمتنا، وقال وهو ينزل عن جمله:

ها هو ذا المكان.

كان المكان كئيباً وجميلا في وقت واحد. عن شمالنا جدار عجيب من الجرانيت تمتد قمته الرمادية في السماء الحمراء. وكان هذا الجدار من أعلى إلى أسفل ممر ملتو قد يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة متر تقريبا وعرضه يكاد يكفي أحياناً لمرور ثلاثة جمال معاً.

فكرر الطارقي:

- ها هو ذا المكان.

وكانت الطريق التي أوشكنا أن نتركها تمتد أمامنا نحو الغرب تماماً في ضوء الشمس الآفلة. كأنها شريط باهت: الوادي الأبيض وطريق "الشيخ صلاح" والاستراحات الآمنة والآبار المعروفة.... وفي الجهة المقابلة، هذا الجدار الأسود، في سماء بنفسجية وهذا الممر المظلم.

فنظرت إلى "موراغ"، فقال في بساطة:

- فلنقف. إن "إج أنطواين" ينصح لنا بأن نجدد مؤونة الماء كاملة.

وقررنا بالإجماع أن نقضي الليل هناك قبل أن نتوغل في الجبل.

كان هناك غدير في بقعة مظلمة يصب فيه جدول جميل، ومحاطا ببعض الشجيرات وبعض النباتات.

وأخذت الجمال وهي مقيدة ترعى ما هنا لك من كلأ.

وأخذ "بوجمة" يضع على حجر كبير مسطح أدوات الأكل من أكواب إلى أطباق نحاسية، ووضع أيضاً صندوق أكل محفوظ كان قد فتحه بجانب طبق من الخس جمعه على شاطئ الجدول الندي.

وأدركت من حركاته المضطربة وهو يضع على الصخر هذه الأشياء المختلفة ما كان يساوره من قلق شديد.

وانثنى نحوي ليناولني طبقاً. فأشار إلى الممر الكئيب المظلم الذي كنا سنتوغل فيه وتمتم:

- بلاد الخوف.

فسأل "موراغ" وقد تنبه إلى حركته:

- ماذا يقول؟

- بلاد الخوف. هذه هي بلاد الخوف. هكذا يسمي العرب "الحجار".

ثم جلس "بوجمة" بعيداً عنا وتركنا نتناول العشاء. ثم أخذ يأكل بعض أوراق الخس التي كان قد احتفظ بها لنفسه وهو جالس القرفصاء.

وكان "إج أنطواين" لا يبدي حركة.

وفجأة انتصب الطارقي وقد صارت الشمس في الغرب جمرة حمراء رأينا "إج أنطواين" يقترب من الجدول ويبسط على الأرض برنسه الأزرق ويركع.

فقال "موراغ":

- ما كنت أعتقد أن الطوارق يحترمون التقاليد الإسلامية إلى هذا الحد.

فقلت وأنا غارق في التفكير:

- ولا أنا.

كان عليَّ في تلك اللحظة أن أفعل شيئاً غير الدهش.

فناديت "بوجمة" وأنا أنظر إلى "إج أنطواين" الذي كان منهمكاً في الصلاة متجهاً نحو الشرق[١]. فكان واضحاً أنه لا يعيرني أي انتباه. كان يسجد حينما صحت مرة أخرى

---

(١) في الاصل نحو الغرب (المترجم).

بصوت أقوى:

– "بوجمة" . تعال معي إلى جملي. أريد أن آخذ شيئاً من الكيس.

كان "إج أنطواين" يؤدي صلاته في هدوء وإسرار.

أما "بوجمة" فلم يبد حركة.

لم يجبني إلا بأنين خافت.

انتصبنا واقفين، "مورانج" وأنا وجرينا نحو الرائد. ووصل إليه أيضاً "إج أنطواين" معنا في اللحظة نفسها.

كان الكمبا يشهق بين ذراعي "مورانج" وعيناه مغلقتان وقد بردت أطرافه. كنت قد أمسكت بإحدى يديه في حين أمسك "إج أنطواين" بالأخرى. وكل منا يحاول بنفسه أن يحدس أو يفهم...

وفجأة ارتجف "إج أنطواين" . كان قد لمح الطبق المعوج الذي كان يمسك به الكمبا منذ قليل بين ركبتيه والذي أصبح مقلوباً على الأرض.

فأمسكه وفصل أوراق الخس الباقية وهو يفحصها بسرعة الواحدة تلو الأخرى، وصاح صيحة مبحوحة.

فتمتم "مورانج" :

– والآن قد جاء دوره. هل سيجن هذا أيضاً؟

كنت أرنو إلى "إج أنطواين" فرأيته يجري في صمت إلى الحجر حيث نظمت أدوات الطعام. وبعد لحظة عاد إلينا وفي يده طبق الخس الذي لم نكن قد لمسناه. وحينئذ أخذ ورقة خضراء كثيفة عريضة باهتة وقربها من ورقة أخرى كان قد أخذها من طبقنا.

وقال في بساطة:

– خس سام!

فعرتني رعشة وكذلك "مورانج" . أهذا هو الخس السام، خس عرب الصحراء، النبات المرعب الذي فتك بعدة أفراد من بعثة "فلاترز" فتكاً أسرع وأمضى من أسلحة الطوارق؟

ووقف "إج أنطواين" ، وكانت قامته الطويلة تمتد في الفضاء الذي صار بنفسجيا باهتاً. كان ينظر إلينا.

وبينما نحن نقبل في عناية على الرائد المسكين كرر الطارقي وهو يهز رأسه:

– خس سام!

ومات "بوجمة" في منتصف الليل دون أن يعاوده الشعور.

الفصل السابع

بلاد الخوف

قال "موراتج" :

- من الغريب أن نلاحظ كيف غدت حملتنا التي كانت مجردة من الحوادث منذ "وارجالان" كثيرة الاضطراب.

قال هذه الجملة وهو ينهض بعد أن سجد لحظة وصلى على الحفرة التي حفرناها بكل أسى لنضع فيها رفات رائدنا.

أنا لا أؤمن بالله. ولكن إذا كان هناك شيء يمكن أن يؤثر في قوة ما خيراً كانت أو شراً، نوراً كانت أو ظلاماً، فهو صلاة هذا الرجل.

سرنا يومين كاملين في تيه هائل من الصخور السوداء كأنما كنا نسير في منظر من مناظر القمر لشدة ما فيه من دمار؛ فلا شيء يسمع إلا أخفاف مطايانا على قطع الصخور التي كانت تنتثر فتنحدر إلى أعماق الهاوية، فيسمع لها دوي.

إنها لرحلة عجيبة حقا. في الساعات الأولى حاولت أن أرسم الطريق التي كنا نسلكها بالبوصلة. ولكن سرعان ما اضطرب رسمي، وكان ذلك بلاشك بسبب خطأ في تقدير خطوات الجمال، وحينئذ وضعت البوصلة في أحد أخراجي. ومنذ هذه اللحظة أصبح "إج أنطواين" سيدنا. لم يبق لنا إلا أن نثق به.

كان يسير في المقدمة يتبعه "موراتج"، وكنت أسير في المؤخرة. وكان يقع أغرب أنواع الصخور البركانية أمام عيني في كل لحظة ولكن دون جدوى. لم أهتم بهذه الأشياء؛ فقد تملكني فضول آخر.

لقد انتابني ما انتاب "موراتج" من جنون. فلو أن رفيقي أقبل يحدثني : «إن ما نفعله لجنون. فلنقفل راجعين إلى الدرب المطروق». لأجبته في هذه اللحظة : «إنك حر. أما أنا فسأتابع المسير».

في مساء اليوم الثاني، ألفينا أنفسنا عند سفح جبل أسود ترتفع قمته نحو ألفي متر فوق رؤوسنا، كأنه حصن له أبراج كالأبراج الإقطاعية ترتسم بوضوح جلي على صفحة السماء البرتقالية.

وكانت ثمة بئر وبعض الأشجار وهي الأولى من نوعها التي صادفناها منذ توغلنا في

"الحجَّار".

وكان جماعة من الرجال يحيطون بالبئر وجمالهم المعقولة تبحث لها بدون جدوى عن غذاء.

ولما رآنا الرجال تجمعوا في قلق مستعدين للدفاع.

فالتفت إلينا "إج أنطواين" قائلاً:

- طوارق "إجالي".

وتوجه نحوهم.

كان هؤلاء الإجالي وسيمي الطلعة، وكانوا أضخم من قابلت من الطوارق. وفي سرعة لم نكن ننتظرها تنحوا عن البئر تاركين لنا استعمالها. ووجه إليهم "إج أنطواين" بعض الكلمات. فنظروا إلينا، "موراني" وأنا، نظرة فضول وخوف، ولكنها نظرة احترام على كل حال.

فدهشت لهذا التحفظ. فقد رأيت رئيسهم يرد الهدايا المتعددة التي أخرجتها من خرجي، وكان يبدو عليه أنه يخشى حتى نظراتي.

فما إن رحلوا حتى أعربت لـ"إج أنطواين" عن الدهشة التي ألقاني في غمارها هذا التحفظ الذي لم أعتده في علاقاتي السابقة مع سكان الصحراء. وقلت له:

- لقد خاطبوك في احترام بل في خوف، ومع ذلك فقبيلة "الإجالي" قبيلة نبيلة في حين أن قبيلة "قل تهات" التي أخبرتني بانتمائك إليها قبيلة عبيد.

ومرت بسمة في عيني "إج أنطواين" القاتمتين. وقال:

- هذا حق!

- إذن؟

- إذن... قلت لهم إني والكابتن سنتجه معك إلى جبل الجن. وأومأ "إج أنطواين" مشيراً إلى الجبل الأسود.

- لقد انتابهم الخوف. فكل طوارق "الحجَّار" يخافون جبل الجن. أرأيت كيف فروا لمجرد أنهم سمعوا اسمه؟

فسأله "موراني":

- أتقودنا إلى جبل الجن؟

فأجاب الطارقي:

- نعم! فهناك النقوش التي حدثتك عنها.

- ولكنك لم تنبئنا بهذه التفاصيل.

- وما الفائدة؟ فالطوارق يخشون الجن الذين تعلو جباههم القرون وخلفهم الذيول، ويتدثرون بالشعر، ويقتلون القطعان ويصرعون الرجال. ولكنني أعرف أن "الروم" لا يخشونهم بل يسخرون من مخاوف الطوارق في هذا الأمر.

فقلت:

- وأنت؟ أأنت طارقي ولا تخشى هؤلاء الجن؟

فأشار "إج أنطواين" إلى كيس من الجلد الأحمر يتدلى على صدره منه سبحة ذات حبات بيضاء.

وقال برزانة:

- إني أحمل «حجاباً» وباركه الولي الجليل سيدي "موسى" بنفسه، ثم إنني في صحبتكم وقد أنقذتما حياتي. لقد "أردتما" مشاهدة النقوش، فلتكن مشيئة الله.

ولما انتهى من كلامه جلس القرفصاء وأخرج غليونه الغابي الطويل ذا الغطاء النحاسي وأخذ يدخن في وقار.

واقترب مني "مورانج" وتمتم قائلاً:

- قد أخذ كل شيء، يبدو لي غريباً.

فقلت:

- يجدر بك ألا تغالي. لعلك تذكر جيداً- مثلما أذكر- الفقرة التي يقص فيها "بارت" رحلته إلى "العدنين" وهي جبل الجن عند طوارق الأزجر. كانت للمكان سمعة سيئة بحيث لم يقبل أي طارقي مصاحبته ومع ذلك فقد رجع حيا.

فقال رفيقي:

- لقد عاد منها بلا شك، غير أنه ضل الطريق في أول الأمر وكاد يموت جوعاً وعطشاً حتى إنه اضطر إلى فصد عرق من عروقه ليشرب من دمه. إن نهاية كهذه لا تغريني.

فهززت كتفي: وعلى كل لم تكن غلطتي أن كنا قد بلغنا إلى هذا المدى.

وفهم "مورانج" معنى حركتي، ورأى أن من الواجب أن يعتذر. واستطرد في مرح متكلف بعض الشيء:

- ومع ذلك أحس بتشوق إلى الاتصال بهؤلاء الجن والتحقق من أخبار "بومبونيوس ملا" عنهم، وهو الذي عرفهم وحدد مكانهم بالفعل في جبال الطوارق. إنه يسميهم "أجيبان" و"بلميين" و"جمفازنت" و"ساتير". «إن الـ"جمفازنت" عراة. وليس للـ"بلميين" رءوس لأن وجوههم في صدورهم. والـ"ساتير" ليس لهم من الإنسان إلا الوجه. أما الـ"أجيبان" فهيئتهم عادية على ما يقال». "ساتير"، "أجيبان"... أليس من الغريب حقاً أن نسمع هذه الأسماء

اليونانية تطلق على جن البربر في هذه الأماكن! صدقني إننا نسير في درب غريب، وإني موقن أن "أنتينيا" ستكون مفتاحاً لاستكشافات غريبة جداً.

فقلت له وقد وضعت إصبعاً على شفتي:

– صه.... أصغ.

فثمة أصوات غريبة أخذت تنتشر حولنا، وقد أخذ الليل يجننا سريعاً. وإذا بفرقعة يليها أنين طويل يفتت القلب يتردد دون انقطاع في الأودية المجاورة. وكأن الجبل الأسود بأكمله أخذ يئن فجأة. فنظرنا إلى "إج أنطواين"، فإذا به مستمر في التدخين دون حراك.

وقال في بساطة:

– إن الجن يستيقظون.

كان "مورانج" ينصت دون أن يوجه إليّ كلمة، وكان مثلي يفهم من غير شك: الصخور الملتهبة وفرقعة الحجارة وسلسلة من الظواهر الطبيعية الأخرى التي تذكر بغناء تمثالي "ممنون". ومع ذلك لم يكن التأثير المؤلم لتلك الحفلة الموسيقية المفاجئة قليلا في أعصابنا المتهيجة.

وخطر بذاكرتي آخر عبارت "بوجمة".

فتمتمت:

– بلاد الخوف.

– فكرر "مورانج":

– بلاد الخوف.

وانقطعت الحفلة الموسيقية الغريبة عندما بدت في السماء طلائع النجوم. وفي انفعال متناه رأينا الشعلات الصغيرة الزرقاء الباهتة تضيء الواحدة تلو الأخرى. في هذه اللحظة المروعة كانت تصلنا تلك النجوم نحن المحكوم عليهما بالموت، كانت تصلنا بإخواننا في الأصقاع الشمالية، أولئك الذين كانوا في تلك الساعة في المدن حيث ينتشر ضوء الكهرباء فيندفعون في جنون خرف إلى ملاذهم التافهة:

للليل سبع بنات

ماتردجري وأرديجيهوت

ماتيسكسك وايسيكاوت

ماتيلهرلهر وايللرهاوت

والسابعة صبي فقد إحدى عينيه

وأخذ صوت "إج أنطواين" يخرج من حنجرته في بطء. في هذا الصمت المطبق كان صوته يدوي رخيما حزيناً.

فلمست ذراع الطارقي وأشار بحركة من رأسه إلى مجموعة النجوم المتألقة في السماء. فهمست إلى "مورانج" وأنا أشير إلى النجوم السبعة الباهتة:

- الثريا.

وعاد "إج أنطواين" بالصوت الرتيب نفسه إلى أغنيته الكئيبة. سيطر عليّ ضيق مفاجئ. فأمسكت ذراع الطارقي وهو يحاول ترديد أنشودته للمرة الثالثة. فسألته في غلظة:

- متى نصل إلى كهف النقوش؟

فنظر إلي وأجابني في هدوئه المعتاد:

- لقد وصلنا.

- وصلنا! وماذا كنت تنتظر إذن لترينا إياها؟

فأجاب في وقاحة:

- كنت منتظراً أن تطلب إليّ ذلك.

وانتصب "مورانج" واقفاً:

- الكهف... الكهف هنا؟

فأجاب "إج أنطواين" بهدوء وهو ينهض:

- إنه هنا.

وفجأة قلت في قلق:

- "مورانج"... لقد جن الليل ولن نرى شيئاً، ولربما كان الكهف بعيداً.

فقال "إج أنطواين":

- إنه على خمسمائة خطوة تقريباً. إن الكهف مليء بالعشب الجاف سنشعله وسيرى الكابتن كأنه في وضوح النهار.

فقال زميلي:

- هيا بنا.

فقلت:

- والجمال؟

فقال "إج أنطواين":

- إنها مقيدة ولن نغيب عنها طويلا.

كان قد يمم شطر الجبل الأسود وتبعه "مورانج" في حالة عصبية عنيفة وتبعتهما أنا أيضاً. وكنت قد اعتراني منذ لحظة ضيق شديد. وكان العرق ينفض في صدغي، وقلت لنفسي: "أنا لست خائفاً. أقسم إن هذا ليس بخوف".

لا. لم يكن هذا خوفاً. ولكن يا له من دوار غريب! أحسست بغشاوة على عيني وطنين في أذني، وسمعت من جديد صوت "إج أنطواين".. صوتاً مدوياً ولكنه مكتوم... مكتوم:

– لليل سبع بنات....

وخيل إليّ أن أصوات الجبل وهي ترجع الصدى كانت تكرر إلى ما لا نهاية البيت الأخير الكئيب:

والسابعة صبي فقد إحدى عينيه.

وقال الطارقي:

– إنه هنا.

وبدت في الجدار ثغرة سوداء. نفذ منها "إج أنطواين" وقد حنى قامته، وتبعناه وأطبقت علينا الظلمات.

لهب أصفر. كان "إج أنطواين" قد أورى الزناد وأشعل كومة من الحشائش بجانب المدخل. ولم نستطع أن نرى شيئاً في بادئ الأمر فقد غشى الدخان أبصارنا.

ومكث "إج أنطواين" بجانب ثغرة الكهف، وجلس في هدوء، تام وأخذ يخرج من غليونه نفثات طويلة من الدخان الرمادي.

في هذه اللحظة كان يصدر من العشب المتوهج ضوء براق. ولمحت "مورانج"، فبدا لي شاحباً للغاية. كان مستنداً إلى الجدار بيديه وهو منهمك في حل بعض رموز لم أرها إلا بصعوبة.

ولكن خيل إليّ أن يديه ترتعدان.

وقلت في نفسي وأنا أشعر بصعوبة متزايدة في وصل الأفكار بعضها ببعض:

– ياللشيطان! أهو في حالة اضطراب مثلي؟

سمعته يصيح في عنف وبدا لي أنه يخاطب "إج أنطواين":

– ابتعد عن هذا المكان. دع الهواء يدخل. ياله من دخان.

كان يواصل حل الرموز.

وفجأة سمعته مرة أخرى ولكن في غير وضوح. خيل إليّ أن الأصوات أيضاً كانت في الدخان:

– "أنتينيا".... أخيراً.... "أنتينيا"..... ولكن ليست محفورة في الصخر. علامات مرسومة بلون أصفر... لم يمض عليها عشر سنوات بل لربما لم يمض عليها خمس.... آه!.....

كان قد أمسك برأسه بين يديه وصاح صيحة عالية:

– هذا تضليل.... تضليل مروع!

فأرسلت ضحكة ساخرة مقتضبة:

- هيا! هيا! لا تغضب!

فأمسك بذراعي وأخذ يهزني. ورأيت عينيه تشعان ذعراً ودهشة.

وصاح في وجهي:

- أأنت مجنون؟

فقلت في ضحكتي المقتضبة:

- لا تصح عالياً هكذا!

ونظر إليَّ مرة أخرى وجلس متهالكاً على حجر تجاهي. كان "إج أنطواين" يواصل التدخين في الهدوء نفسه عند مدخل الكهف. وكنا نرى غطاء غليونه الأحمر يلمع في الظلام. وردد "مورانخ" في صوت بدا لي متغيراً:

- مجنون! مجنون!

وفجأة انحنى على النار التي كانت تنشر لهيبها الأخيرعالياً صافياً، وأخذ عشباً لم يكن قد احترق ورأيته يختبره في اهتمام ثم يلقيه في النار في ضحكة مدوية:

- هاها. إنه لشيء لطيف.

واقترب من "إج أنطواين" وهو يترنح وأشار إلى النار:

- حشيش أليس كذلك؟ حشيش آه.... آه.... إنه لشيء لطيف....

فكررت وأنا أنفجر ضاحكاً:

- إنه لشيء لطيف.

ووافق "إج أنطواين" بضحكة خافته. وكانت النار، وقد أخذت تخبو، تضيء، وجهه الملثم وتبرق في عينيه الرهيبتين القاتمتين.

وانقضت لحظة ثم أمسك "مورانخ" فجأة بذراع الطارقي وقال:

- أريد أن أدخن أنا أيضاً. أعطني غليوناً.

ناوله الشيخ في هدوء ما التمس.

- آه.... آه.... إنه غليون أوربي!

فكررت في مرح متزايد:

- غليون أوربي!

- وعليه حرف "م" كانه شيء مقصود: م. كابتن "مورانخ".

فقال "إج أنطواين" مصححا في هدوء:

- كابتن "ماسون".

فرددت مع "مورانخ":

- كابتن "ماسون".

وعاودنا الضحك.

- آه.... آه....آه..... كابتن "ماسون"! الكولونيل "فلاترز"، "بئر جرامة"... قتلوه ليسلبوه الغليون. هذا الغليون. إن "صغير بن شيخ" هو الذي قتل كابتن "ماسون".

فأجاب الطارقي في هدوئه الرزين:

- بالتأكيد إنه "صغير بن شيخ".

وقال "مورانج" وهو ينفجر ضاحكاً:

- كان كابتن "ماسون" قد ترك القافلة مع الكولونيل "فلاترز" ليستكشف البئر.

فأتممت وأنا أتمادى في الضحك:

- وحينئذ هاجمهما الطوارق.

وقال "مورانج":

- وأمسك طارقي حجاري بلجام فرس كابتن "ماسون".

وقال "إج أنطواين" :

- وأمسك "صغير بن شيخ" بلجام فرس الكولونيل "فلاترز".

وقلت:

- ووضع الكولونيل قدمه في الركاب وتلقى في اللحظة نفسها ضربة من سيف "صغير بن شيخ".

وقال "مورانج":

- وأخرج "ماسون" مسدسه وأطلق النار على "صغير بن شيخ" فأطار ثلاثة أصابع من يده اليسرى.

وأنهى الحديث "إج أنطواين" في غير اضطراب:

- ولكن "صغير بن شيخ "شج رأس كابتن "ماسون" بضربة من سيفه.

وضحك ضحكة صامتة راضية وهو يفوه بهذه الكلمة. كان الضوء المتخابي يضيئه، ورأينا أنبوبة غليونة سوداء لامعة. كان يمسكها بيده اليسرى. أصبع، اثنان فقط في هذه اليد. يا للدهشة! لم أكن قد لاحظت هذا من قبل.

ولاحظ ذلك أيضاً "مورانج" لأنه اختتم الحديث وهو يقول في ضحكة مدوية:

- وحينئذ وبعد أن شججت رأسه، سلبته متاعه وأخذت غليونه. مرحى يا "صغير ابن شيخ".

ولم يجب "ابن شيخ". ولكننا لمسنا رضاه التام. واستمر في تدخينه. لا أتبين تماماً تقاطيع

وجهه. وبهت لهيب النار وأخذ يخمد. لم أضحك قط كما ضحكت هذا المساء. ولا "مورانخ" أيضاً. أنا متأكد من ذلك. لربما نسي الدير. وذلك لأن "صغير ابن شيخ" سرق غليون كابتن "ماسون". فلنثق إذن بالنزعات الدينية.

عادت هذه الأغنية الملعونة: «والسابعة صبي فقد إحدى عينيه». لم يطرأ على بالي كلام في مثل هذا السخف.... آه شيء سخيف حقًّا: ها نحن أولاء الآن الأربعة في هذا القبو... أربعة! ماذا أقول؟ خمسة. ستة. سبعة. ثمانية... لا تتضايقوا يا أصدقائي! ماذا؟ ليس من أحد؟ سأعرف أخيراً كيف هم عفاريت هذا المكان الـ"جمفازنت" و الـ"بلميين"... يقول "مورانخ" إن وجه الـ"بلميين" في وسط صدورهم. ولكن من يمسكني بين ذراعيه؟ ليس من الـ"بلميين" بلاشك. هو يحملني إلى الخارج. و"مورانخ"... لا أريد أن ينسوا "مورانخ".

لم ينسوه: أراه مرفوعاً على جمل يمشي أمام الجمل الذي ربطت به. لقد أحسنوا صنعاً، فلولا ذلك لسقطت بالتأكيد. هؤلاء الجن لم يكونوا شياطين أشراراً حقا. ولكن ما أطول هذا الطريق! أريد أن أتمدد. النوم! لقد سلكنا بالتأكيد دهليزاً طويلا ثم خرجنا إلى الهواء الطلق. وها نحن أولاء مرة أخرى في دهليز خانق لا نهاية له. وها هي ذي النجوم مرة أخرى. أيستمر هذا السير المضحك طويلا.

يا للغرابة! أضواء... لعلها النجوم. لا! هي حقا أضواء... درج. أقسم أنه درج، في الصخر إذا أردت، ولكنه درج. كيف تستطيع الجمال... ولكن ليس هذا بجمل. إنه رجل ذلك الذي يحملني. رجل يرتدي ثياباً بيضاء. ليس هو الـ"جمفازنت" ولا الـ"بلميين" لابد أن تكون حالة "مورانخ" سيئة بعد أن أخطأ في استدلاله التاريخي. إني أكرر أنه أخطأ. "مورانخ" الطيب أرجو ألا يدعه الـ"جمفازنت" يسقط في هذا الدرج الذي لا ينتهي. ثمة شيء يبرق في السقف. إي نعم.. إنه مصباح نحاسي كما في "تونس" في منزل بربوشي. حسن! هأنذا لا أرى شيئاً مرة أخرى. ولكن لا أكترث إنني ممدد. الآن سأستطيع النوم. ياله من يوم سخيف! آه.... أيها السادة. أؤكد لكم أن لا فائدة من تقييدي؛ فلست أتوق إلى النزول إلى الشارع.

الظلام مرة أخرى. خطوات تبتعد. السكون.

للحظة فقط. يتحدثون بالقرب منا. ماذا يقولون؟لا...

هذا غير ممكن. هذا الصوت المعدني. هذا الصوت. أتعرف ماذا يقول هذا الصوت وفي لهجة من اعتاد ذلك. حسن إنه يقول:

– اختاروا لعبتكم أيها السادة. اختاروا لعبتكم. هنا عشرة آلاف جنيه على المنضدة. العبوا أيها السادة....

وأخيراً أأنا في "الحجار" أم لا بحق الإله المقدس؟!

الفصل الثامن

اليقظة في "الحجّار"

كان الصبح قد انبلج عندما فتحت عيني. وفي الحال فكرت في "مورانج". لم أره، ولكني سمعته بالقرب مني يرسل صيحات دهشة قصيرة، ناديته، فأسرع إلي.

وسألته:

– ألم يقيدوك إذن؟

– أسألك العفو. ولكنهم لم يحسنوا تقييدي ونجحت في التخلص من قيودي.

فقلت له في ضجر:

– كان في استطاعتك أن تحل قيودي أنا أيضاً.

– وما يجدي ذلك؟ لربما أيقظتك. وكنت أعتقد أن أولى صيحاتك ستكون نداء لي، وهأنذا قد انتهيت.

وترنحت وأنا أنتصب على ساقي.

فابتسم "مورانج":

– لو كنا قضينا الليلة ندخن ونحتسي الخمر. ما كنا نصبح على هذه الحال التي يرثى لها. وعلى كل حال لقد كان "إج أنطواين" بحشيشه جد خؤون.

فصححت قائلا:

– "صغير بن شيخ".

وأمررت يدي على جبهتي.

– أين نحن؟

فأجابني "مورانج":

– يا صديقي العزيز، منذ استيقظت من هذا الكابوس الفريد الذي ابتدأ في الكهف المليء بالدخان وانتهى عند الدرج ذي مصابيح ألف ليلة وليلة، وأنا أنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة ومن دهشة إلى دهشة. ويجدر بك أن تنظر حواليك.

ففركت عيني ونظرت وأمسكت يد رفيقي.

وقلت له متوسلاً:

– "مورانج"! قل لي إننا ما زلنا في حلم.

كنا في حجرة مستديرة قطرها نحو خمسين قدماً وارتفاعها مثل قطرها تقريباً تضيئها

نافذة كبيرة تنفتح على سماء شديدة الزرقة.

وكانت الطيور تطير جيئة وذهاباً وهي ترسل صيحات مرحة خاطفة.

وكانت الأرض والجدران المقوسة والسقف من رخام معرق أشبه بالرخام السماقي ومصفحة بمعدن غريب أبهت من الذهب وأقتم من الفضة، يعلوه في تلك اللحظة شيء من ندى نسيم الصباح وقد كان يدخل بشدة من النافذة التي تحدثت عنها.

ومشيت نحو النافذة وأنا أترنح تجتذبني برودة النسيم والضوء الذي يمحو الأحلام، واستندت إلى حاجز النافذة.

ولم أستطع أن أحبس صيحة إعجاب.

كنت على أشبه بشرفة معلقة في الفضاء منحوتة في جانب الجبل، من فوقي زرقة السماء ومن تحتي على بعد خمسين متراً تراءت لي جنة أرضية- حقا- تحيط بها القمم من كل الجهات كأنها سور متصل لا يمكن اختراقه. هناك تنبسط حديقة. كان النخيل يتمايل بسعفه المتطاول في رخاوة. وعند جذوعها خليط من الشجيرات التي يحميها النخيل في الواحات كشجر اللوز والليمون والبرتقال وأشجار أخرى متعددة لم أستطع تمييز نوعها من مثل هذا الارتفاع. وثمة جدول أزرق تغذيه عين تصب في بحيرة لطيفة، كان ما كنا فيه من الارتفاع يمنحها شفافيته العجيبة. وكانت طيور ضخمة تحلق دائرة على هذه الهاوية العشبية. وكنا نرى على البحيرة بقعاً وردية ملتهبة.

أما الجبال التي كانت تشمخ بقممها العالية من كل جانب فكانت مغطاة بالثلوج تماماً.

الجدول الأزرق، النخيل الأخضر، والثمار الذهبية ومن فوقها الثلوج العجيبة، كل هذا قد كون شيئاً بلغ من الحسن والجمال حدًّا لم أستطع أن أتحمل بقوتي الإنسانية الضعيفة وقعه، فوضعت جبهتي على الحاجز الذي كانت تغشاه هذه الثلوج الإلهية، وأخذت أبكي كما يبكي الطفل.

كان "موراتج" هو الآخر طفلا. ولكن بما أنه استيقظ قبلي فقد أتاح له الوقت أن يألف هذه التفاصيل التي ثقلت علي بتآليفها العجيبة. فوضع يده على كتفي واضطرني في رفق إلى العودة إلى البهو.

وقال لي:

- إنك لما تر شيئاً. انظر.... انظر.

- "موراتج"! "موراتج"!

- هيه يا عزيزي! ماذا تريد أن أصنع؟ انظر!

كنت قد لاحظت أن هذا البهو الغريب مؤثث- وليغفر الله لي- على الطريقة الأوربية.

غير أن ثمة وسائد طارقية مستديرة من أدم ذي ألوان صارخة، وأغطية جفصية[1] مبعثرة هنا وهناك، وبسط من القيروان وستائر من "القراماني" كنت ارتعدت لو رفعتها في تلك اللحظة. ولكن لمحنا من فتحة الحائط مكتبة مملوءة كتباً، وعلى الحوائط مجموعة من المصورات تمثل تحف الفن القديم. وهناك منضدة اختفت تحت أكوام لا يتصورها العقل من الأوراق والمجلات والكتب. وظننت أني سأخر صريعاً عندما لمحت عددا حديثا من "مجلة الآثار". ونظرت إلى "مورانج" فنظر إليَّ. وفجأة انبعثت ضحكة جنونية هزتنا لحظات. وأخيراً استطاع "مورانج" أن يقول:

– لا أدري أيخالجنا الندم يوماً على رحلتنا في "الحجار"؟ واعترف معي بأنها تنبئ بخصوبة في الحوادث المفاجئة. هذا الرائد الفذ الذي يؤمها لغرض وحيد، وهو أن ينقذنا من متاعب حياة القوافل ويتيح لي أن أعرف على أكمل وجه نشوة الحشيش التي طالما اشتدت رغبتي فيها، وركوب الخيل العجيب ليلا، وأخيراً كهف "نور الدين"، ولعله تلقى في مدرسة "النورمال" تعاليم "برسو" الأثيني، كل هذا يكفي ليخبل أكثر العقول اتزاناً.

– قل لي بجد ماذا ترى في كل هذا؟

– الذي أراه في ذلك يا صديقي المسكين أني– وهو ماتراه أنت بنفسك– لا أفهم شيئاً مطلقاً، مطلقاً. إن ما تسميه– بلطفك– سعة اطلاعي قد تلاشت. وكيف تريد ألا يحدث هذا؟ إن هذه الحياة الغريبة ترعبني. إن "بلينوس" يتكلم عن وطنيين يعيشون في الكهوف على بعد ستة أيام سيراً على الأقدام في الجنوب الغربي لبلاد "أمانت" وعلى مسافة اثني عشر يوماً غربي "سيرت". ويقول "هيرودوت" أيضاً إن "الجرامنت" يطاردون– في عربات تجرها الجياد– الأحباش أهل الكهوف. ولكن ها نحن أولاء في "الحجار" في وسط بلاد الطوارق ويقدم لنا أحسن المؤلفين. إن الطوارق شعب لا يرضى بالإقامة في الكهوف. إن "دفيرييه" صريح في ذلك. وما هذا الكهف الذي أعد مكتباً للعمل وعلى حوائطه مصورات لـ"فينيس دي ميدشي" و"أبولون سوروكتون". أقول لك إن هذا جنون. فثمة أشياء تبعث على الجنون.

وترك "مورانج" نفسه يسقط على أريكة وأخذ يضحك بشدة.

فقلت:

– انظر! لاتيني.

كنت قد أخذت بعض ورقات مبعثرة على المكتب الذي كان يتوسط الحجرة، فأخذها "مورانج" من يدي وتصفحها في شره. وبدت الدهشة المرسومة على صفحة وجهه لا حدلها

(١) نسبة إلى جفصة: مدينة. (المترجم).

حينذاك.

– ياصديقي من أعجوبة إلى أعجوبة. يوجد شخص هنا يحرر بحثاً عن جزائر "جرجونوم" بالرجوع إلى مصادر عدة. يقول إن "ميدوز" كانت ليبية متوحشة تقطن ضواحي بحيرة "تريتون"، وهو شط "ملحرير" الحالي، وهناك "برسيه"... آه!

واختلج صوت "مورانج" في حنجرته. وفي اللحظة نفسها دوى صوت خشن آت من البهو الفسيح:

– أرجوك ياسيدي، دع أوراقي وشأنها.

فالتفت نحو القادم.

وانفرجت إحدى ستائر قراماني وفسحت المرور لأقل الأشخاص توقعاً بالدخول. ومهما يكن من استسلامنا للمفاجآت العجيبة فإن هذا الظهور فاق بعدم ملاءمته في نظرنا كل ما يمكن أن يتبادر إلى ذهنينا.

وانتصب على عتبة الباب رجل قصير أصلع، أصفر الوجه مدببه، يختفي تحت زوج من العوينات الخضراء الضخمة، ولحية رمادية اللون، قليل الملابس الداخلية، ولكنه كان يلبس رباط عنق ضخم أحمر اللون وسروالا أبيض واسعاً. وكانت "بلغته" التي من أديم أحمر هي الجزء الوحيد الشرقي في ملبسه.

كان يحمل في تظاهر وسام ضابط المعارف العمومية.

جمع الوريقات التي تساقطت من يد "مورانج" في دهشة، وعدها ورتبها ثم هز جرساً صغيراً نحاسيا بعد أن حدجنا بنظرة غضب.

رفع الستار مرة أخرى. ودخل عملاق طارقي أبيض، فبدا لي واحداً من جن الكهف(١).

فسأل ضابط المعارف العمومية القصير في غضب:

– "فراجي"... لمَ دخل هذان السيدان المكتبة؟

فانحنى الطارقي باحترام وأجاب:

– لقد عاد "صغير بن شيخ" مبكراً كثيراً عما كنا ننتظر يا سيدي، ولم يكن محنطو الجثث قد انتهوا أمس من عملهم.

وتمتم وهو يشير إلينا:

– فقدناهما إلى هنا مؤقتاً.

فقال الرجل القصير في حدة:

(١) يطلق عادة إسم الطوارق البيض على السود من خدم الطوارق، النبلاء يرتدون اقمشة قطنية زرقاء في حين أنّ الخدم يرتدون اقمشة قطنية بيضاء. ولذا أطلق عليهم إسم الطوارق البيض. أنظر كتاب "دوفيربيه" "طوارق الشمال" ص. ٢٩٢ (تعليق السيد "لورو").

– هذا حسن. يمكنك أن تذهب.

ووصل "فراجي" إلى الباب متقهقراً ومكث على العتبة وأضاف:

– علي أن أذكرك يا سيدي بأن المائدة قد أعدت.

– حسن. اذهب.

وجلس الرجل ذو العوينتين الخضراوين إلى المكتب وأخذ يقلب أوراقاً في انفعال.

لست أدري لماذا تملكني في هذه اللحظة غيظ جنوني، فتقدمت منه وقلت له:

– يا سيدي! لا نعرف– زميلي وأنا– أين نحن ولا من أنت، وكل ما نعرفه أنك فرنسي؛ لأنك تحمل أحد أوسمة الشرف الممتازة من بلدنا.

وأضفت وأنا أشير إلى الشريط الأحمر الذي كان يتدلى على سترتي البيضاء:

– لعلك قد خامرتك الفكرة نفسها.

فنظر إلي في دهشة كلها احتقار:

– وماذا تريد إذن؟

– ماذا أريد؟ إن العبد الذي خرج نطق باسم "صغير بن شيخ" وهو اسم قاطع طريق. اسم شقي. أحد قتلة الكولونيل "فلاترز". أتعرف هذه التفاصيل؟

فنظر إلي الرجل القصير في برود وهز كتفيه.

– أجل. ولكن هذا لا يهمني.

فصمت في انفعال:

– وكيف؟ ولكن من أنت أولا؟

فقال الشيخ القصير وهو يلتفت نحو "مورانج" في وقار مضحك:

– سيدي أنت شاهد على تصرفات زميلك الغريبة. أنا هنا في منزلي ولا أسمح....

فأجاب "مورانج" وهو يتقدم:

– يجب أن تصفح عن زميلي يا سيدي. إنه ليس رجل علم مثلك، فهو ملازم شاب؛ ولذلك يثور سريعاً كما ترى. ويجب أن تفهم على كل حال أن لدينا من الدوافع ما يجعلنا– أنا وهو– لا نملك أعصابنا كما ينبغي.

وكدت وأنا في انفعالي أنكر على "مورانج" كلماته الغريبة لتواضعها؛ ولكن نظرة واحدة منه أقنعتني بأن السخرية تحتل من وجهه مثل ما تحتل دهشته من مكان.

فهمهم الشيخ القصير:

– إني أدرك جيداً أن معظم الضباط الفرنسيين أفظاظ. على أن هذا ليس بسبب...

فرد "مورانج" في لهجة متزايدة في التواضع:

- لست أنا نفسي إلا ضابطاً يا سيدي. ولو كنت قد تألمت من ضآلة العقلية التي يوصف بها هذا المركز، فأقسم لك أن هذا حدث منذ برهة عندما تصفحت- وأعتذر عن هذا- هذه الصفحات العلمية التي خصصتها لتاريخ "جورجون" الممتع بالرجوع إلى "بروكليس" القرطاجني كما تكلم عنه "بوزانياس".

وبسطت أسارير وجه الشيخ القصير دهشة مضحكة، ومسح عوينتيه بسرعة ثم صاح:

- كيف؟

واستمر "مورانج" في غير اضطراب:

- إنه لمما يدعو إلى الأسف في هذا الصدد أننا لا نملك البحث الفريد الذي يتناول هذه المشكلة المهمة وقد تكلم عنها "ستاثيوس سيبوزوس" الذي لا نعرف عنه شيئاً إلا عن "بلينوس"، وأن...

- أتعرف "ستاثيوس سيبوزوس"؟

- وأن أستاذي "برليو" الجغرافي....

فتمتم الرجل القصير ذو الوشاح دهشاً:

- أعرفت "برليو"! أكنت تلميذه؟

وأجاب "مورانج" وقد صار بارداً:

- كان لي الشرف.

- ولكن... إذن يا سيدي... لقد سمعت عن... إنك على علم بمسألة... بمشكلة الأطلنطيد...

فردد "مورانج" في برود شديد:

- أنا فعلا على علم بأعمال "لانيو" و"بلوا" و"أربوا دي جوبانفيل".

كان الرجل القصير يضطرب اضطراباً غريباً.

- يا إلهي يا سيدي! يا سيدي الكابتن ما أشد سروري، وما أشد أسفي!....

وفي اللحظة نفسها رفع الستار مرة أخرى وظهر "فراجي":

- سيدي يخبرونك بأنهم سيبدءون بدونك إذا لم تحضر.

- سأذهب. سأذهب يا "فراجي". أبلغهم أننا سنذهب. آه يا سيدي لو أمكنني أن أحدس، ولكن هذا عجيب جداً... ضابط يعرف "بروكليس" القرطاجني و"أربوا دي جوبانفيل". ومرة أخرى... ولكن أقدم نفسي: السيد "إتيين لميج"، أحمل شهادة الآجريجاسيون من الجامعة.

فقال زميلي:

- كابتن "مورانج".

فتقدمت بدوري:

- الملازم "دي سانت أفيت". أنا بالفعل يا سيدي لا أستطيع أن أفرق بين "أربوا" القرطاجني و"بروكليس دي جوبانفيل"، وسأهتم في المستقبل بتلافي هذا النقص. ولكني الآن أريد أن أعرف أين نحن، أنا وزميلي، وهل نحن أحرار؟ وأية قوة خفية تحجزنا؟ يبدو عليك يا سيدي أنك تتمتع بحرية في هذا المنزل بحيث تستطيع أن تطمئنني في هذه النقطة التي أعدها- لضعفي- أساسية.

ونظر إلي السيد "لميج" وقد بدت على شفتيه ابتسامة خبيثة وفتح فاه... وفي اللحظة نفسها دوّى جرس في انفعال.

- أيها السادة، سأوضح لكم كل شيء عما قليل. أما الآن كما تريان فلابد لنا من الإسراع. إنه وقت الغداء وزملاؤنا قد أخذوا يملون الانتظار.

- زملاؤنا؟

فقال "لميج":

- إنهما اثنان، فنكوِّن نحن الثلاثة موظفي المنزل الأجانب.

ورأى أن يضيف وهو يبتسم ابتسامته المقلقة:

- الموظفون المثبتون أيها السادة، إنهما اثنان فريدان ستؤثران بلاشك أن تكون العلاقة معهما ضئيلة قدر المستطاع. أحدهما رجل من رجال الدين ذو عقل ضيق، إنه بروتستانتي، والآخر رجل من عالم الفساد، شيخ مجنون فسألته:

- اسمح لي. لابد أن يكون الشخص الذي سمعته الليلة السابقة كان يلعب الميسر معك ومع القس بلاشك...

فأتى السيد "لميج" بحركة من أهين في كبريائه، وقال:

- أتظن ذلك يا سيدي؟ معي؟ إنه يلعب مع الطوارق. لقد علمهم كل ما يمكن أن تتصوره من ألعاب. انظر إنه هو الذي يدق الجرس بهذا العنف. لنسرع. الساعة الآن التاسعة والنصف، وتفتح حجرة المقامرة في الساعة العاشرة. فلنسرع، وأظن أنه لن يغضبكم أن تأكلا قليلا.

فأجاب "مورانج":

- فعلا لن نرفض ذلك.

وتبعنا السيد "لميج" في دهليز متعرج به درجات عند كل خطوة. كان الطريق مظلماً، ولكن من حين إلى حين كانت تلمع في كوات منحوتة في الصخر مصابيح وردية ومباخر.

وكانت العطور الشرقية المثيرة تؤرج الظلام وتنشئ تناقضاً رقيقاً مع جو القمم الثلجية الباردة.

وكان من لحظة إلى أخرى يمر بنا طارقي أبيض كأنه شبح جامد، وكنا نسمع قرقعة نعليه تتضاءل خلفنا.

وتوقف السيد "لميج" أمام باب مصفح بالمعدن الباهت الذي لاحظته على جدران حجرة المكتبة. وبعد أن فتحه انزوى جانباً ليفسح سبيل الدخول.

ومع أن حجرة المائدة التي دخلناها كانت قليلة الشبه بمثيلاتها الأوربية، أعتقد أن كثيرا منها قد تحسدها على ما يشتملها من رفاهية. وكانت كالمكتبة تضيئها نافذة كبيرة. غير أني لا حظت أن الحجرة تطل على الخارج في حين كانت حجرة المكتبة تطل على حديقة واقعة في داخل الدائرة الجبلية.

ليس ثمة أثر للمائدة، ولا لهذا الأثاث الوحشي الذي يسمى بالمقاعد، بل ثمة ألواح لا تعد من خشب مذهب كأنها من البندقية، وأكوام من البسط شاحبة اللون ضعيفته، ووسائد طارقية وتونسية، وفي الوسط حصير كبير وضع عليه في سلال دقيقة الخيوط، بين أباريق فضية وكاسات نحاسية مملوءة بالماء المعطر، وطعام أمدنا منظره وحده بشيء من القوة.

وتقدم السيد "لميج" وقدمنا إلى الشخصين اللذين كانا قد اتخذا مكانهما على الحصير، فقال:

– السيد "سباردك".

وأدركت من هذه الجملة البسيطة أن مقدمنا يترفع كثيراً عن الألقاب الإنسانية التافهة.

فحيانا جناب القس "سباردك"، وهو من "منشستر"، تحية متزنة، والتمس منا أن نسمح له بأن يحتفظ على رأسه بقبعته العالية ذات الأطراف العريضة. كان جافيا بارداً، وطويلا نحيفاً. وكان يأكل كثيراً في هدوء كئيب.

فقال السيد "لميج" بعد أن قدمنا للمدعو الثاني:

– السيد "بيلوفسكي".

وصحح الأخير في لطف تام حين وقف لمصافحتنا:

– الكونت "كازمير بيلوفسكي"، قائد "جيتومير".

وشعرت في الحال بشيء من الميل إلى قائد "جيتومير" الذي كان يمثل الشيخ الجميل تمام التمثيل. كان في رأسه فرق يفصل شعره البني (وعلمت بعد ذلك أن القائد يصبغه بمزيج من الكحل)، وكان له سوالف فاخرة على نمط "فرنسوا جوزيف" بنية اللون أيضاً. وكان أنفه يميل قليلا إلى الاحمرار، ولكنه جد دقيق، جد نبيل. وكانت يداه أعجوبتين. أخذت بعض الوقت في تحديد تاريخ البدْع الذي ينتمي إليه رداء الكونت وهو أخضر قاتم ذو قلابات صفراء يزينها

وسام فضي ضخم ذو مينا زرقاء. ووثبت إلى ذهني صورة للدوق "دي مورني" جعلتني أرده إلى سنة ١٨٦٠ أو ١٨٦٢ . وستظهر بقية القصة أني ما أخطأت قط.

وأجلسني الكونت بجواره. من أول الأسئلة التي وجهها إلي كان سؤاله: هل سبق لك أن لعبت "الخمسة".

فقلت:

– هذا يتبع وحي الظرف.

– أحسنت قولاً. أما أنا فلم ألعبها منذ عام ١٨٦٦ . هذا قسم. جرم صغير... كنا نلعب في ذات يوم عند "فالفسكي" في حماسة. سحبت خمسة فضاعفت بالتأكيد الرهان، وكان مع ملاعبي أربعة. فصاح البارون "دي شو جيزيه" الصغير الذي كان يقامر على ورقي بمبالغ جنونية: "أبله"! فقذفت رأسه بزجاجة شراب. فطأطأ رأسه، فتلقى الزجاجة الماريشال "فايون". ويا له من منظر! وقد أصلحوا ذات بيننا؛ لأننا كنا نحن– الاثنين– ماسونيين. واضطرني الإمبراطور أن أقسم ألا أمارس هذه اللعبة فاستمسكت بوعدي، ولكن هذا كان يشق علي في بعض الأحيان.

وأضاف في صوت تملؤه الكآبة:

– ناولني قليلا من شراب "الحجار" عام ١٨٨٠ ، إنه شراب جيد. أنا الذي علم سكان هذا المنزل كيف يستعملون عصير الكروم. إن شراب النخيل جيد له قيمته إذا أحسن تخميره، ولكنه مع مرور الزمن قد يفقد نكهته.

كان شراب "الحجار" عام ١٨٨٠ شرابا قوياً. وكنا نتناوله في أكواب فضية كبيرة. كان طازجاً كشراب الراين وجافا كشراب الأديرة، ثم إذا به يذكرك بشراب البرتغال المحروق، ثم يغدو حلواً فكيهاً... أقول لك إنه شراب عجيب.

كان يتناول هذا الشراب مع أكثر الوجبات مرحاً: قليل من اللحم ولكنه كان متبلا بإتقان. كثير من الكعك، فطائر بالعسل، شطائر معطرة، حلويات بالحليب الرائب والتمر. في الأطباق الكبرى المذهبة أو في وسط السلال الخيزرانية فواكه.... أكوام من الفواكه: تين وتمر وفستق وعنب ورمان ومشمش وعناقيد ضخمة من العنب أطول من العناقيد التي ناءت تحتها مناكب الممولين الإسرائيليين في بلاد "كنعان"، وبطيخ ثقيل مقطع ذو لحم وردي رطب، وصفوف منظمة من اللب الأسود.

وما كدت أنتهي من تذوق إحدى هذه الفواكه الجميلة المثلجة حتى نهض السيد "لميج" وقال موجهاً كلامه إلى "مورانج" وإلي:

– تفضلا أيها السادة.

فهمس إلي قائد "جيتومير" :

- دع هذا المخرف بأسرع ما تستطيع. ستبدأ المقامرة عما قليل سترى... سترى... أعنف كثيراً مما هو عند "كورا برل" .

وكرر السيد "لميج" بلهجة جافية:

- أيها السادة.

فتبعناه. ولما صرنا نحن الثلاثة في المكتبة قال يخاطبني:

- يا سيدي! لقد سألتني منذ هنيهة أية قوة خفية تحجزكما هنا. وبما أن أسلوبك كان تهديديا، كان علي أن أرفض الإجابة لولا صديقك الذي يسمح له علمه أكثر منك بأن يقدر قيمة ما سأبوح به لكما.

وبينما كان يتكلم ضغط على زر في جانب من الجدار، فظهر خوان مليء بالكتب وتناول واحداً منها.

واستمر السيد "لميج" قائلاً:

- إنكما كليكما تحت سلطان امرأة. وهذه المرأة وهي الملكة، السلطانة الحاكمة المطلقة للحجّار تدعى "أنتينيا" . لا تدهش يا سيد "مورانج" .

وفتح الكتاب وقرأ هذه الجملة:

« يجدر بي أولاً أن أنبئك قبل الدخول في الموضوع بألا يأخذك الدهش إذا سمعتني أسمي بعض البرابرة بأسماء يونانية » .

فتمتم "مورانج" وقد أفزعني شحوبه في هذه اللحظة:

- ما اسم هذا الكتاب؟

فأجاب السيد "لميج" ببطء وهو يزن كلماته مشعراً بانتصاره:

- هذا الكتاب هو أكبر محاورات "أفلاطون" وأجملها وأكثرها صعوبة. إنه « كريسياس » أو « الأطلنطيد » .

فتمتم "مورانج" :

- « كريسياس » ولكنه غير كامل.

فقال السيد "لميج" :

- إنه غير كامل في "فرنسا" ، في "أوربا" ، في كل مكان. أما هنا فإنه كامل. تحقق من هذه النسخة التي أناولك إياها.

فردد "مورانج" وهو يتصفح المخطوط بشره:

- ولكن أية صلة... أية صلة بين هذا الحوار الكامل كما يلوح لي.... أجل كامل... أية

صلة بينه وبين هذه المرأة "أنتينيا"، ولم كان في حيازتها؟

فأجاب الرجل القصير في غير اضطراب:

- لأن... لأن هذا الكتاب بالقياس إليها هو كتاب شرفها. إنه لها بمثابة تقويم "جوته" على وجه التقريب. أفاهم أنت؟.... لأنه يحدد نسبها العجيب.... لأنها...

فكرر "مورانج":

- لأنها...

- لأنها حفيدة "نبتون" وآخر سلالة الأطلنط.

الفصل التاسع

الأطلنطيد

ونظر السيد "لميج" إلى "مورانج" نظرة انتصار. كان واضحاً أنه لا يوجه الحديث إلا إليه، فهو في نظره الوحيد الجدير بهذا الإفضاء.

قال:

- إنهم لعديدون أولئك الضباط الفرنسيون أو الأجانب الذين جذبتهم إلى هنا نزوة ملكتنا "أنتينيا". وإنك أول من أمنحه شرف معرفة هذه الأسرار. إنك كنت تلميذ "برليو"، وأنا أجل كثيراً ذكرى هذا الرجل العظيم. ويخيل إلي أني أكرمه بإشراك أحد تلاميذه في النتائج الفريدة- إذا صح هذا القول- لبحوثي الخاصة.

وهز جرسه الصغير، فظهر "فراجي". وأمره السيد "لميج":

- قهوة لهؤلاء السادة.

ومد إلينا صندوقاً صغيرا ملوناً بألوان زاهية مليئاً بالسجائر المصرية وقال:

- أنا لا أدخن مطلقاً. ولكن "أنتينيا" تحضر أحياناً إلى هنا وهذه سجائرها. تفضلا أيها السادة.

كنت دائماً أتقزز من هذا الطباق الأصفر الذي يتيح لصبي حلاق في شارع "الميشوديير" أن يتخيل الملذات الشرقية. ولكن هذه السجائر الممسّكة هي بذاتها مغرية. ثم كانت مؤونة سجائر الكابورال قد نفدت منذ أمد بعيد.

وقال لي السيد "لميج":

- ها هي ذي مجموعة «الحياة الباريسية» فاقرأها إذا كانت تهمك، وسأحادث أنا صديقك.

فأجبته بلهجة شديدة:

- يا سيدي لم أكن حقا تليمذ "برليو". ولكن ستسمح لي أن أستمع إلى حديثك؛ فأنا لم أفقد الأمل في أن أجده ممتعاً.

فأجاب الشيخ القصير:

- كما تريد.

وجلسنا جلسة مريحة، وجلس السيد "لميج" أمام مكتبه ورفع كمي قميصه وابتدأ بهذه الكلمات:

- مهما يكن من شغفي يا سيدي باللاذاتية التامة فيما يختص بالعلم فإنني لا أستطيع أن أفصل تماماً قصتي الخاصة عن قصة آخر سلالة "كليتو" و"نبتون". هذا ما يؤسفني ويشرفني في وقت واحد.

«إنني وليد أعمالي. فقد بهرتني منذ صباي وثبة القرن التاسع عشر العظيمة للعلوم التاريخية. تبينت طريقي فسلكتها على رغم الجميع».

«أقول فعلا على رغم الجميع. نجحت في مسابقة "الآجريجاسيون" في التاريخ والجغرافيا سنة ١٨٨٠ دون وسيلة إلا مجهودي وجدارتي. كانت مسابقة عظيمة، وكان من بين الثلاثة عشر الذين فازوا في المسابقة أسماء خلدت منذ ذلك الحين: "جوليان"، "بورجوا"، "أويرباخ".

ولست أحقد على زملائي الذين وصلوا اليوم إلى أعلى المناصب في الدولة؛ فإني أقرأ في إشفاق أعمالهم والأخطاء الفظيعة التي يوقعهم فيها ما في مراجعهم من نقص. وكان هذا خليقاً بأن يعوضني تماماً عن كوارثي الجامعية وأن يملأني بمرح ساخر لولا أني صرت منذ زمن بعيد أترفع عن مثل هذا الإرضاء لكرامتي وعزة نفسي.

«لما كنت مدرساً في "ليسيه دي بارك" في "ليون"، عرفت هناك "برليو" وتتبعت بشغف بحوثه في تاريخ إفريقيا. ومنذ هذا الزمن جالت بخاطري فكرة رسالة دكتوراه طريفة. وكانت الفكرة تقوم على وضع موازنة بين الكاهنة بطلة البرابرة التي حاربت العرب في القرن السابع وبين البطلة الفرنسية "چان دارك" التي حاربت الغزاة الإنجليز. فقدمت إلى كلية الآداب في باريس اقتراحاً بهذه الرسالة:

«چان دارك والطوارق». وأثار هذا العنوان البسيط في الأوساط العلمية تذمراً عاماً وضحكاً عالياً سخيفاً. وقد أسر إلي بذلك بعض الأصدقاء، وأبيت أن أصدقهم. ولكني

اضطررت إلى تصديقهم في اليوم الذي دعيت فيه لمقابلة عميدي الذي أبدى اهتماماً بحالتي الصحية أدهشني. سألني آخر الأمر: أتقبل إجازة لمدة سنتين بنصف راتب؟

فرفضت محتدا. ولم يلح العميد في ذلك. ولكن بعد خمسة عشر يوماً نقلت بقرار وزاري بدون أي إجراء آخر إلى أحط مدرسة في "فرنسا" وأبعدها،في "مونت دي مارسان".

« ولتفهم جيداً أنني كنت مجروح الكرامة، وستغفر لي سوء تصرفاتي في هذه المقاطعة الغريبة. وما العمل في منطقة "اللاند" غير أن نأكل ونشرب! فقمت بهذين العملين بشراهة. وأنفقت راتبي في شراء الكبد والبط والشراب. وكانت النتيجة جد سريعة. في أقل من سنة أخذت مفاصلي تفرقع كأنها أعمدة دراجة غارقة في الزيت بعد أن قطعت مسافة طويلة في طريق مترب. واضطرني النقرس إلى ملازمة الفراش. ولحسن الحظ يوجد الدواء إلى جانب الداء في هذه المقاطعة المباركة. رحلت في العطلة إلى "داكس" لأذيب هذه البلورات المؤلمة.

« واستأجرت حجرة على شاطئ "اللادور" تشرف على طريق "بنيو" وكانت تنظف حجرتي امرأة طيبة، كما كانت تنظف أيضاً حجرة رجل مسن بالمعاش كان وكيل نيابة ورئيس جمعية "روجيه- دوكو"، وهي جمعية ذات صبغة شبه علمية؛ إذ كان علماء المقاطعة يبذلون جهودهم مع قلة دراية مدهشة لدراسة أغرب المسائل. كنت قد لازمت حجرتي بعد ظهر أحد الأيام لشدة المطر. وكانت المرأة تصقل في عنف أكرة الباب النحاسية. كانت تستعمل دهاناً يسمى "تريبولي" تتناول منه على ورقة ثم تصقل... وتصقل... وأثار شكل الورقة اهتمامي فألقيت عليها نظرة:

– « يا إلهي! من أين أخذت هذه الورقة »؟

فاضطربت وقالت:

– « من عند سيدي. إن لديه من هذه أكواماً. لقد نزعت هذه الورقة من إحدى الكراسات ».

– « هاك عشرة فرنكات وإلي بهذه الكراسة ».

« وبعد ربع الساعة عادت وقد أحضرتها.... يا للسعادة! لم تكن تنقص إلا صفحة واحدة، الصفحة التي كانت تصقل بها مقبض الباب النحاسي. وهذا المخطوط... هذه الكراسة.... أتدري ما هي؟ لم تكن إلا « الرحلة إلى الأطلنطيد » التي قام بها "دنيس دي ميليه » كما يذكرها "ديودور"، والتي كثيراً ما سمعت "برليو" يأسف على فقدها [١].

« كان هذا السند القيم يحوي مقتبسات عدة الـ"كريسياس" وكان يذكر أهم ما في

---

(١) كيف وصل كتاب "رحلة إلى الاطلنطيد" إلى مدينة "داكس" ؟ لم اجد حتى الآن إلاّ فرضاً واحداً معقولاً: ربما إستكشفه في إفريقيا الرحالة "دي بيهاجل" عضو جمعية "روجيه – دوكو" الذي تلقى العلم ف كلية "داكس" وأقام فيها بعد ذلك عدة مرات (تعليق السيد "لورو").

الحوارالشهير. وقد وقعت يداك منذ قليل على النسخة الوحيدة الموجودة في العالم منه. فهو يحدد بطريقة لا تحتمل المناقشة موضع حصن جماعة الأطلنطيد، ويثبت أن هذا الموقع الذي ينكره العلم الحديث، لم تغمره المياه كما يتصور المدافعون المتهيبون القلائل عن افتراض الأطلنطيد. كانوا يسمونه: «الجبال المزيقية المتوسطة». وأنت تعلم أنه لا مجال للشك في أن "المازيق" الذين تكلم عنهم "هيرودوت" هم قبائل "إيموسكاوك"، الطوارق. ولكن مخطوط "دينيس" يجعل بكل تأكيد من "مازيق" التاريخ جماعة الأطلنطيد في الأسطورة المزعومة.

«إذن فقد دلني "دينيس" على أن الجزء المتوسط من الأطلنطيد، مهد الأسرة النبتونية ومقرها، لم يغمر في الكارثة التي يذكرها. "أفلاطون" والتي ابتلعت باقي جزيرة الأطلنطيد، ودلني أيضاً أن هذا الجزء يطابق "الحجار" الطارقي، وأن في عصر "دينيس"، على الأقل، كان من المزعوم به أن أسرة "نبتون" النبيلة تتناسل في "الحجار".

« ويرجع مؤرخو الأطلنطيد تاريخ الطوفان الذي أفنى كل هذه المقاطعة الشهيرة- أو جزءاً منها- إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد». إذا كان "دينيس دي ميليه" الذي كتب من مدة لا تزيد على ألفي سنة يقرر أن أسرة "نبتون" كانت لا تزال تفرض قوانينها في زمانه فستدرك أنت أنه خطرت لي الفكرة التالية: إن ما عمَّر تسعة آلاف عام يمكن أن يعمر أحد عشر ألفاً. ومنذ تلك الحظة لم يبق أمامي إلا هدف واحد، أن أتصل بما يمكن أن يكون حيًّا من سلالة الأطلنطيد. وإن حدث- كما كنت أعتقد لعدة أسباب- إنهم انحدروا وجهلوا مجدهم الأول فسأكشف لهم عن نسبهم المجيد.

« ومن الواضح أنني لم أكشف عن نياتي لرؤسائي الجامعيين: أن أطلب المساعدة منهم بل حتى التصريح، كان ذلك جديراً من غير شك أن يؤدي بي إلى مستشفى الأمراض العقلية، لما لمسته من ميولهم نحوي. فجمعت بعض النقود وأبحرت إلى "وهران" دون ما إعلان. فوصلت إلى "عين صلاح" في أول شهر أكتوبر (تشرين الأول). وبينما كنت مستلقياً تحت ظل نخلة في الواحة أحسست بلذة متناهية. إذ تصورت مدير "ليسيه مونت دي مارسان" في هذا اليوم نفسه يحاول جاهداً كالمجنون أن يسكت عشرين طفلا يصخبون أمام باب فصل خال، ويبعث ببرقيات إلى كل الجهات للبحث عن مدرس التاريخ».

وتوقف السيد "لميج" ونظر إلينا نظرة رضا.

أعترف بأني انتقصت من كرامتي وقتئذ وأصبحت لا أعني بما كان يبديه من تكلف مستمر بأنه إنما يحدث "مورانج" وحده.

فقلت:

- المعذرة يا سيدي إذا كان حديثك قد أثار انتباهي أكثر مما كنت أنتظر. ولكن لعلك

تعلم جيداً أنني تعوزني عدة عناصر لأستطيع متابعة حديثك. فقد تحدثت عن أسرة "نبتون". ما هي هذه الأسرة التي أظن أنك تنسبها إلى "أنتينيا"؟ وما دورها في تاريخ الأطلنطيد؟

فتنزل السيد "لميج" بالابتسام وهو ينظر متخاوصاً إلى "موراتج" الذي كان يصغي إليه دون أن يتحرك أو يفوه بكلمة، وقد وضع ذقنه في راحته وأسند مرفقه إلى رقبته.

فقال الأستاذ:

- سيقوم "أفلاطون" بالإجابة نائبا عني.

وأضاف في لهجة إشفاق متناهية:

- أمن الممكن ألا تكون على علم بمبدأ الـ"كريسياس"؟

وأخذ من فوق المنضدة المخطوط الذي طالما أثار اهتمام "موراتج" ووضع عوينتيه وجعل يقرأ، وكأن السحر الأفلاطوني أخذ يهز هذا الشيخ القصير المضحك ويغير من ملامحه. وقال:

«بعد أن اقترعت الآلهة على أجزاء الأرض المختلفة كان من نصيب بعضهم المقاطعات الكبرى، ومن نصيب بعضهم الآخر المقاطعات الصغرى.... وهكذا أحل "نبتون"، الذي آلت إليه جزيرة الأطلنطيد، أولاده الذين أنجبتهم له زوجة آدمية، مكاناً من هذه الجزيرة. كان هذا المكان سهلا في وسط الجزيرة غير بعيد عن البحر. ويؤكدون أنه كان من أجمل السهول وأكثرها خصباً. وفي وسط الجزيرة على مسافة خمسين (كيلو مترا) من هذا السهل كان ثمة جبل. وكان "إيفينور" يعيش مع امرأته "لوسيب"، وهو أحد الرجال الذين نشأوا في مبدأ الأشياء من الأرض، وقد أنجبا طفلة وحيدة هي "كليتو". كانت في سن البلوغ حين قضى أبواها نحبهما. وشغف بها "نبتون" فتزوجها. وجعل حواجز متتالية من الماء واليابس بعضها صغير والآخر كبير، حاجزين من اليابس وثلاثة من الماء، وجعلها مستديرة في وسط الجزيرة بحيث كانت كل أجزائها متساوية»....

وقطع السيد "لميج" قراءته وسأل:

- ألا يذكرك هذا الوضع بشيء ما؟

فنظرت إلى "موراتج" الذي كان غارقاً في أفكار تتزايد في العمق. فألح صوت الأستاذ وكان واضح النبرات:

- ألا يذكرك بشيء؟

فتمتمت:

- "موراتج"..."موراتج"... تذكر أمس رحلتنا وخطفنا والممرين اللذين جعلونا نعبرهما

قبل الوصول إلى هذا الجبل. . . حواجز من يابس وماء. . . ممران وحاجزان من يابس. . . .

فقال "لميج" :

- هيه. . هيه!

كان يبتسم وهو ينظر إلي. ففهمت أنه يعني بابتسامته أنني أقل غباوة مما كان يعتقد.

وقطع "مورانج" الصمت بعد أن بذل جهداً كبيراً:

- إني أدرك جيداً. . . إني أدرك جيداً. . . ثلاثة حواجز من الماء. . . إذن أنت يا سيدي تفترض في شرحك الذي لا أنكر ما فيه من مهارة. . . تفترض صحة افتراض البحر الصحراوي.

فأجاب الشيخ القصير في غضب، وقد ضرب ضربة عنيفة على المكتب:

- أفترضها وأثبتها. أنا أعرف تمام المعرفة معارضة "شيرمر" والآخرين لهذه الفكرة، وأعرف ذلك أكثر مما تعرف. أعرف كل شيء يا سيدي. وأنا أضع تحت تصرفك كل البراهين. وفي انتظار ذلك ستتمتع على العشاء في المساء بأكل سمك لذيذ. وستخبرني إذن عن هذا السمك الذي صيد من البركة التي تستطيع رؤيتها من النافذة هل هو سمك نهري؟!.

واستمر في هدوء نسبي:

- ولتفهم جيداً الخطأ الذي وقع فيه من قالوا بوجود الأطلنطيد وحاولوا أن يفسروا ذلك الطوفان الذي غمر الجزيرة الجميلة بأكملها.

فلقد قالوا جميعاً بأنه انغمار، ولكن الواقع أنه لم يكن انغماراً من هذا النوع، وإنما كان انكشافا. لقد انكشفت أراض جديدة من مياه الأطلنطي وحلت الصحاري مكان البحر. إن الملاحات وبحيرات "تريتون" و"سيرت" الرملية هي البقايا الموحشة من المياه المتموجة التي مخرتها قديماً الأساطيل لغزو "أتيكا". والرمال تبتلع من المدنية أكثر مما تبتلعه المياه . واليوم لم يبق من الجزيرة الجميلة التي جعلتها البحار والرياح شامخة خضراء إلا هذه الجبال ذات القمم الحرار[١]، وثبتت وحيدة في هذا الإناء الصحراوي المنعزل عن عالم الأحياء، تلك الواحة العجيبة التي تنبسط تحت أقدامكما. هذه الفاكهة الحمراء، هذا الهدير من الماء، وهذه البركة الزرقاء، هي شواهد مقدسة لعصر ذهبي مضى. وأمس مساء وأنتما في طريقكما إلى هنا عبرتما الحواجز الخمسة: ثلاثة حواجز من الماء التي جفت إلى الأبد وحاجزين اثنين من اليابس يشقهما ممر قطعتماه على متون الجمال. وقديماً كانت تسير فيه مراكب ذات ثلاثة مجاديف. وقد احتفظ هذا الجبل وحده إبان الكارثة العظيمة، بما كان عليه وقتئذ من عظمة قديمة. هذا الجبل الذي قصر فيه "نبتون" حبيبته "كليتو" ابنة "إيفينور" و"لوسيب"، وأم

---

(١) الحرار: السود.

أطلس. والجدة الألفية لـ"أنتينيا"، تلك الملكة التي دخلتما في سلطانها إلى الأبد.

وقال "مورانج" في أدب وظرف:

- يا سيدي، إن الاهتمام الذي سيدفعنا إلى معرفة أسباب هذا الخضوع وغرضه لن يكون إلا طبيعيا للغاية. ولكن انظر إلى أي حد يثير تصريحك اهتمامي. إني أرجئ هذا السؤال الشخصي. لقد استكشفت في هذه الأيام نقشا تيفيناريا باسم "أنتينيا" في كهفين. ويشهد زميلي بأني رجحت أن يكون اسماً يونانيًّا. وأنا لأدرك- والفضل في ذلك يرجع لك ولـ"أفلاطون"- ألا داعي للدهشة إذا ما أطلق اسم يوناني على أحد البرابرة. غير أن حيرتي في معرفة أصل هذه الكلمة لا تزال كما هي. ألا تستطيع أن تفيدني في هذا الموضوع؟

فأجاب السيد "لميج"؟

- لا أتأخر عن ذلك بكل تأكيد ياسيدي. وبهذه المناسبة أقول إنك لست بأول من ألقى مثل هذا السؤال. إن كثيراً من المستكشفين الذين رأيتهم يدخلون هنا منذ عشر سنوات، جذبوا بهذه الطريقة، وهي معرفة هذه الكلمة اليونانية المنقوشة بالخط التيفيناري. وقد قمت بعمل جدول جد دقيق لهذه النقوش والكهوف التي توجد بها، وكلها أو جلها مرفقة بهذه العبارة: «أنتينيا"- هنا تبدأ أملاكها». أما ما كاد يتلاشى منها فقد أمرت أن يطلى بالأصفر.

ولكن لكي نعود إلى ما كنا فيه أولاً أقول: إنه لم يهتم أوربي من هؤلاء الذين جذبهم هذا السر الخطي إلى هنا حين ألفى نفسه في قصر "أنتينيا" بمعرفة أصل الكلمة؛ فقد شغلهم في التو شاغل آخر. وبهذه المناسبة فثمة أشياء يمكن أن تقال على قلة الأهمية الفعلية للمسائل العلمية المحضة حتى في نظر العلماء الذين يضحون بها سريعاً لأمور وضيعة مثل قلقهم على حياتهم.

فقال "مورانج" وهو لا يزال في ظرفه المدهش:

- إذا سمحت يا سيدي فلنرجئ الحديث عنها.

- سيدي ليس لهذا الخروج على الموضوع إلا سبب واحد، وهو أن أؤكد لك أني لا أعدك من هؤلاء العلماء غير الجديرين بالثقة. فالحق أنك مهتم بمعرفة أصل هذا الاسم "أنتينيا"، وهذا قبل أن تعرف من أي نوع من النساء تلك التي تحمله أو أسباب أسركما أنت والسيد.

فأنعمت النظر في الشيخ القصير، غير أنه كان يتحدث وهو مستغرق في الجد. فقلت في نفسي: «هذا حسن لك وإلا ألقيت بك من النافذة لتسخر كما تشاء. لم يتغير من غير شك قانون سقوط الأجسام في "الحجار"».

واستمر السيد "لميج" يخاطب "مورانج" غير مكترث بنظراتي المضطرمة:

- لابد أن تكون- يا سيدي- قد افترضت بعض الافتراضات عن اشتقاق الكلمة عندما

وجدت نفسك لأول مرة أمام هذا الاسم "أنتينيا". أترى ما يمنع من اطلاعي عليها؟

فقال "مورانج":

- لا يوجد ما يمنع يا سيدي.

وفي رزانة سرد اشتقاقات الكلمة التي تحدثت عنها سابقاً.

وكان الرجل القصير ذو الصدار الأحمر يفرك يديه. وقال في لهجة فرح شديدة:

- هذا حسن، حسن جدا، أو على الأقل بالإضافة إلى معارفك اليونانية التي لابد أن تكون ضئيلة. على أن كل هذا لا يمنع أن تكون افتراضاتك خاطئة، خاطئة جداً.

فقال "مورانج" في هدوء:

- إنما وجهت إليك هذا السؤال لأني أشك في صحتها.

فقال السيد "لميج":

- لن أتركك في هذا الانتظار المضني أكثر من ذلك. يتقطع اسم "أنتينيا" بالطريقة التالية: "تي" وما هو إلا جزء بربري أدخل على هذا الاسم اليوناني. "إن" هي أداة التعريف للمؤنث في اللغة البربرية. ولدينا عدة أمثلة على هذا الامتزاج اسم "تيبازا" مثلاً: مدينة في شمال إفريقيا. إن معنى اسمها "الكاملة" وهي مكونة من "تي" و var ومثلها "تينيا" ومعناها "الجديدة" وهي مكونة من "تي" و Ea.

فسأل "مورانج":

- والمقطع الأول "أن"؟

فأجاب السيد "لميج":

- هل يليق يا سيدي أن أجهد نفسي في الكلام عن الـ"كريسياس" مدى ساعة لأصل إلى هذه النتيجة المحزنة؟ يقيناً أنه لا معنى للمقطع "أن" في ذاته، ولكن ستدرك أن له معنى حينما أقول لك إننا هنا أمام حالة ترخيم جد غريبة. يجب ألا تقرأ "أن" بل "أطلان". لقد سقطت "أطل" للترخيم وبقيت "أن".

وخلاصة الكلام أن "أنتينيا" تنقسم كما يلي: av –Ary –v´Ea –Ti ويخرج من هذا الشرح معنى الكلمة واضحاً وهو «أطلنت الجديدة».

ونظرت إلى "مورانج"، فإذا به في دهشة لا حد لها. لقد جعله في ذهول تام المقطع البربري «تي».

وأخيراً تمكن من أن يقول:

- وهل وجدت فرصة لتتحقق من صحة هذا الاشتقاق الماهر؟

فقال السيد "لميج" في ازدراء:

- ما عليك إلا أن تلقي نظرة على هذه الكتب.

وأخذ يفتح على التوالي خمسة فعشرة ثم عشرين صواناً، فتجمعت بين أيدينا مكتبة عجيبة.

فتمتم "موراج" في نبرة مليئة بالدهشة والإعجاب:

- كل شيء، كل شيء يوجد هنا.

فقال السيد "لميج":

- كل شيء جدير بأن يطلع عليه على الأقل. كل المؤلفات الكبيرة التي تأسف على فقدها البيئات العلمية الشهيرة.

- وكيف وجدت هنا؟

- يا سيدي العزيز إنك بهذا تؤلمني، وقد اعتقدت أنك على علم ببعض الأشياء. هل نسيت إذن النص الذي يتكلم عنه "بلينوس" القديم عن مكتبة قرطاجنة والكنوز التي كانت مجمعة فيها؟ لما سقطت المدينة في سنة ١٤٦ تحت ضربات "سيبيون" السافل لم تلاق هذه الكنوز إلا احتقاراً عميقاً من هذا الخليط الفريد من الأميين الذي كان يدعى مجلس الشيوخ الروماني، فأهداها إلى الملوك الوطنيين. وهكذا تلقى "مستنابال" هذا التراث العجيب، ونقله إلى أولاده وأحفاده، "هيمبسال" و"يوبا الأول" و"يوبا الثاني" زوج "كليوباترة سلينيه" العجيبة ابنة "كليوباترة العظيمة" و"مارك أنطوان". وأنجبت "كليوباترة سلينيه" بنتا تزوجت ملكاً أطلنطيا. وهكذا تعد "أنتينيا"، ابنة "نبتون"، ملكة مصر الخالدة من أجدادها. وهكذا بحقوق الميراث توجد الآن بين يديك بقايا مكتبة قرطاجنة مزودة ببقايا مكتبة "الإسكندرية".

«إن العلم يتهرب من الإنسان. فبينما هو يشيد أبراج "بابل" الضخمة تلك المدن التي هي قمة العلم مثل "برلين" و"لندن" و"باريس" اتخذ مكانه في هذا الركن الصحراوي من "الحجار". ولهم أن يفترضوا هناك افتراضاتهم عن فقدان مؤلفات العصور القديمة الغامضة. إن هذه المؤلفات لم تفقد. إنها ها هنا. هنا الكتب العبرية والكلدانية والآشورية. هنا التقاليد المصرية العظيمة التي أوحت إلى "سولون" و"هيرودوت" و"أفلاطون". هنا رواة الخرافات اليونانية ومشعوذو إفريقيا الرومانية، والخياليون الهنود. بالاختصار كل الكنوز التي يجعل فقدانها من بحوث المعاصرين أشياء ضئيلة مضحكة. صدقني! لقد ثأر لنفسه هذا الجامعي الصغير المتواضع الذي اعتقدوه مجنونا وسخروا منه. فقد عشت- وإني لأعيش ولسوف أحيا- وسط رنين متواصل من الضحك أمام معارفهم الخاطئة الناقصة. حتى بعد وفاتي سيستمر الخطأ بفضل الاحتياطات الشديدة التي اتخذها "نبتون" ليعزل حبيبته "كليتو" عن

سائر المعمورة. أصرح لك بأن الخطأ سيستمر متحكما في كتاباتهم التي تثير الإشفاق.

فقال "موراغ" بصوت رخيم:

- لقد أثبت تأثير "مصر" في مدنية سكان هذا المكان. ولأسباب- لعل الفرصة تتاح لي لأشرحها لك في يوم من الأيام- أطلب أن تثبت لي هذا التأثير.

فأجاب السيد "لميج":

- لا خطر لذلك.

وحينئذ تقدمت بدوري وقلت في لهجة شديدة:

- اسمح لي يا سيدي، إن لي كلمتين. لا أخفي عليك أن هذه المناقشات التاريخية تبدو لي في غير أوانها. وليس من خطئي أن تكون قد أصابتك بعض الكوارث الجامعية أو أنك لم تكن الآن في الـ"كوليج دي فرانس" أو في أي مكان آخر. ولا يهمني الساعة إلا شيء واحد، وهو أن نعرف ماذا نحن فاعلون هنا؟!... ماذا أنا فاعل هنا؟! واهتمامي بأن أعرف ماذا تريد مني هذه السيدة "أنتينيا"، يفوق كثيراً اهتمامي بالأصل اليوناني أو البربري لاسمها. إن زميلي يريد أن يعرف صلاتها بـ"مصر القديمة": هذا حسن جدا. ولكن من ناحيتي أنا أريد أن أقف بخاصة على العلاقات التي تربطها بحكومة "الجزائر" الرئيسية والمكاتب العربية.

فأطلق السيد "لميج" ضحكة مدوية وأجاب:

- سأوافيكما بجواب يرضيكما أنتما معًا.

وأضاف:

- اتبعاني... لقد آن لكما أن تعرفا.

الفصل العاشر

قاعة المرمر الأحمر

تبعنا السيد "لميج" فاجتزنا ما لا حصر له من الدرج والممرات.

وتمتمت إلى "موراغ":

- إننا نفقد شعور الاتجاه في هذا التيه.

فرد علي رفيقي في صوت خافت:

- إننا نفقد عقلنا بخاصة. إن هذا الشيخ المجنون عالم كبير بلا ريب، غير أن الله وحده

يعلم إلام يرمي؟! ولكنه قد وعدنا بأننا سوف نعرف.

كان السيد "لميج" قد توقف عن السير أمام باب كبير مغلق نقشت عليه إشارات غريبة وفتح الباب بعد أن فتح القفل وقال:

- أيها السيدان تفضلا.

ومست وجهينا نفحة نسيم باردة. كان الجو السائد في الحجرة التي دخلناها جو قبو حقا. ولم تسمح لي الظلمة أول الأمر أن أقدر تقديراً صحيحاً مساحتها. كانت الأضواء التي أرادوا أن تكون ضئيلة تتألف من اثني عشر مصباحاً نحاسيا ضخما تكوّن أعمدة مرتكزة على الأرض وترسل لهباً أحمر كبيراً. ولما دخلنا رجحت ريح الممر هذا اللهب فحرك لحظة فيما حولنا ظلالنا التي تضخمت وتشوهت بشكل غريب. ثم هدأت النسمة واستقام اللهب، وثبتت مرة أخرى في الظلمات مناقيرها الحمراء.

وكانت هذه المصابيح- الاثنا عشر- الضخمة (يبلغ كل منها ثلاثة أمتار في الارتفاع) مرتبة على هيئة تاج، قطره خمسة عشر متراً على أقل تقدير. وبدا لي في وسط التاج كومة مظلمة يتخللها ضوء أحمر مرتعش ولما دنوت منها تبينت نافورة. كان ماؤها البارد يحافظ على الجو الذي تحدثت عنه.

كانت هناك مقاعد ضخمة طبيعية، نحتت في الصخرة المتوسطة حيث كانت تتدفق النافورة المظلمة ذات الخرير، وكانت على المقاعد وسائد حريرية. وكان اثنا عشر مصباحاً أخرى ترسم في وسط التاج ذي اللهب الأحمر تاجاً آخر قطره نصف الأول. لم نكن نرى في الظلمة دخانها يتصاعد نحو القبوة. غير أن هذه الأضواء المتهافتة بامتزاجها مع برودة الماء وخريره كانت تقتل في النفس كل رغبة غير رغبة المكوث هنا إلى الأبد.

وأجلسنا السيد "لميج" في وسط القاعة على المقاعد الضخمة واتخذ هو لنفسه مكاناً بيننا، وقال:

- ستعتاد أعينكما الظلمة بعد لحظات.

ولاحظت أنه يتكلم بصوت خافت كأنما هو في معبد.

وقد أخذت أعيننا شيئاً فشيئاً تعتاد بالفعل هذا الضوء الأحمر. لم يكن مضاء من الحجرة إلا الجزء الأسفل منها.

كان القبو غارقاً في الظلام، ولا يستطيع أحد أن يقدر مدى ارتفاعه. ولمحت في غموض، فوق رءوسنا، ثريا كبيرة ينعكس على ذهبها كما ينعكس على سائر الأشياء ضوء خافت أحمر. ولكن لم يكن ثمة شيء يسمح بتقدير طول السلسلة الحديدية التي تعلقها بالسقف المظلم.

كان البلاط المرمري براقاً، حتى لقد كانت المشاعل الكبيرة تنعكس عليه.

وأكرر أن هذه القاعة كانت مستديرة استدارة تامة، وكان قطرها مثل قطر النافورة التي كنا نوليها ظهورنا.

كنا إذن نواجه الجدران المستديرة. ولم يمض إلا قليل حتى صارت هذه الجدران قيد أنظارنا. ها هو ذا ما كان يجعل هذه الجدران عجيبة أخاذة: كانت مقسمة إلى كوى مظلمة متتالية تكون خطا أسود لا يقطعه إلا هذا الباب الذي فتح ليسمح لنا بالمرور، وباب آخر كان خلفنا كأنه حفرة أكثر سواداً، لمحته في الظلام حين استدرت. وقد أحصيت ستين كوة فيما بين البابين، فيكون مجموعها مائة وعشرين كوة. ويبلغ ارتفاع كل منها نحو ثلاثة أمتار، وعرضها متراً. وكل منها تحتوي على ما يشبه الصندوق أعلاه أعرض من أسفله ومغطى في جزئه الأسفل فقط. وقد بدا لي في هذه الصناديق كلها ما عدا اثنين في تجاهي، شكل لامع ذو هيئة بشرية بلاشك، شيء أشبه بتمثال من نحاس باهت. وأحصيت في قوس الدائرة أمامي ثلاثين من هذه التماثيل.

ما هي هذه التماثيل؟ أردت أن أتبين أمرها فنهضت.

ووضع السيد "لميج" يده على ذراعي وقال بصوت خافت:

- بعد قليل. بعد قليل.

كانت نظرات السيد "لميج" مسددة نحو الباب الذي دخلنا منه والذي كنا نسمع من ورائه الآن وقع خطوات أخذت تزداد وضوحا.

وفتح الباب في صمت، فُسح الطريق لثلاثة طوارق بيض يحمل اثنان منهم على عاتقيهما لفة طويلة، وبدا لي أن الثالث هو الرئيس.

وضعا اللفة على الأرض حسب تعليماته، وأخرجا من إحدى الكوات التي تكلمت عنها، الصندوق الطويل الذي تحتوي كل كوة على واحد مثله.

وحينئذ قال لنا السيد "لميج":

- يمكنكما أن تقتربا أيها السيدان.

وبإشارة منه تراجع الطوارق الثلاثة بعض الخطوات.

وقال السيد "لميج" مخاطباً "مورانج":

- لقد طلبت إلي منذ هنيهة أن أقدم لك دليلا على الأثر المصري في هذه البلاد. فماذا ترى في هذا الصندوق أولا؟

وأشار وهو يقول هذه الكلمات إلى الصندوق الذي كان الخدم قد أنزلوه على الأرض بعد أن أخرجوه من كوته.

فأرسل "مورانج" صوت دهشة مكتومة.

فقد كان أمامنا أحد هذه الصناديق المخصصة لحفظ الموميات. الخشب اللامع نفسه. والألوان الصارخة نفسها، مع هذا الفارق البسيط وهو أن الحروف التيفينارية حلت محل الحروف الهيروغليفية.

وكانت في هيئتها بضيقها من أسفل واتساعها من أعلى كافية لأن تنبئنا بما هيئت له.

لقد سبق أن قلت إن الجزء الأسفل لهذا الصندرق الكبير مغطى مما جعله كشكل حذاء مستطيل.

وجثا السيد "لميج" ووضع على الجزء الخارجي من الصندوق مستطيلا من الورق الأبيض المقوَّى، وهو بطاقة عريضة كان قد أخذها من على مكتبه منذ لحظات حين كان يزايل المكتبة.

وقال في بساطة ولكن في خفوت كعادته:

– يمكنكما أن تقرآ.

فجثوت أنا أيضاً؛ إذ كان ضوء الشمعدانات الكبيرة لا يسمح بقراءة البطاقة إلا بصعوبة، ولكني تبينت خط الأستاذ. كانت البطاقة تحمل هذه الكلمات البسيطة بخط كبير مستدير:

« رقم ٥٣ . الميجر سير "أرشيبيلد راسل". ولد في "ريشموند" يوم ٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ توفي في "الحجار" يوم ٣ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨٩٦ .

فوثبت قائماً وصحت:

– الميجر "راسل"؟

فقال السيد "لميج":

– خفض من صوتك! خفض من صوتك! ليس لامرئ أن يرفع صوته هنا.

فكررت وأنا أطيع هذا الأمر بالرغم مني:

– الميجر "راسل" الذي رحل في السنة الماضية من "الخرطوم" ليستكشف الـ"سوكوتو"؟

فقال الأستاذ:

– هو بعينه.

– وأين الميجر "راسل"؟

فأجاب "لميج":

– إنه هنا.

وأتي الأستاذ بحركة، فاقترب الطوارق البيض.

وأطبق صمت رهيب على الحجرة الغامضة لا يعكره إلا خرير النافورة. وأخذ السود الثلاثة

يحلون رباط اللفة التي كانوا قد وضعوها حين دخولهم بالقرب من الصندوق الملون. كنا نشهد ما يجري وقد أثقل كواهلنا رعب لا يوصف.

وبعد قليل ظهرت هيئة متخشبة، هيئة بشرية وسطع عليها بريق أحمر. فقد تمدد على الأرض أمامنا تمثال من البرنز الشاحب ملفوف في حرير أبيض، كان تمثالا مثل باقي التماثيل الجامدة في كواتها، والتي تبدو كأنها تنظر إلينا نظرة لا ندرك لها كنها.

وتمتم السيد "لميج" ببطء:

- السيد "أرشيبلد راسل".

واقترب "مورانج" صامتاً، ومكنته قواه من أن يرفع النقاب الحريري وحدق طويلا إلى التمثال البرنزي الكئيب.

ثم قال:

- مومياء، مومياء. إنك مخطئ يا سيدي ليس هذا بمومياء.

فأجاب السيد "لميج":

- لا... ليس هذا بمومياء على أصح تعبير. ولكنها فعلا جثة سير "أرشيبلد راسل" التي هي بين أيديكما. ويجب علي- فعلاً. يا سيدي العزيز- أن ألفت نظرك إلى أن طرق التحنيط المتبعة عند "أنتينيا" تختلف عن الطرق التي كانت تستعمل في مصر القديمة. هنا لا يستعمل النطرون ولا الشرائط ولا الروائح العطرية. لقد بلغت صناعة "الحجار" دفعة واحدة حدا لم تبلغه العلوم الأوربية إلا بعد تجارب طويلة. وما كان أشد دهشتي حين وصلت إلى هنا ولاحظت أنهم يتبعون طريقة كنت أعتقدها معروفة فقط للعالم المتمدن وحده.

وضرب السيد "لميج" بسبابته المنثنية ضربة خفيفة على جبهة سير "أرشيبلد راسل" الكابية، فدوى رنين معدني.

فتمتمت:

- إنه برنز. ليست هذه بجبهة بشرية. إنها برنز.

فهز السيد "لميج" كتفيه وأكد في لهجة قاطعة:

- إنها جبهة بشرية لا برنز. إن البرنز أشد قتامة يا سيدي.

هذا المعدن هو المعدن المجهول الذي يتحدث عنه "أفلاطون" في الـ"كريسياس" والذي يحتل مكاناً وسطاً بين الذهب والفضة. إنه المعدن الخاص بجبل الأطلنطيد. إنه الـ"أوريشلك".

فزدت في انحنائي فتحققت من أن هذا المعدن هو المعدن نفسه الذي يغطي جدران المكتبة. استمر السيد "لميج" قائلا:

- إنه الـ"أوريشلك". يخيل إلي أنكما لا تدركان كيف يمكن أن يبدو جسد بشري على هيئة تمثال من الـ"أوريشلك". كابتن "مورانج"، أنت الذي كنت أعتقد أنك على بعض علم، ألم تسمع قط عن طريقة الدكتور "فاريو" لحفظ الجثث بدون تحنيط؟ ألم تقرأ قط كتاب(١) هذا الطبيب؟ إنه يبسط فيه طريقة الطلاء بالكهرباء. حيث تغطى الأنسجة الجلدية بطبقة خفيفة جداً من أملاح الفضة لجعلها موصلا للكهرباء. ثم تغمس الجثة في محلول كبريتات النحاس، ثم تفعل الكهرباء فعلها. وقد تم طلاء جثة هذا الميجر الإنجليزي المحترم بالطريقة نفسها. إنها الطريقة عينها مع استبدال "كبريتات الأوريشلك" المعدن النادر بكبريتات النحاس. وهكذا تريان بدل تمثال حقير من النحاس تمثالا من معدن أثمن من الذهب والفضة، وباختصار إنه تمثال جدير بحفيدة "نبتون".

وأبدى السيد "لميج" حركة، فأمسك العبيد السود بالجثة. وفي لحظة وضعوا الشبح الأوريشلكي في صندوقه الخشبي الملون. وأوقفوا الصندوق ووضعوه في الكوة بجانب كوة أخرى حيث يحمل صندوق آخر شديد الشبه به البطاقة رقم ٥٢ .

وبعد أن انتهوا من عملهم، انسحبوا دون أن ينبسوا ببنت شفة. وعاد هواء الباب البارد فرجح لهيب المشاعل النحاسية وجعل أشباحا كبيرة تتراقص حولنا.

ظللنا "مورانج" وأنا جامدين مثل الأشباح التي من المعدن الشاحب المحيطة بنا. وفجأة بذلت مجهوداً واقتربت وأنا أترنح من الكوة المجاورة لتلك التي وضعت فيها رفات الميجر الإنجليزي، وبحثت عيناي عن البطاقة رقم ٥٢ واستندت إلى مرمر الجدار الأحمر فقرأت:

« رقم ٥٢ . الكابتن "لوران دليني". ولد في "باريس" يوم ٢٢ يوليو (تموز) سنة ١٨٦١ . توفي بـ"الحجّار" يوم ٢٠ كتوبر (تشرين الأول) عام ١٨٩٦ ».

فتمتم "مورانج":

- الكابتن "دليني" رحل عام ١٨٩٥ من "كولومب بيشار" إلى "تيميمون" ثم انقطعت أخباره.

فقال السيد "لميج" وقد أبدى حركة من رأسه تدل على الموافقة:

- بالضبط.

وقرأ "مورانج" وأسنانه تصطك:

« رقم ٥١ . الكولونيل "فون ويتمان". ولد في "يينا" عام ١٨٥٥ . توفي بـ"الحجّار" في أول مايو (أيار) سنة ١٨٩٦ ». الكولونيل "ويتمان" مستكشف "كانم"، اختفى في ناحية "أجاديس".

(١) فاريو: "طلاء البشر بالكهرباء" باريس ١٨٩٠ (تعليق السيد "لورو").

وقال السيد "لميج" مرة أخرى:

– بالضبط.

وقرأت بدوري وأنا متعلق بالجدار حتى لا أسقط:

« رقم ٥٠ . المركيز "أولنز دوليفيرا". ولد في "قادس" يوم ٢١ فبراير (شباط) سنة ١٨٦٨ توفي بـ"الحجار" في أول فبراير (شباط) سنة ١٨٩٦ ». أوليفيرا الذي كان يتجه نحو أروان.

واستمر السيد "لميج" يقول:

– بالضبط. كان هذا الإسباني من العلماء المجدين، وكانت لي معه مناقشات مسلية عن المركز الجغرافي الحقيقي لمملكة "أنتينيا".

وقال "مورانج" وقد أصبح صوته همساً:

« رقم ٤٩ . الملازم "وودهاوس". ولد في "ليفربول" يوم ١٦ سبتمبر (أيلول) عام ١٨٧٠، توفي في الـ"حجّار" يوم ٤ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٨٩٥ ».

فقال السيد "لميج":

– إنه يكاد يكون طفلا.

وقلت:

« رقم ٤٨ . الملازم "لويس دي مايفو". ولد في "بروفانس" في يوم.... ».

لم أتمم القراءة إذ اختنق صوتي من الانفعال.

"لويس دي مايفو" أعز أصدقائي، صديق طفولتي في "سان سير" وفي كل مكان. ونظرت إليه وعرفته تحت الطبقة المعدنية. "لويس دي مايفو"!....

وأخذت أبكي طويلا وجبهتي ملصقة بالجدار البارد وكتفاي ترتعدان. وسمعت صوت "مورانج" المضطرب وهو يخاطب الأستاذ:

– يا سيدي! إن هذا المنظر قد دام مدة كافية؛ فلننته منه.

فقال السيد "لميج":

– إنه أراد أن يعرف. فماذا أفعل؟

ودنوت منه وأمسكت بكتفيه:

– كيف أتى إلى هنا؟ وبأي شيء مات؟

فأجاب الأستاذ:

– كما مات الآخرون، كما مات الملازم "وودهاوس"، وكما مات الكابتن "دليني" والميجر "راسل"، والكولونيل "فون ويتمان"، والسبعة والأربعون بالأمس وكما سيموت غيرهم غداً.

فقال "مورانج" بدوره في لهجة آمرة:

- وبأي شيء ماتوا؟

ونظر الأستاذ إلى "مورانغ" . ورأيت لون صديقي يعروه الشحوب .

- بأي شيء ماتوا ياسيدي؟ «لقد ماتوا حبا» .

وأضاف في صوت أجش خافت :

- والآن قد عرفتما .

وأبعدنا السيد "لميج" عن نظرات التماثيل الجامدة في رقة وعناية . . . لم نكن لنعهد فيه هذا . وما هي إلا لحظة حتى ألفينا نفسينا، أنا و"مورانغ" ، جالسين أو بالأحرى متهالكين بين الوسادات في وسط القاعة . وكانت أنين شكاية تتردد تحت أقدامنا .

كان السيد "لميج "بيننا . فعاد يقول :

- والآن قد عرفتما . . . لقد عرفتما، غير أنكما لما تفهما .

ثم في صوت جد بطيء أرسل هذه الكلمات :

- إنكما أسيرا "أنتينيا" كما كانوا . لـ"أنتينيا" أن تثأر لنفسها .

فقال "مورانغ" وقد عاوده الهدوء :

- تثأر لنفسها! ولماذا من فضلك؟ ماذا فعلنا- الملازم وأنا- للأطلنطيد؟ وكيف أحفظناها؟

فأجاب الأستاذ في تجهم :

- ثأر قديم . . . قديم جدا . . . . إنه ثأر لا يمكن أن تدرك كنهه يا سيد "مورانغ" .

- أرجو أن توضح ما تقول يا سيدي الأستاذ .

وقال السيد "لميج" بصوت يخالطه التفكير :

- إنكما الرجال، وهي المرأة . . . . المسألة هنا .

- حقا يا سيدي لست أفهم . لسنا نفهم جيداً .

- ستفهمان . . . أنسيتما حقا إلى أي حد كانت ملكات البرابرة الجميلات يشكون من الأجانب الذين دفعتهم الأقدار إلى بلادهن؟ لقد عبر "فيكتور هوجو" الشاعر على وجه التحقيق عن أفعالهم الكريهة في مقطوعته المسماه "ابنة أوتايتي" . ومهما يكن من إيغال ذكرياتنا في الماضي فإننا لا نرى إلا ضروباً متماثلة من الاغتصاب والجحود . كان هؤلاء السادة يستغلون جمال السيدة وثروتها إلى حد بعيد، ثم يختفون في يوم ما . وتكون هي سعيدة إن لم يعد هذا المخلوق بسفن وقوات للاحتلال .

فقال "مورانغ" :

- إن علمك يدهشني . استمر .

– أتريد أمثلة؟ إنها كثيرة جدا مع الأسف. تذكر المعاملة الجافية التي عامل بها "أوليس كاليبو"، و"ديوميد كاليروييه". وماذا تقول فيما صنع "ثيسيوس" مع "أريان"؟ كان "جازون" مع "ميديه" مستهتراً كل الاستهتار. وقد انتهج الرومان هذه العادات ولكن بوحشية أكثر. أما "إينيوس" الذي يشبه كثيراً "سبارديك" المحترم، فقد عامل "ديدون" معاملة جد قبيحة؛ وكان قيصر لـ"كليوباترة" كأنه وحش قذر. وأخيراً "تيتس"، "تيتس" المنافق، بعد أن قضى سنة في "إيدوميا" عالة على "بيرينيس"، ألم يعد بها إلى "روما" لينكل بها أعنف التنكيل؟ لقد حان الوقت ليؤدي أولاد "يافث" إلى بنات "سام" هذا الدين الضخم المؤجل من الإهانات.

«لقد وقفت امرأة لتبعث لصالح بنات جنسها قانون "هيجل" الكبير الخاص بالذبذبات. وهي في معزلها عن عالم الآريين بفضل احتياطات "نبتون" الهائلة، وتجذب إليها الرجال الشبان الأقوياء. فجسدها قريب ميسور، ولكن روحها بعيدة عسيرة. وهي تأخذ من هؤلاء الشبان الشجعان كل ما يستطيعون أن يبذلوه. إنها تبذل لهم جسدها ولكنها تسيطر عليهم بروحها. إنها أول ملكة لم يستعبدها الحب ولو لحظة واحدة. لم يحدث قط أن استعادت سلطانها لأنها لم تستسلم قط. إنها المرأة الوحيدة التي نجحت في التفريق بين هذين الشيئين الذي لا فارق بينهما: الحب والشهوة.

وسكت السيد "لميج" هنيهة ثم قال:

– إنها تأتي مرة كل يوم إلى هذه المقبرة، وتقف أمام هذه الكوى، وتفكر أمام هذه التماثيل الجامدة، وتلمس هذه الصدور الباردة التي عرفتها ملتهبة. ثم بعد أن تحلّق حالمة حول الكوة الفارغة حيث سيرقد قريباً وإلى الأبد شخص في غلافه الأوريشلكي البارد، تعود في غير ما اكتراث إلى من ينتظرها.

وتوقف الأستاذ عن الكلام. وسمع صوت النافورة مرة أخرى في وسط الظلمة. كان نبضي يدق ورأسي يغلي. كنت أشعر بحمى شديدة. وصحت:

– وكلهم... كلهم... غير مكترثين بالمكان، رضوا، أطاعوا... آه... فلتأت وسترى.

كان "مورانج" قد لزم الصمت. ثم قال السيد "لميج" في صوت رقيق:

– يا سيدي العزيز! إنك تتكلم كالأطفال. إنك لا تعرف شيئاً. إنك لم تر "أنتينيا". فلتقل لنفسك هذا: إنه كان بين هؤلاء– وبحركة مستديرة أشار إلى كل التماثيل الصامته– رجال شجعان مثلك، ولربما كانوا أقل اضطراباً منك. أحدهم وهو الذي يرقد تحت البطاقة رقم ٣٢، كان– وإني أذكر جيداً– إنجليزيا بارداً، كان يدخن سيجارة لما ظهر أمام "أنتينيا" وانحنى يا سيدي العزيز كالآخرين أمام نظرات سيدته.

«لا تتكلم مادمت لم ترها. إن المركز الجامعي يسمح قليلا بأن نتنافس في الحب. وسأكون متكلفاً لو أخبرتك من هي "أنتينيا". إني أؤكد لك هذا فقط: وهو أنك عندما تراها ستنسى كل شيء: الأسرة، الوطن، الشرف، كل شيء ستنكر كل شيء من أجلها".

وسأل "مورانخ" بصوت هادئ جدا:

– كل شيء يا سيدي؟

فأكد السيد "لميج" بقوة:

– كل شيء. ستنسى كل شيء. ستنكر كل شيء.

وارتفع من جديد صوت ضجة خفيفة.

فنظر السيد "لميج" في ساعته وقال:

– على كل حال ستريان.

وفتح الباب ودخل أبيض طارقي ضخم، أضخم ممن رأيناهم في هذا المنزل المخيف. دخل واتجه نحونا.

ولمس ذراعي في خفة بعد أن انحنى.

فقال السيد "لميج":

– اتبعه يا سيدي.

فأطعت دون أن أنبس ببنت شفة.

الفصل الحادي عشر

"أنتينيا"

واجتزنا– أنا ورائدي– ممرا آخر. وأخذ اضطرابي الشديد يتزايد. لم أكن متعجلا إلا لأقف أمام هذه المرأة، لأقول لها... وعلى كل حال كنت قد ضحيت بحياتي.

كنت مخطئاً إذ رجوت أن أرى هذه المغامرة تأخذ مظهر البطولة؛ ليست أنواع المغامرات في الحياة محددة. كان يجب أن أتذكر بوساطة عدة تفاصيل مضت، أن المهزلة تمتزج في هذه المغامرة بانتظام مع المأساة.

ولما وصلنا أمام باب صغير أبيض انزوى رائدي ليسمح لي بالدخول.

فألفيت نفسي في أترف قاعات الزينة. كان السقف من الزجاج المشطوف يرمي على

الأرض المرمرية ضوءا ورديا ذا بهجة. وكان أول ما رأيت ساعة معلقة على الحائط وقد استبدلت بأرقامها أبراج فلكية. كان العقرب الصغير لما يصل إلى برج الحمل....

الساعة الثالثة. الثالثة فقط.

كان النهار قد بدا لي طويلا كأنه قرن... ولم أكن قد قضيت منه إلا ما يزيد قليلا على نصفه.

ثم جالت بخاطري فكرة أخرى، وهزتني ضحكة عصبية «إن "أنتينيا" تريد أن أقدِّم لها بكل محاسني».

وثمة مرآة من الـ"أوريشلك" تحتل ركنا كاملاً من الحجرة. وإذ ألقيت نظرة عليها تحققت أن زعمي لم يعد الواقع.

كانت لحيتي الشعثة والطبقة البشعة من الأوساخ التي تحيط بعيني وتنحدر في قنوات على خدي، وملبسي الذي لطخ بجميع أنواع الطين الصحراوي ومزق بجميع أنواع أعشاب "الحجار" - كل هذا جعل مني فارساً بائساً جدًّا.

فبادرت بخلع ملابسي والنزول في الحوض المرمري الذي يتوسط حجرة الزينة. واعتراني تخدير لذيذ في الماء المعطر الدافئ، وتراقصت أمامي نحو ألف من الآنية الصغيرة التي كانت منتثرة على منضدة الزينة الخشبية المحفورة. كانت الأواني من جميع الأحجام والألوان منحوتة من حجر شبيه باليشب الشفاف للغاية. وهدأت رطوبة الجو اللذيذة من ثورة أعصابي، واستطعت أن أحدث نفسي قائلا:

- ليأخذ الشيطان الأطلنطيد والمقبرة والسيد "لميج".

وغفوت وأنا أستحم.

ولما فتحت عيني من جديد كان عقرب الساعة الصغير قد بلغ برج الثور أو يكاد. وكان يقف أمامي عبد ضخم عاري الوجه والذراعين، وعلى جبهته عمامة ضخمة برتقالية اللون. كان يضع يديه السوداوين على حافة الحوض وينظر إلي وهو يضحك ضحكة صامتة تكشف عن أسنانه البيض جميعاً.

- وما هذا الشخص الفريد؟

فازداد العبد ضحكاً. وفي صمت أمسك بي ورفعني كأني ريشة إلى خارج الماء المعطر الذي أصبح في لون لا أحب أن أخبرك به.

وفي لمحة بصر وجدت نفسي ممدداً على منضدة مائلة من المرمر وأخذ العبد يدلكني بقوة.

- آه، مهلا يا حيوان!

لم يرد علي مدلكي، ولكنه أخذ يضحك ويدلكني تدليكاً أقوى.

- من أين أنت؟ من الـ"كانم"؟ من "بركو"؟ لست طارقيا لأنك تضحك كثيراً.

الصمت نفسه. كان هذا العبد أبكم بقدر ما هو ضحوك.

وقلت لنفسي في يأس:

- على كل حال هذا غير مهم. إني أجده أظرف من السيد "لميج" بعلمه الثقيل. يا لله! ياله من غنيمة عظيمة لحمام شارع الـ"ماتورين"!

- سيجارة يا سيدي.

وأدخل في فمي سيجارة وأشعلها دون أن ينتظر جوابي، وأخذ يكبسني من كل جانب. فقلت في نفسي:

- إنه قليل الكلام ولكنه مؤدب.

وأرسلت في وجهه نفخة دخان.

ويدا لي أن هذه الدعابة قد راقته، سرعان ما أظهر سروره بأن منحني ضربات قوية.

ولما انتهى من تدليكي كما ينبغي تناول من منضدة الزينة إناء صغيراً وجعل يدهن جسمي بدهن وردي، فخيل إلي أن الإعياء قد زايل أعضائي التي عاد إليها نشاطها.

وعند ضربة من مقرعة على جرس نحاسي اختفى مدلكي، ودخلت زنجية عجوز قصيرة القامة تغطي جسمها بأقمشة ذات ألوان صارخة، كانت ثرثارة جدًّا. ولكن لم أفهم في بادئ الأمر كلمة واحدة من الكلام الذي لا نهاية له والذي كانت تلقيه في سرعة عجيبة، وقد استحوذت على يدي ثم قدمي وأخذت تصقل أظافرها وعلى وجهها عبوس جاد.

ورن الجرس مرة أخرى، فأخلت الزنجية مكانها لعبد آخر، مظهره جدي عليه ثياب بيض، ويضع على رأسه المستطيل طاقية من القطن المنسوج. وكان هو الحلاق. كان صناعاً. وأسرع في قص شعري قصا حسناً جداً، ثم حلق لحيتي كلها دون أن يسألني إذا ما كنت أفضل حلقة بعينها؟

فتأملت في سرور وجهي الذي بدا واضحاً تمام الوضوح، وقلت لنفسي:

- لابد أن تكون "أنتينيا" تستطيب النوع الأمريكي... إنها إهانة تلحقها بذكرى جدها الوقور "نبتون"!

ودخل العبد المرح في اللحظة نفسها ووضع ربطة على الأريكة واختفى الحلاق. فأخذني بعض الدهش؛ إذ لاحظت أن الربطة التي حلها بعناية خادمي الجديد كانت تحتوي على رداء من الصوف الأبيض يشبه كل الشبه الرداء الذي يلبسه الضباط الفرنسيون في الجزائر في الصيف.

وبدا السروال الواسع اللين كأنه صنع خصيصاً لي. وكانت السترة خالية من العيوب، وكانت تحمل (وهذا ما ملأني دهشاً) شريطين متحركين من الذهب- وهي علامة رتبتي العسكرية- مثبتين بخيوط مجدولة على كل جانب من الكمين. ولقدمي زوجان من "البابوج" من الجلد المراكشي الأحمر مطرزان بالذهب. وخيل إلي أن الملابس الداخلية الحريرية قد أحضرت رأساً من شارع "لابيه".

فتمتمت وأنا أتأمل نفسي راضياً في المرآة:

- كان العشاء لذيذاً والمسكن منظما للغاية. نعم! ولكن هناك أشياء أخرى. ولم أتمكن من آن أوقف رعدة بسيطة عندما فكرت في أول مرة في قاعة المرمر الأحمر. دقت الساعة الخامسة والنصف في اللحظة نفسها.

وطرق بابي في خفة وظهر على العتبة الطارقي الأبيض الضخم الذي كان يقودني.

وتقدم مني ولمسني مرة أخرى وأومأ إلي فتبعته.

وعدنا فأخذنا طرقات طويلة. كنت منفعلا ولكني كنت قد لمست شيئاً من الطمأنينة من الماء الدافئ. وكنت أشعر بفضول أخذ يزداد كثيراً جداً أكثر مما كنت أعترف به لنفسي. هل كنت أقبل في تلك اللحظة لو أنه عرض علي أن أقاد مرة أخرى حتى طريق السهل الأبيض بالقرب من "شيخ صلاح"؟ لا أظن ذلك.

وأخذت أؤنب نفسي على هذا الفضول. والآن هو هناك في قاعة المرمر الأحمر. ولم أجد من الوقت ما يسمح لي بإطالة هذه الذكرى. وفجأة كأن صخرة دفعتني ارتميت أرضاً. وكان الممر مظلما فلم أر شيئاً، ولكني سمعت صيحة استهزاء.

كان الطارقي الأبيض قد انزوى جانباً وقد ألصق ظهره بالجدار.

فتمتمت وأنا أنهض

- حسن... ها هي ذي ألعاب الشياطين تبدأ.

وتابعنا طريقنا، وبعد قليل أخذ وميض غير وميض المصابيح الوردية يضيء الممر.

وهكذا وصلنا إلى باب عال من البرنز تتخلله هنا وهناك ثقوب مضيئة. ورن جرس رنيناً واضحاً، ففتح المصراعين وأغلقهما خلفي الطارقي الذي بقي في الممر.

وخطوت بطريقة آلية بضع خطوات في القاعة التي دخلتها منفرداً ثم توقفت جامدا في مكاني ويدي على عيني.

لقد بهرني ضوء النهار الذي طلع علي.

كان قد مضى علي من الساعات العديد في الأضواء المتهافتة ما جعل ضوء النهار، الذي كان يدخل قويا من أحد جوانب القاعة، علي غريباً.

كانت القاعة تقع في الجزء الأسفل من الجبل. وتتعرج فيها ممرات ومماش أكثر مما نجده في هرم مصري. كانت تبدو كأنها تتمة الحديقة التي كانت في مستواها والتي رأيتها في الصباح من نافذة المكتبة. كان الانتقال غير ملموس. فبينما كانت البسط تمتد تحت النخيل العالي كانت الطيور تحلق بين أعمدة القاعة التي تشبه الغابة.

وكان التباين يسبغ عليها ظلمة في الجزء الذي لا يسقط فيه ضوء الواحة. وكانت الشمس وهي تنحدر في أفولها وراء الجبل تضفي لوناً ورديا على حصى الممرات ولوناً أحمر كالدم على تمثال الطير المقدس الذي على شاطئ البركة الصغيرة الزرقاء، رافعا إحدى قدميه. وفجأة للمرة الثانية تدحرجت على الأرض. كان جسم ثقيل قد سقط على كتفي، وشعرت بملمس حريري على عنقي، وتنفس حار على قفاي، ودوى من جديد في اللحظة نفسها صوت الاستهزاء الذي أقلقني إلى الغاية في الممر.

وتخلصت بحركة جانبية، وضربت بيدي في الهواء تجاه المعتدي علي. دوى صوت مرة أخرى معبراً عن الألم والغضب هذه المرة.

وكان صداه ضحكة طويلة. فنهضت واقفاً باحثاً بعيني عن هذا السفيه لأنتقم منه. وحينئذ جمد نظري. جمد تماما.

كانت "أنتينيا" أمامي.

وفي أقل أركان القاعة ضوءاً، وكان ثمة ما يشبه القبو الذي كان يسطع فيه ضوء صناعي بنفسجي يسّاقط من الاثنتي عشرة نافذة ذات الزجاج الملون، كانت أربع نساء مضطجعات على كومة من الوسائد الملونة والبسط الفارسية البيضاء الثمينة.

فعرفت في الثلاث الأول نساء طوارق ذوات جمال رائع، حسان القسمات يرتدين قمصاناً من الحرير مزركشة بالذهب. وكانت الرابعة وهي خمرية اللون أقرب إلى السواد، أصغرهن سنا، وكان قميصها الحريري الأحمر يزيد من لون وجهها وذراعيها وقدميها العاريتين. كانت النساء الأربع جميعهن يحطن بهذا البرج من البسط البيضاء التي يعلوها جلد أسد ضخم كانت تتكئ عليه "أنتينيا".

"أنتينيا"! ما من مرة رأيتها إلا ساءلت نفسي هل أمعنت النظر إليها؟ لأني كنت كلما رأيتها اعتراني الاضطراب؛ إذ أراها أحسن مما كنت رأيتها من قبل. "أحسن"! كلمة فقيرة. ولغة فقيرة، ولكن أهذا ذنب اللغة أم ذنب من يتشدقون بهذه الكلمة؟

ما من أحد يستطيع أن يمثل في حضرة هذه المرأة دون أن يتذكر من أخضع لها "إفراكتوس" الأطلس، ومن اغتصب لها "صابور" الحكم من "أوزيموندياس"، ومن نكل لها "ماميلوس سوز" و"تنترس"، ومن هرب بسببها "أنطوان"...

أيها القلب البشري الخفاق! لئن كان وجيبك قد اشتد فلقد كان ذلك حين معانقتها المتسامية الحارة.

كان المنديل المصري يتدلى على خصل شعرها الكثيفة الزرقاء لشدة سوادها. وكان طرفا هذا القماش الثقيل المزركش يتدليان على متنها إلى أعلى ردفيها الثقيلين.وكان يكتنف جبهتها الصغيرة المقببة العنيدة ثعبان ذهبي ذو عينين من الزمرد مخرجاً فوق رأس المرأة الشابة لسانه المزدوج من الياقوت.

كانت ترتدي قميصاً أسود مزركشا بالذهب رقيقاً فضفاضاً يجمعه- قليلا- وشاح حريري أبيض، مطرز باللؤلؤ الأسود.

هكذا كان رداء "أنتينيا". أما هي... فماذا كانت تحت هذا اللباس الفتان؟ كانت فتاة هيفاء ذات عينين واسعتين خضراوين ووجه كوجه باز صغير، كأنما هي "أدونيس" أو ملكة "سبأ" طفلة. ولكن كانت لها نظرة وابتسامة لم تعهد قط في امرأة شرقية: فهما آيتان من السخرية وقلة الاكتراث. أما جسم "أنتينيا"، فما كنت أراه. حقا أن هذا الجسم الرائع ما كنت لأفكر في النظر إليه حتى لو أحسست بالقوة في نفسي على ذلك. ولعل هذا هو أغرب ما شعرت به في أول مرة. ومجرد التفكير في ضحايا قاعة المرمر الأحمر، في الخمسين شابا الذين احتضنوا هذا الجسم النحيف، كان في نظري، في تلك اللحظة التي لا تنسى،من أشد الأشياء انتهاكاً للحرمات.

ورغم قميصها المفتوح في اجتراء على جانبها، وثدييها المكشوفين، وذراعيها العاريتين وتلك الظلال الغامضة التي تتراءي تحت خمارها، كانت هذه المرأة، رغم ما يسند إليها من فظائع، قد نجحت في أن تبدو طاهرة، بل عذراء.

كانت في هذه اللحظة مغرقة في الضحك الذي استولى عليها حينما تدحرجت على الأرض بين يديها.

ونادت:

- "هيرام الملك"...

فالتفت ورأيت خصمي.

على تاج أحد الأعمدة، وعلى ارتفاع ستة أمتار من الأرض كان يتعلق فهد جميل جدا، تدل نظراته على شدة الغضب من اللكمة التي صوبتها نحوه.

فكررت "أنتينيا" نداءها:

- "هيرام الملك"! تعال هنا.

فوثب الحيوان كأنه "زنبرك"، فصار في تلك اللحظة رابضاً تحت قدمي سيدته. ورأيت

لسانه الأحمر يلعق عرقوبيها الدقيقين العاريين.

وقالت المرأة الشابة:

- سل السيد المغفرة.

فنظر إلي الفهد نظرة حقد: تغضن جلد وجهه الأصفر حول شاربه الأسود.

ثم عوى كما يعوي ذئب كبير.

فقالت "أنتينيا" بحزم:

- هلم!

فزحف الحيوان الصغير نحوي آسفاً. وفي انكسار وضع رأسه بين قدميه وانتظر.

فربت جبهته الجميلة.

وقالت "أنتينيا":

- يجب ألا تحقد عليه. إنه هكذا مع الغرباء في أول الأمر.

فقلت ببساطة:

- لابد أن يضجر كثيراً.

كانت هذه أول كلماتي؛ فبعثت ابتسامة على شفتي "أنتينيا". وحدجتني بنظرة طويلة هادئة، ثم قالت مخاطبة إحدى النساء الطوارق:

- "عجيدة" ستعدين خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً لـ"صغير بن شيخ".

وسألتني بعد لحظة صمت:

- هل أنت ملازم؟

- نعم.

- من أين أنت؟

- من "فرنسا".

فقالت في تهكم:

- كنت أستطيع الشك في ذلك. ولكن من أية مقاطعة في "فرنسا"؟

- من مقاطعة تسمى الـ"لوت وجارون".

- من أي مكان في هذه المقاطعة؟

- من "دوراس".

ففكرت لحظة:

- "دوراس". يجري هناك نهير يدعى "الدربت" ويوجد قصر كبير عتيق.

فتمتمت في دهشة:

- أتعرفين "دوراس"؟

فاستمرت قائلة:

- يصلون إليها من "بوردو" عن طريق خط حديدي صغير. فهو طريق ذو عدوتين عاليتين فيه تلال مليئة بالكروم، وتتوّجه أطلال من عصر الإقطاع. إن للقرى أسماء جميلة... "مونسيجور"، "سوفتير دي جويين"، "لاترين"، "كريون"... "كريون" كما في "أنتيجونا".

- أذهبت إلى هناك؟

فنظرت إلي وقالت في شيء من التهكم:

- لا تتكلف في الكلام معي! ستضطر إلى رفع الكلفة قريباً أو بعيداً. فابتدئ من الآن.

وملأني هذا الوعيد في التو بسعادة فائقة. ففكرت في حديث السيد "لميج": «لا تتكلم مادمت لم ترها، وعندما تراها ستنكر كل شيء من أجلها».

واستمرت تقول في ضحكة رنانة:

- تسأل أذهبتُ إلى "دوراس"؟ إنك تمزح. أتتخيل حفيدة "نبتون" في ديوان من دواوين الدرجة الأولى على خط حديدي من الخطوط الداخلية؟

ومدت يدها فأشارت إلى الصخرة الضخمة البيضاء التي كانت تسيطر على نخيل الحديقة، وقالت في وقار:

- إنها كل أفقي.

وتناولت كتاباً من الكتب الملقاة على جلد الأسد وفتحته بلاقصد وقالت:

- إنه دليل السكك الحديدية الغربية. ما أعجبها قراءة لامرئ لا يتنقل. إن الساعة الآن الخامسة والنصف مساء. لقد وصل قطار ركاب منذ ثلاث دقائق إلى "سرجير" في الـ"شارنت" السفلى. وسيرحل منها بعد ست دقائق، وبعد ساعتين سيصل إلى "لاروشيل". إنه لغريب أن نفكر هنا في تلك الأشياء. يالها من مسافات! ويالها من حركة! وياله من ركود!

فقلت:

- إنك تتكلمين الفرنسية بطلاقة.

فأرسلت ضحكة عصبية قصيرة وقالت:

- إنني مضطرة إلى ذلك. والألمانية أيضاً والإيطالية والإنجليزية والإسبانية. إن ظروف حياتي جعلتني أتكلم لغات كثيرة. غير أني أوثر الفرنسية على لغة الطوارق بل على العربية

نفسها. بل يخيل إلي أنني كنت دائماً أعرفها. وثق بانني لا أقول ذلك لأرضيك.

وساد الصمت. ففكرت في جدتها التي قال عنها "بلوتارخ": « ما أقل الأمم التي كانت تحتاج للتفاهم معها إلى مترجم! كانت "كليوباترة" تكلم الأحباش والتروجلوديت والعبريين والعرب والسوريين والميديين والبارتيين بلغاتهم ».

– لا تقف هكذا جامداً في وسط القاعة. إنك تؤلمني.... تعال هنا إلي جانبي. أفسح المكان يا سيد "هيرام الملك".

فأذعن الفهد في ضجر.

وأمرتني:

– ناولني يدك.

كان بالقرب منها كأس كبيرة من العقيق. فأخذت خاتماً من الـ"أوريشلك" في غاية البساطة، وألبستنيه في بنصر يدي اليسرى. ورأيتها لابسة مثله:

– "تانيت زرجا"! قدمي إلى السيد "دي سانت أفيت" كوباً من شراب ماء الورد.

فأسرعت الفتاة السوداء ذات الرداء الحريري الأحمر.

وقدمته "أنتينيا" إلي:

– إنها كاتمة سري الخاصة. الآنسة "تانيت زرجا" من "جاو" على نهر "النيجر". إن أسرتها عريقة مثل أسرتي.

قالت ذلك وهي تنظر إلي. كانت نظرات عينيها الخضراوين تثقل علي. وسألتني في صوت خافت:

– ورفيقك الكابتن، إنني لم أعرفه بعد. كيف هو؟ هل يشبهك؟

وحينئذ ولأول مرة أثناء وجودي بالقرب منها فكرت في "مورانج" ولم أحر جواباً.

فابتسمت "أنتينيا"، واضطجعت على جلد الأسد، فانكشفت ساقها اليمنى.

وقالت في سأم:

– لقد آن لي أن أذهب إليه. سأصدر إليك أوامري عما قليل.

"تانيت زرجا" شيعيه وأريه حجرته أولاً. لابد أنه لا يعرفها. فنهضت وتناولت يدها لأقبلها. فضغطت بها شفتي بقوة لتشعرني بسلطانها علي.

أنا الآن في الممر المظلم. كانت الفتاة ذات الرداء الأحمر تسير أمامي، ثم قالت:

– ها هي ذي حجرتك.

ثم أضافت:

– والآن إذا أردت فسأقودك إلى حجرة الطعام حيث يجتمع الآخرون هناك للعشاء.

كانت تتكلم الفرنسية.

- لا يا "تانيت زرجا".. لا! أفضل أن أبقى هنا هذا المساء لست بجائع. إنني متعب.

فقالت:

- إنك تتذكر اسمي.

وبدت فخوراً بذلك أحسست بأنها ستكون لي حليفة إذا لزم الأمر:

- إنني أذكر اسمك يا "تانيت زرجا" الصغيرة لأنه جميل(١).

وأضفت:

- والآن دعيني يا صغيرتي؛ لأني أريد أن أخلو إلى نفسي.

كانت تطيل بقاءها بالحجرة. وكنت قد تأثرت بذلك وتضايقت، وتملكني شوق شديد إلي التأمل في نفسي.

وقالت:

- إن حجرتي فوق حجرتك. على هذه المنضدة يوجد جرس نحاسي. فما عليك إلا أن تقرعه إذا احتجت إلى شيء، فيحضر طارقي أبيض.

انشرح صدري لحظة لهذا الإرشاد. كنت في فندق في جوف الصحراء، ولم يكن علي إلا قرع الجرس ليحضر الخادم.

فتأملت حجرتي. حجرتي! إلى متى ستبقى حجرتي؟!

كانت قاعة فسيحة جداً: وسائد وأريكة ومضجع منحوت في الصخر، كل ذلك تضيئه نافذة واسعة يجللها ستار من القش.

وتوجهت نحو النافذة، ورفعت الستار، فدخلت أشعة الشمس الغاربة. واتكأت على المسند الصخري وذهني مليء بأفكار غامضة. كانت النافذة ناحية الجنوب وترتفع عن الأرض نحو ستين متراً. وكان الجدار البركاني يمر من تحتها أسود أملس.

وكان يرتفع أمامي جدار آخر على بعد نحو كيلو مترين. كان هو أول حواجز الـ"كريسياس" الأرضية ثم لمحت وراءه على بعد منه الصحراء الحمراء المترامية الأطراف.

---

(١) "تانيت" معناها منبع وكلمة "زرجا" مؤنث ازرق في اللغة البربرية (تعليق السيد "لورو").

الفصل الثاني عشر

"مورانج" يستيقظ ويختفي

كنت متعباً إلى حد أنني نمت دون انقطاع إلى اليوم التالي واستيقظت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر.

وفي الحال فكرت في حوادث الليلة السابقة، ولم ألبث أن وجدتها عجيبة جداً.

وقلت في نفسي:

– فلنعمل في انتظام. يجب أولاً استشارة "مورانج".

وفضلا عن ذلك كنت أشعر بشهية عظيمة.

كان الجرس الذي نبهتني إليه "تانيت زرجا" في متناول يدي؛ فقرعته فظهر طارقي أبيض فأمرته قائلا:

– قدني إلى المكتبة.

فأطاع. وأدركت وأنا أجتاز من جديد هذا التيه من الدرج والممرات أنني لن أستطيع مواصلة السير مطلقاً دون إرشاد.

كان "مورانج" في المكتبة يطالع مخطوطاً باهتمام.

فقال لي:

– بحث مفقود للقديس "أوبتات". آه! لو أن "دوم جرانجر" كان حاضراً... انظر: خط بريشة الإوزة.

فلم أجب. وكان ثمة– على المنضدة بجوار المخطوط– شيء استرعى انتباهي في الحال. كان خاتماً من الـ"أوريشلك" يطابق تمام المطابقة الخاتم الذي أعطتنيه "أنتينيا" في الليلة السابقة، ذلك الخاتم الذي كانت تضعه في أصبعها.

وابتسم "مورانج". فقلت؟

– وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك؟

– هل رأيتها؟

فأجاب "مورانج":

– لقد رأيتها بالفعل.

– إنها لجميلة حقا. أليس كذلك؟

فأجاب رفيقي:

– إنه من الصعب أن أنكر ذلك، بل أعتقد أن في استطاعتي أن أؤكد أنها ذكية بقدر ما هي جميلة.

وساد الصمت. كان "مورانج" يدير في هدوء الخاتم الأوريشلكي بين أصابعه. وسألت:

– أتعرف ما سيكون مصيرنا هنا؟

– أعرف! لقد أوضحه لنا السيد "لميج" في عبارات غامضة وخرافية.

إنها مغامرة خارقة حقا.

وسكت ثم قال وهو يصوب إلي نظره:

– إن ندمي لعظيم إذ جذبتك إلى هذا المكان. وثمة شيء واحد يخفف من عظيم ندمي، وهو أنك تستقبل الأمور في استسلام منذ مساء أمس.

ترى من أين استمد "مورانج" علمه بالنفس الإنسانية؟ لم أجبه، مقدماً له بذلك أحسن دليل على صحة رأيه.

وأخيراً تمتمت:

– ماذا اعتزمت أن تفعل؟

فأغلق المخطوط واستراح على أحد المقاعد وأشعل سيجاراً ثم أجابني بهذه العبارات:

– لقد فكرت مليا في الأمر. واستكشفت خط سيري بشيء من الحيلة. إنها يسيرة لا تحتمل المناقشة.

«إن المشكلة بالقياس إلي تختلف كل الاختلاف بالقياس إليك، وذلك لصفتي الدينية التي– أعترف بذلك– قد أحيط بها. نعم! إنني لم أقرر نذري. ولكن علاوة على أنه محرم علي، كما جاء بالوصية التاسعة، أن يكون لي صلات بامرأة ليست زوجاً لي، أعترف بأنه ليس عندي أي ميل إلى هذا النوع من العمل الذي من أجله تفضل "صغير ابن شيخ" فاختارنا.

«يجب أن ألاحظ أن حياتي ليست ملكاً لي. ولا أستطيع أن أتصرف فيها كأي مستكشف حر يسافر في سبيل أهداف تخصه وعلى نفقته الخاصة. إن علي مهمة أتممها ونتائج أحققها. فلو استطعت أن أستعيد حريتي بعد أن أدفع ضريبة المرور الغريبة المعتادة هنا لقبلت أن أرضي "أنتينيا" في حدود طاقتي. وأنا أعرف جيداً عقلية الكنيسة الواسعة وخاصة عقلية الجماعة التي أريد أن أنضم إليها. إن تصرفي سيظفر في الحال برضاهم. ومن يدري! لعله يظفر بموافقتهم.

«ولكن فيما يخصني لا أجد شيئاً مماثلا. فإذا ما استسلمت لنزوات هذه المرأة الغريبة فلن

يمنعني هذا من أن أصبح، بعد قليل، في قاعة المرمر الأحمر تحت رقم ٥٤ أو ٥٥ إذا أرادت أن تقصدك أنت أولا. وفي هذه الأحوال...

– في هذه الأحوال؟

– في هذه الأحوال لن يغتفر لي الإذعان لمشيئتها.

– وماذا اعتزمت أن تفعل؟

– ما اعتزمت أن أفعل؟

وأسند "موراغ" رأسه إلى المقعد وأرسل نحو السقف نفثة دخان وابتسم ثم قال:

– لا شيء، وهذا يكفي. إن الرجل يتفوق بلاشك على المرأة في هذا المضمار. فبفضل تكوينه الطبيعي يستطيع أن يواجهها برفض استماع؛ أما المرأة فلا.

وأضاف وهو ينظر نظرة ساخرة:

– لا يكره المرء إلا بإرادته.

فخفضت رأسي.

واستمر في حديثه:

– لقد جربت مع "أنتينيا" كل وسائل علم المنطق الرفيع دون جدوى. وقلت حين استنفدت كل حيلة: «ولم لا تكون السيد "لميج"»؟ فجعلت تضحك وأجابت: «ولم لا يكون القس "سباردك"». إن السيد "لميج" و"سباردك" عالمان أقدرهما. ولكن:

اللعنة الأبدية على ذلك الحالم الفارغ

الذي أراد أولا، لغباوته

أن يدخل الشرف في مسائل الحب

وقد شغف بمشكلة عقيمة لا تحل.

«ثم أضافت وهي تبتسم ابتسامة فاتنة حقا: «يضاف إلى ذلك أنه من المحتمل أنك لم تتأمل كليهما جيداً". ثم أعقبت ذلك ببعض المديح على شكلي، فلم أوفق للرد عليه؛ لأن أبيات "بودلير" الأربعة كانت قد فعلت في فعلها».

«وتفضلت فقالت لي أيضاً: «إن السيد "لميج" عالم مفيد لي. إنه يعرف الإسبانية والإيطالية وينظم أوراقي ويبذل جهده ليرقب نسبي. أما القس "سباردك" فهو يعرف الإنجليزية والألمانية. والكونت "بيلوفسكي" يعرف تماماً اللغات السلافية. ويضاف إلى ذلك أني أحبه كأنه والد. لقد عرفني طفلة في وقت كنت لا أفكر فيه في السخافات التي تعرفها. إنني في حاجة إليهم في الصلات التي يمكن أن تنشأ بيني وبين زائري من ذوي الجنسيات المختلفة، مع أني قد بدأت أتكلم أية لهجة أنا في حاجة إليها... على أن

هذا كله لغو باطل. وهذه أول مرة أسوغ فيها مسلكي. صديقك ليس فضوليا مثلك».

ثم صرفتني حقا إنها لامرأة عجيبة. أعتقد أنها من أتباع "رينان" ولكنها ألفت أكثر من أستاذها أمور الشهوات.

وقال السيد "لميج" فجأة وهو مقبل علينا:

- أيها السيدان! ماذا تنتظران؟ إننا في انتظاركما للعشاء وكان الأستاذ في هذا المساء بخاصة معتدل المزاج، وكان يلبس وساماً جديداً بنفسجيا.

فسألنا في مرح:

- أرأيتماها؟

لم يجبه أحد منا. لا "مورانج" ولا أنا.

كان القس "سباردك" وقائد "جيتومير" قد بدآ يتناولان العشاء عندما وصلنا. وكانت الشمس في انحدارها تسبغ على الحصير الأصفر لوناً فروليا.

وقال السيد "لميج":

- اجلسا يا سيدي. لم تكن أيها الملازم "دي سانت أفيت" بيننا أمس مساء. ستأكل لأول مرة من طعام "كوكو" طاهينا البمباري. وستنبئني برأيك.

ووضع أمامي خادم أسود سمكة عظيمة في حمرة الطماطم تبرز من صلصة معالجة بالبهار.

سبق أن قلت إنني كدت أموت جوعاً. وكان الطعام طيباً، وسببت لي الصلصة عطشاً في الحال. وهمس قائد "جيتومير" وهو يملأ كوبي بشراب فاخر أزرق:

- "حجار أبيض" ١٨٧٩ . إنني أعنى به شخصيا. لا شيء في الرأس، كل شيء في السيقان.

أفرغت كوبي دفعة واحدة، وأخذ الحفل يبدو لي طريفاً.

وصاح السيد "لميج" في زميلي الذي كان يأكل سمكته في لذة وتؤدة:

- هيه كابتن "مورانج" ما رأيك في هذا؟ لقد صيدت اليوم من بحيرة الواحة. هل أخذت تقبل فرض وجود البحر الصحراوي؟

فقال رفيقي:

- إن هذه السمكة لدليل عليه.

وصمت فجأة، فقد فتح الباب ودخل طارقي أبيض ملثم، فلزم من حول المائدة الصمت، وتقدم الرجل الملثم في تؤدة من "مورانج" ولمس ذراعه اليمنى.

فقال "مورانج":

– حاضر.

نهض وتبع الرسول.

كانت زجاجة "الحجار" ١٨٧٩ بيني وبين الكونت "بيلوفسكي"، فملأت منها كأسي، وسعته نصف لتر، وأفرغتها.

ونظر إلي القائد نظرة كلها عطف.

وقال السيد "لميج" وهو يهز مرفقي:

– إن "أنتينيا تحترم نظام الطبقات.

فعلت وجه القس "سباردك" ابتسامة كلها حياء.

فكرر السيد "لميج":

– هيه هيه!

كان كوبي فارغاً، وقد شعرت في تلك اللحظة برغبة في إلقائه على وجه حامل إجازة التاريخ، غير أني ملأته وأفرغته ثانية.

وقال الأستاذ وقد ازداد دعابة وهو يتناول قطعة كبيرة من اللحم:

– لن يتذوق السيد "مورانج" لحم الضأن هذا إلا بقلبه.

فقال القائد في ضجر:

– لن يندم على ذلك؛ إذ ليس هذا لحما محمراً، بل هو قرون خرفان.

حقا أن "كوكو" قد أخذ يسخر منا.

فأجاب السيد "لميج" بصوته الحاد:

– فلتلم الأب على ذلك؛ إذ طالما نصحت له أن يبحث عن أنصار لتعاليمه الدينية غير طاهينا.

فقال الأب "سباردك" في وقار:

– يا سيدي الأستاذ!

فصاح السيد "لميج" الذي بدا لي في تلك اللحظة أنه ثمل قليلا:

– أصر على احتجاجي.

واستمر قائلاً وهو يلتفت نحوي:

– وأنا أحكِّم السيد. إن السيد قادم جديد، ليس عنده أي تحيز، فلنسأله. أيكون لشخص ما الحق في أن يشوش على أفكار طاه بمباري بملء مخه طيلة النهار بمناقشات دينية ليس لديه أي شيء يهيئه لها؟

فأجاب القس في حزن:

– وا أسفاه، ما أشد خطأك! إنه لشديد الميل إلى المجادلات.

وقال القائد:

– إن "كوكو" كسلان ينتهز فرصة وجود هذا الـ"هوجنوت" ليمتنع عن العمل ويترك اللحم يحترق.

وصاح وهو يملأ الأكواب للجميع:

– ليحيا البابا.

فاستأنف السيد "سباردك" حديثه في كثير من الوقار:

– أؤكد لكم أن هذا البمباري يقلقني. أتعرفون إلى أين وصل الآن في تعليمه؟ إنه ينفي الوجود الحقيقي. ها هو ذا على قيد أصبعين من أخطاء "زوينجل" و"إيكولومباد". إن "كوكو" ينفي الوجود الحقيقي.

فقال السيد "لميج" وقد أشتد هياجه:

– يا سيدي! يجب أن ندع المكلفين بأمر المطبخ في هدوء. هكذا كان يفهم "يسوع" الذي أعتقد أنه كان لا هوتيا بقدرما أنت لاهوتي. والذي لم يخطر بباله أن يصرف "مارتا" عن مخابزها ليقص عليها سخافات.

فوافق القائد قائلا:

– بالضبط.

كان يضع بين ركبتيه جرة يحاول أن يفتحها.

فهمس لي بعد أن نجح في فتحها:

– أضلاع مشوية.... أضلاع مشوية. الأكواب... انتباه!

واستمر القس في قوله وهو يعب كوبه في حزن:

– "كوكو" ينكر الوجود الحقيقي.

وهمس في أذني قائد "جيتومير" قائلا:

– آه! دعهما وشأنهما. ألا ترى أنهما قد ثملا حقا؟

كان هو أيضاً قد ثقل لسانه ولقي مشقة في ملء كوبي إلى آخره تقريباً.

وشعرت برغبة في إبعاد الجرة. ولكن خطرت ببالي فكرة: «في تلك اللحظة "مورانج"... مهما قال... إنها جد جميلة جداً»! وحينئذ جذبت الكوب إلي وأفرغته مرة أخرى.

كان السيد "لميج" والقس في تلك اللحظة متعثرين في أعجب المناقشات الدينية يتقاذفان الكتب مثل «كتاب الصلاة العامة» و«تصريح حقوق الإنسان». وأخذ القائد يعلو عليه

بوصفه نبيلا شيئاً فشيئاً. كان قد ثمل حتى بكى إلا أنه احترم نفسه، بفضل تفوق التربية على التعليم.

كان الكونت "بيلوفسكي" قد شرب خمسة أضعاف ما شرب الأستاذ والقس، ولكن احتماله للشراب كان قدر احتمالهما عشر مرات.

وقال باشمئزاز:

- فلندع هؤلاء السكارى. هلم ياصديقي العزيز. إن زملاءنا ينتظروننا في قاعة اللعب.

قال القائد وهو يدخل القاعة:

- سيداتي سادتي... اسمحوا لي بأن أقدم لكم زميلا جديداً، صديقي السيد الملازم "دي سانت أفيت".

وتمتم في أذني:

- دعني أفعل. إنهم خدم المنزل... ولكني أتخيل... إنك تفهم.

فرأيت أنه كان ثملا جدا.

كانت قاعة اللعب ضيقة طويلة . وثمة منضدة واسعة بمستوى الأرض تحيطها وسائد اضطجع عليها نحو اثني عشر من الوطنيين، وعلى الجدار صورتان تشهدان على حسن التوفيق في اختيارهما: القديس "جان باتيست" لـ"دفنتشي"، و"الرصاصة الأخيرة" لـ"ألفونس دي نيفيل".

وكان على المنضدة أكواب من الفخار، وجرة ثقيلة مملوءة بالعرقي.

وجدت بعض من أعرف بين الحاضرين: مدلكي، ومقلمة الأظافر والحلاق واثنين أو ثلاثة من الطوارق البيض أماطوا لثمهم وأخذوا يدخنون- في رزانة- غلايينهم ذات الأغطية النحاسية، وقد استغرقهم جميعاً لعب الورق. وبدا لي أنهم يلعبون "الرامز" في انتظار ما هو أحسن. وكان من بين الحاضرين اثنتان من وصيفات "أنتينيا" الجميلات "عجيدة" و"سيدة". كانت بشرتاهما الخمريتان الناعمتان تلمعان تحت القماش الشفاف الموشى بالفضة. وقد ساءني ألا أرى رداء الصغيرة "تانيت زرجا" الأحمر. وعدت أفكر في "مورانج"، ولكن للحظة قصيرة.

وأمر القائد قائلا:

- "كوكو"! الفيش... لم نكن هنا لنلهو.

فوضع أمامه الطاهي الزوينجلي صندوقاً من الفيش المتعدد الألوان. وأخذ الكونت "بيلوفسكي" على عاتقه أن يعدها ويقسمها أكواماً صغيرة، كل ذلك في وقار بالغ.

وأخذ يشرح لي:

- البيضاء تساوي جنيهاً ذهبيا، والحمراء مائة فرنك، والصفراء خمسمائة، والخضراء ألف. آه! اعلم أننا نلعب هنا لعباً جهنميا وعلى كل سترى بنفسك.

وقال الطاهي الزوينجلي:

- آخذ البنك بعشرة آلاف.

فقال القائد:

- اثني عشر ألفاً.

فقالت "سيدة" التي كانت تجلس على إحدى ركبتي الكونت والابتسامة تعلو وجهها، وهي توزع الفيش أكواماً صغيرة:

- ثلاثة عشر ألفاً.

وقالت "روزيتا" العجوز السوداء مقلمة الأظافر بصوتها الحاد:

- خمسة عشر ألفاً.

فأعلن القائد:

- سبعة عشر.

فأنهى الطاهي قائلا:

- عشرين ألفاً.

وضرب بمطرقته وهو يرمينا بنظرة تحد:

- عشرين! إني آخذ البنك بعشرين ألفاً.

فأبدى القائد حركة تدل على الضجر:

- "كوكو" العفريت! لا ينفع شيء مع هذا الحيوان. ستضطر إلى أن تلعب لعباً حامياً ياسيدي الملازم.

وجلس "كوكو" متحفزاً في نهاية المنضدة، وأخذ يعيد ترتيب الورق بمهارة أدهشتني. فتمتم القائد في زهو:

- لقد قلت لك: كما عند "أنَّا ديليون".

وصاح الأسود:

- أيها السادة! اختاروا لعبكم، أيها السادة اختاروا لعبكم.

وقال "بيلوفسكي":

- تمهل ياحيوان! إنك؛ ترى الأكواب فارغة، هلم إلينا يا "كاكمبو".

وفي الحال ملأ المدلك الضحوك الأكواب.

وقال "كوكو" مخاطباً "سيدة" الطارقية الحسناء التي كانت عن يمينه:

- اقطعي الورق.

فقطعت الغادة بيدها اليسرى كأي شخص يعتقد في الخرافات. على أنه لابد أن نقول إن يدها اليمنى كانت مشغولة بالكأس التي كانت ترفعها إلى شفتيها. ورأيت نحرها الدقيق الكابي ينتفخ.

فقال "كوكو":

- سأوزع الورق.

كنا في أمكنتنا هكذا: عن اليسار القائد و "عجيدة" التي كان القائد يطوق خصرها بذراعه في ظرف أرستقراطي. و"كاكمبو" وامرأة طارقية، ثم اثنان من السود الملثمين وقوران ومتيقظان للعب؛ وعن اليمين "سيدة" وأنا والعجوز "روزيتا" مقلمة الأظافر، و"باروف" الحلاق وامرأة طارقية أخرى، واثنان من الطوارق البيض في وقار وانتباه مواجهان للأسودين اليساريين.

وقال القائد:

- أطلب ورقاً.

أبدت "سيدة" حركة سلبية.

فجرى "كوكو" وأعطى ورقة ذات أربعة للقائد وأخذ هو ورقة ذات خمسة.

فأعلن "بيلوفسكي":

- ثمانية.

وقالت الحسناء "سيدة":

- ستة.

فقذف "كوكو":

- سبعة.

وأضاف ببرود:

- ليدفع بعضكم لبعض.

فقال القائد.

- العب "بارولي".

وحذا حذوه "كاكمبو" و"عجيدة". أما من جانبنا فقد كنا متحفظين وبخاصة مقلمة الأظافر التي كانت لا تخاطر إلا بعشرين فرنكاً في كل مرة.

فقال "كوكو" وهو ثابت الشعور:

- أطلب تساوي الطرفين.

فقال الكونت مغتاظاً:

- إن هذا الشخص لا يحتمل. خذ. أمسرور أنت؟

فوزع "كوكو" ورمى ورقة ذات تسعة.

فصاح "بيلوفسكي":

- الشرف والوطن. كان معي ثمانية....

أما أنا، وكان معي شيخان، فلم أظهر ضجري. وأخذت "روزيتا" الورق من يدي.

ونظرت يميناً إلى "سيدة". كان شعرها الأسود المتكاثف يغطي كتفيها، حقا لقد كانت جميلة جدا وثملة كسائر الحضور المدهشين. فنظرت إلي هي أيضاً. ولكن في خفية كأنها حيوان خجول. فقلت في نفسي:

- آه! لابد أنها خائفة بعض الشيء. مكتوب على جبهتي:

صيد محجوز.

فلمست قدمها، فجذبتها في خوف.

وسأل "كوكو":

- من يريد ورقاً؟

فأجاب القائد:

- ليس إياي.

وقالت سيدة:

- مستغنية.

فسحب الطاهي أربعة وصاح:

- تسعة.

فقال الكونت:

- إنها الورقة التي كانت مقدرة لي. خمسة، كان معي خمسة، آه! لو لم أكن قد وعدت قديماً جلالة الإمبرطور "نابليون الثالث" ألا أسحب خمسة. هناك لحظات من الصعب... وها هو ذا العبد الذي تخيل نفسه "شارلمان".

وبالفعل كان "كوكو" ينهض في وقار بعد أن جمع ثلاثة أرباع الفيش وقال يحيي الحاضرين:

- إلى الغد أيها السادة.

فصاح قائد "جيتومير":

- اذهبوا جميعاً. ابق معي ياسيدي "دي سانت أفيت".

ولما صرنا وحيدين صب لنفسه كأساً كبيرة من الشراب، وكان سقف القاعة مختفياً خلف الدخان الرمادي.

وسألت:

– كم الساعة الآن:

– الثانية عشرة والنصف. أتتركني هكذا يا ولدي، يا ولدي العزيز؟ إني حزين حزين.

كان يبكي بكاء مرًّا، وكانت أذيال ردائه على الأريكة من خلفه ترفرف كأنها أجنحة خضراء.

وقال وهو مستمر في البكاء:

– أليست "عجيدة" جميلة؟ إنها تذكرني بالكونتيس "دي تيرويل" ولكنها أسمر منها قليلا. الكونتيس "دي تيرويل" الجميلة. "مرسيديس" التي كانت تستحم عارية في "بيارتز" أمام صخرة العذراء في يوم كان فيه الأمير "بسمارك" على القنطرة. ألا تتذكر؟ "مرسيديس دي تيرويل" فهززت كتفي.

– حقا إني نسيت، إنك كنت صغيراً جداً. سنتين أو ثلاث سنوات. كنت طفلا. نعم كنت طفلا... آه يا ولدي! أأعيش في تلك الأزمان ثم أضطر إلى لعب الميسر مع المتوحشين! يجب أن أقص عليك...

فنهضت ونهرته.

فتوسل إلي قائلا:

– ابق! ابق! سأحدثك بكل ما تريد. سأقص عليك ماتريد. كيف أتيت إلى هنا. أشياء لم أفض بها إلى شخص آخر. ابق! إني أشعر بالرغبة في أن أفتح قلبي لصديق صدوق. سأحدثك عن كل شيء. إني أثق بك. إنك فرنسي نبيل. أعلم أنك لن تعيد عليها شيئاً.

– لن أعيد عليها شيئاً؟ على من؟

– على...

وتعثر صوته. وخيل إلي أني ألمس فيه رعدة الخوف.

– على من؟

فتمتم:

– عليها... على "أنتينيا".

فعدت وجلست.

الفصل الثالث عشر

قصة قائد "جيتومير"

كان الكونت "كازمير" قد وصل إلى هذا الحد الذي يتخذ فيه السكر هيئة الوقار.

وتروَّى لحظة وبدأ يسرد علي هذه القصة التي آسف ألا أستطيع أن أعيد تماماً عباراتها القديمة اللذيذة.

- «عندما يبدأ شجر المسك في حدائق "أنتينيا" يزدهر سأكون قد بلغت الثامنة والستين من عمري. إنه لشيء محزن يا ولدي العزيز أن أجدني قد أسرفت في شبابي. وليس من الحق أن الحياة بداءة مستمرة. ما أمر الحياة على شخص عرف "التويلري" سنة ١٨٦٠ وانزلق إلى الحضيض الذي أنا فيه».

«ذات مساء، قبل الحرب بقليل (أذكر أن "ڤيكتورنوار" كان لا يزال حيا) أظهر بعض النساء الجميلات وسأخفي أسماءهن (أقرأ بين حين وآخر أسماء أبنائهن في أخبار المجتمع في جريدة "الجولوا")، أقول أظهر بعض النساء لي الرغبة في الجلوس إلى أشخاص يحملون وشاحات حقيقية. فقدتهن إلى سهرة راقصة في الـ"جراند شوميير". كان الحاضرون من اللصوص والغانيات والطلبة، وكانوا يرقصون "الكانكان" في وسط المحل بطريقة تكاد تخلع الثريا من السقف. واسترعى انتباهنا شاب قصير أسمر اللون يرتدي حلة "ردنجوت" زرية المنظر، وسروالا ذا مربعات لا تثبته بطبيعة الحال أية حمالة. كان أحول العين. وله لحية بشعة وشعر مترب كالعربات العتيقة السود. وكانت خطواته في الرقص غريبة جداً رغبت السيدات في أن يعرفهن باسمه، فقال "ليونيه جمبيتا":

«ياله من شقاء حينما أفكر في أنه كان يكفيني أن أقتل بطلقة من مسدسي هذا المحامي الشرير، لأكفل إلى الأبد هناءتي وهناءة وطني المختار؛ إذ إنني ياصديقي العزيز فرنسي بشعوري إن لم أكنه بمولدي".

«ولدت سنة ١٨٢٩ في "فرسوفيا" من أب بولوني وأم روسية أو على الأصح فولينية. وورثت منها لقب قائد "جيتومير". لقد أعاده إلي القيصر "إسكندر الثاني" عند زيارته لـ"باريس" بناء على الطلب الذي قدمه إليه سيدي العظيم الإمبراطور "نابليون الثالث".

«ولأسباب سياسية لا يمكن الإفاضة فيها دون سرد تاريخ بولندا المسكينة، ترك الكونت "بيلوفسكي" "فرسوفيا" سنة ١٨٣٠ وسكن "لندن" وأخذ ينفق ثروته الطائلة بعد وفاة

والدتي، وادعى لي أنه فعل ذلك من شدة حزنه. وعند وفاته إبان قضية "بريتشارد" لم يترك لي إلا نحو ألف جنية استرليني إيراداً، واثنين أو ثلاثة طرق للعب الميسر لم أتحقق عدم صلاحيتها إلا أخيراً. وأنا لا أذكر مطلقاً دون انفعال السنتين التاسعة عشرة والعشرين من عمري، أي الوقت الذي بددت فيه كل هذا التراث الصغير. كانت "لندن" حينذاك بلداً ظريفاً حقا. وكنت قد أعددت لنفسي جناحاً صغيراً لطيفاً في "بيكاديللي".

"بيكاديللي"! متاجر وقصور وضجيج ونفحات

وقرقعة عجلات وحفيف أشجار

«وكان صيد الثعالب في عربة البريسكا، والنزهات في عربة البوجي في "هايد بارك"، والاجتماعات والحفلات الصغيرة اللطيفة مع غانيات "دروري لين"، كل هذا كان يشغل وقتي. إنني مخطئ. فهناك الميسر وعاطفة البنوة التي تدفعني إلى التحقق من صلاحية طرق اللعب التي تركها لي الكونت المتوفى. إن الميسر هو سبب الحادث الذي سأقصه عليك والذي انقلبت حياتي على أثره رأساً على عقب».

«كان صديقي لورد "ملزبوري" يكرر على مسامعي مائة مرة: لابد أن أذهب بك إلى سيدة لطيفة تقطن شارع "أوكسفورد" رقم ٢٧٧: مس "هوارد". وذات ليلة أسلمت إليه قيادي. كان ذلك يوم ٢٢ فبراير (شباط) سنة ١٨٤٨. وكانت ربة المنزل تامة الجمال حقاً، وكان مدعووها ظرفاء. وأحصيت عدة معارف غير "ملزبوري": لورد "كلبدن". ولورد "شسترفيلد"، وسير "فرنسيس مونتجوي"، ميجور في الحرس، والكونت "دورسيه". ولعبنا ثم أفضنا في أحاديث السياسة. كانت حوادث "فرنسا" موضوع الحديث. وكنا نتناقش في نتائج الثورة التي شبت في ذلك الصباح في "باريس" بعد منع مأدبة الدائرة الثانية عشرة، والتي نقل البرق أخبارها. ولم أكن أهتم في ذلك الحين بالمسائل العامة. لم أعرف ماذا دار برأسي حينما أكدت في عنف أن الأخبار الواردة من "باريس" تعني الجمهورية في اليوم التالي والإمبراطورية بعد ذلك...

«وتلقى المدعوون هذه الملحة بضحكة خفيفة، واتجهت أنظارهم إلى أحد المدعوين. كان يجلس خامس اللاعبين إلى منضدة "بويوت" وقد توقفوا عن اللعب. ابتسم المدعو ثم نهض وأقبل نحوي فرأيته متوسط القامة بل صغيرها، يرتدي "ردنجوت" أزرق، بعيد النظرة تائهها.

وكان الحاضرون يتتبعون هذا المشهد في مرح ولهو.

فسأل في عبوس رقيق جداً:

– إلى من لي شرف التحدث؟

فأجبته في صراحة لأبين له أن فرق السن ليس سبباً كافياً يسوغ سؤاله:

- الكونت "كازمير بيلوفسكي" .

فقال المدعو ذو الـ"ردنجوت" الأزرق وهو يبتسم :

- حسناً يا عزيزي الكونت! أتمنى أن تتحقق نبوءتك، وأرجو ألا تهمل "التويلري" .

ثم أضاف وقد رضي بأن يقدم نفسه :

- الأمير "لويس نابليون بونابرت" .

« لم تكن لي يد في قلب نظام الحكم، ولست آسف على ذلك؛ إذ كان مبدئي ألا يتدخل أجنبي عن بلد في مشاكله الداخلية . وفهم الأمير هذا التحفظ، ولم ينس قط ذلك الشاب الذي كان له فألاً حسنًا جداً . وكنت في طليعة من استدعاهم إلى "الإليزيه" . وقد توطدت سعادتي نهائيا على أثر مذكرة شائنة من نابليون "الصغير" . وفي السنة التالية لما مر هناك السيد "سيبور" عينت في حاشية الإمبراطور الذي تفضل فزوجني من ابنة الماريشال "ربيتو"، دوق "مندوفي" » .

« ولست أشعر بغضاضة إذا أعلنت أن هذا الزواج لم يكن موفقاً كما يجب . كانت الكونتيسة تكبرني بعشر سنوات، وكانت شرسة الطباع، ولم يكن جمالها يسترعي النظر . يضاف إلى ذلك أن أسرتها حتمت نظام المهر غير أني لم أكن أملك في هذا الوقت غير راتبي، بوصفي من أتباع الإمبرطور، وقدره خمسة وعشرون ألف فرنك . ياله من مصير محزن لامرئ كان يتردد على الكونت "دورسي" والدوق "دي جرامون- كاديروس"! ترى ماذا كنت أفعل لولا عطف الإمبراطور »؟

« وفي ذات صباح من ربيع سنة ١٨٦٢ كنت في مكتبي أفض خطاباتي، وكان من بينها خطاب صاحب الجلالة يدعوني إلى الذهاب إلى "التويلري" في الساعة الرابعة، وآخر من "كليمنتين" تنبئني بأنها تنتظرني في منزلها في الساعة الخامسة . وكانت "كليمنتين" المرأة الجميلة التي كنت أقدم من أجلها على مغامرات طائشة . وكنت جد فخورا بها؛ إذ اغتصبتها ذات مساء في "البيت الذهبي" من الأمير "دي مترنيخ" الذي كان مولعاً بها . كانت حاشية الملك تحسدني على هذه العلاقة . فكنت مضطرا أدبيا إلى الاستمرار في تحمل تبعاتها . وزد على ذلك أن "كليمنتين" كانت جميلة، حتى إن الإمبراطور نفسه. . . أما باقي الخطابات يا إلهي! باقي الخطابات فكانت قوائم موردي هذه الطفلة . وكانت رغم تعريضي بالتأنيب تصر على إرسال هذه القوائم إلى منزل الزوجية » .

« كان المبلغ المطلوب يزيد قليلا على أربعين ألف فرنك؛ فساتين وملابس سهرة من محل "جاجلان أوبيجيه" ، ٢٣ شارع "ريشيليو" ؛ قبعات مختلفة من محل السيدة الكسندرين، ١٤ شارع "دانتان" ؛ تنورات مختلفة وملابس داخلية من محل السيدة بولين، ١٠٠ شارع

"دي كليري" ؛ عقود وقفازات "جوزفين" من محل "مدينة ليون" ، ٦ شارع الـ"شوسيه دانتان" ؛ وأوشحة من "المال دي زاند" ، ومناديل من شركة "إير لانديز" ؛ ودنتيلا من محل "فرجاسون" ؛ ودهن كانديس للتطرية... وهذا الدهن بخاصة قد ملأني دهشة. كانت القائمة تشمل إحدى وخمسين زجاجة ثمنها سبعة وثلاثون وستمائة فرنك. وكان يكفي هذا القدر لتطرية بشرة كتيبة عدتها مائة حارس.

وقلت في نفسي وأنا أضع قوائم الحساب في جيبي :

- لا يمكن أن تستمر هذه الحال.

في الساعة الرابعة إلا عشر دقائق اجتزت مدخل الـ"كاروسيل".

وفي قاعة الياوران قابلت "باتشوكي" الذي قال لي :

- إن الإمبراطور يشكو بردا وهو ملازم حجرته. لقد أعطى الأمر بإدخالك إليه حينما تحضر. تعال.

«كان جلالته غارقاً في أحلامه أمام النافذة يرتدي حلة مزركشة وسروالا قوزاقيا. وكنت أستطيع أن أرى خضرة "التويلري" الباهتة تتموج وتلمع تحت رذاذ دافيء خفيف".

فقال "نابليون" :

- آه... ها هو ذا أنت. خذ لفافة. يقال إنك و"جرامونت كاديروس" قد عملتما ما لا يعمل أمس في «قصر الأزهار».

فابتسمت ابتسامة رضا وقلت :

- إذن فجلالتكم قد عرفتم...

- لقد عرفت، عرفت معرفة غير واضحة.

- أتعرفون جلالتكم آخر ما قال "جرامونت كاديروس" ؟

- لا! ولكنك ستقص عليّ ذلك.

- حسناً يا مولاي! كنا خمسة أو ستة : أنا، و"فيل- كاستيل" ، و"جرامونت" و"برسيني"...

فقال الإمبراطور :

- "برسيني" ! ياله من مخطئ! يظهر مع "جرامونت" بعدما تحدثت "باريس" عن امرأته!

- بالضبط يا صاحب الجلالة. كان "برسيني" منفعلا وجعل يحدثنا عما يسببه له سلوك الدوقة من حزن بالغ.

فتمتم الإمبراطور قائلا :

- إن هذا الرجل يحتاج إلى شيء من الذوق السليم.

- بالضبط يا صاحب الجلالة. أتعرفون يا صاحب الجلالة ماذا قال "جرامونت" حينئذ؟

- ماذا؟

- قال له: يا سيدي الدوق إني أمنعك من أن تتحدث أمامي بما يسوء عشيقتي.

فقال "نابليون" بابتسامة حالمة:

- إن "جرامونت" يسرف.

- وهذا ما قلناه يا صاحب الجلالة، حتى "فييل- كاستل" مع أنه كان مسروراً.

وقال الإمبراطور بعد لحظة صمت:

- بهذه الكلمة المناسبة لقد نسيت أن أسألك عن صحة الكونتيسة "بيلوفسكي".

- إنها بصحة جيدة ياصاحب الجلالة. إني أشكر جلالتكم.

- و"كليمنتين"، أهي كعهدها دائماً طيبة القلب؟

- كعهدنا بها يا صاحب الجلالة. ولكن....

- يبدو أن السيد "باروش" يهيم بها إلى حد الجنون.

- إنه لشرف لي يا مولاي. ولكن هذا الشرف يكلفني كثيراً.

«كنت قد أخرجت من جيبي قوائم الحساب التي وصلتني هذا الصباح ووضعتها على مرأى من الإمبراطور».

فنظر إليها بابتسامته التائهة:

- مرحى! مرحى! هذا لا يهم. سأرى هذا. فثمة خدمة أريدها منك.

- إني تحت أمر صاحب الجلالة.

فهز جرساً.

- أحضر السيد "موكار".

وأضاف:

- إنني أشكو برداً. سيشرح لك "موكار" المسألة.

ودخل السكرتير الخاص لجلالته.

فقال "نابليون":

- "موكار"! هذا هو "بيلوفسكي". إنك تعلم ماذا أريد منه. فأخبره.

وأخذ ينقر على زجاج النافذة وقد كان المطر يسقط عليه بشدة.

وقال "موكار" وهو يجلس:

- يا عزيزي الكونت! إن المسألة يسيرة. إنك بلاشك سمعت عن المستكشف الشاب

السيد "هنري ديفرييه".

«فأومأت برأسي نافياً وقد أدهشني الدخول في الموضوع بهذا الشكل».

فاستمر "موكار" قائلا:

- عاد السيد "ديفرييه" إلى "باريس" بعد رحلة جد خطيرة في جنوب الصحراء و"الجزائر". وقد أكد لي السيد "فيفيان دي سانت مارتان"، الذي رأيته منذ أيام، أن الجمعية الجغرافية تنوي أن تمنحه وسامها الذهبي لهذه المناسبة. وقد اتصل السيد "ديفرييه" أثناء رحلته برؤساء القبائل التي أعلنت حتى الآن خروجها على سلطان صاحب الجلالة، وهم الطوارق.

فنظرت إلى الإمبراطور. كانت دهشتي كبيرة حتى جعلته يضحك، فقال:

- استمع.

واستمر "موكار" يقول:

- واستطاع السيد "ديفرييه" أن يحمل وفداً من هؤلاء الرؤساء على المجيء إلى "باريس" ليقدموا ولاءهم إلى صاحب الجلالة. ولربما كانت لهذه الزيارة نتائج مهمة جداً، ولم يفقد معالي وزير المستعمرات الأمل في عقد معاهدة تجارية تضمن لمواطنينا امتيازات فريدة. وسيصل هؤلاء الرؤساء وعددهم خمسة وبينهم الشيخ "عثمان"، أمين وكالة أو سلطان اتحاد "الأزجر" غداً صباحاً إلى محطة "ليون". وسيكون في انتظارهم السيد "ديفرييه"؛ غير أن الإمبراطور قد رأى أنه علاوة على....

فقال "نابليون الثالث" وهو جد مسرور من دهشتي:

- لقد رأيت أنه من الأوفق أن يكون في انتظار هؤلاء المسلمين العظام أحد رجال البلاط. ولهذا السبب جئت إلى هنا ياصديقي "بيلوفسكي" المسكين.

وأضاف وهو يغرق في الضحك:

- لا تخف! سيكون معك السيد "ديفرييه". إنك مكلف بالجانب الرسمي من الزيارة. ستصحب هؤلاء الأئمة إلى مأدبة غداء أقيمها لهم غداً في "التويلري"، ثم في المساء ستحاول أن تعطي لهم من طريق خفي فكرة عالية عن المدنية الباريسية؛ لأن دينهم دين وجدان ومشاعر. لا تنس أنهم في الصحراء أئمة عظام. وأنا أعتمد على لباقتك في هذا الأمر. ولك الحرية التامة... "موكار"!

- مولاي.

- ضع في الميزانية مناصفة بين وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات المصروفات اللازمة للكونت "بيلوفسكي" لا ستقبال الوفد الطارقي. يبدو لي أن مائة ألف فرنك مبدئيا...

وسيخبرك الكونت إن اضطر إلى أن يتجاوز هذا المبلغ.

كانت "كليمنتين" تسكن منزلا صغيراً مغربيا اشتريته لها من السيد "دي لسيبس". ألفيتها في فراشها. وعندما بصرت بي أخذت تبكي.

وتمتمت وهي تجهش بالبكاء:

- يا لنا من مجانين حقا. ماذا فعلنا؟

- ما هذا يا "كليمنتين"؟

واستمرت تقول:

- ماذا فعلنا؟ ماذا فعلنا؟

« كان شعرها الأسود المتكاثف يتدلى على جسمي، وكذلك لحمها الحار الذي يتضوع منه عطر "نانون" ».

- ماذا بك؟ ماذا بك؟

- إني . . .

وأسرت في أذني بعض الكلمات.

فقلت دهشاً:

- لا! . . . . أواثقة أنت؟

- كل الثقة.

فخارت قواي.

وصاحت بي:

- يبدو أن الخبر لم يسرك.

- لا أقصد يا "كليمنتين"، ولكن . . . . أنا سعيد جدًّا أؤكد لك ذلك.

- أثبت لي ذلك . . . فلنقض سحابة الغد معاً . . .

فارتعدت.

- الغد؟ مستحيل.

فسألت مرتابة.

- ولم؟

- لأنه علي أن أكون- في الغد- مرافق الوفد الطارقي في أنحاء "باريس". أمر الإمبراطور.

فقالت "كليمنتين":

- ما هذه الكذبة؟

إني أعترف أن ليس ثمة شيء يشبه الكذب أكثر من الحقيقة. أعدت بالتقريب على

"كليمنتين" حديث "موكار"، كانت تصغي إلي وملامحها تصرخ: لست بلهاء.

وأخيراً – من شدة غضبي– صحت قائلا:

– ما عليك إلا أن تحضري لتري. سأتناول العشاء معهم مساء الغد. إني أدعوك.

فقالت في وقار:

– سأحضر بكل تأكيد.

أعترف بأن شجاعتي قد خانتني في هذه الدقيقة. ولكن ياله من نهار. أربعون ألف فرنك عند استيقاظي ومشقة استصحاب بعض المتوحشين في أنحاء "باريس"، وفضلا عن ذلك نبأ أبوة قريبة غير شرعية.

وقلت في نفسي وأنا عائد إلى منزلي. "وعلى كال حال فهذه أوامر الإمبرطور. لقد طلب مني أن أعطي هؤلاء الطوارق فكرة عن المدنية الباريسية. و"كليمنتين" تتصرف تصرفاً حسناً في المجتمع. ويجب الآن ألا أضايقها، سأحجز حجرة في الـ"كافيه دي باري" مساء الغد، وسأطلب من "جرامونت– كاديروس" و"فييل– كاستيل" أن يحضرا عشيقتيهما المرحتين. فكرة لطيفة أن نرى أبناء الصحراء وسط المجتمع الصغير.

كان قطار "مرسيليا" سيصل في الساعة العاشرة والدقيقة العشرين. ووجدت على إفريز القطار السيد "ديفرييه" وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره، له عينان زرقاوان ولحية شقراء. وارتمى الطوارق بين ذراعيه عند نزولهم من عربة القطار. كان قد عاش في الخيام معهم سنتين في جهات نائية جدا. فقدمني إلى رئيسهم الشيخ "عثمان" وأربعة آخرين، وهم رجال عظام في أرديتهم القطنية الزرقاء وتمائمهم ذات الجلد الأحمر. ومن حسن الحظ كانوا يتكلمون خليطاً من اللغات مما يسر مهمتنا.

ما أذكر إلا على سبيل السرد الغداء في "التويلري"، والزيارات المسائية للمتحف ودار البلدية، والمطبعة الإمبراطورية. وفي كل مر ة كانوا يقيدون أسماءهم في السجل الذهبي لمكان الزيارة. وإليك الاسم الكامل للشيخ "عثمان" وحده لكي أعطي لك صورة واضحة: « "عثمان بن الحاج البكري بن الحاج الفقيه بن محمد بويه بن سيدي السوقي" ابن "محمود" » (١).

وثمة خمسة أسماء أخرى غير هذا!

وظل مزاجي معتدلا! إذ كان استقبالنا رائعاً في الشوارع الكبرى وفي كل مكان. وأصبنا نجاحاً فائقاً في الـ"كافيه دي باري" الساعة السادسة والنصف. وجعل أعضاء الوفد يقبلونني

(١) لقد أتيحت لي الفرصة أن أجد في السجل الذهبي الخاص بالمطبعة الأهلية أسماء الرؤساء الطوارق وأسماء مرافقيهم: السيد "هنري ديفرييه" و الكونت "بيلوفسكي". (تعليق السيد "لورو").

قائلين:

– بونو "نابليون"، بونو "أوچيني"، بونو "كازمير"، بونو "رومي". وكان "جرامونت كادروس" و"فيل كاستيل" ينتظران في الحجرة رقم ٨ مع "أنّا جريمالدي" من فرقة "الفولي دراماتيك" و"هرتانس شنيدر" وهما جميلتان إلى حد مزعج. واستأثرت عزيزتي "كليمنتين" بجميع قلوب القوم لما دخلت القاعة. يجب أن أخبرك بما كانت تلبسه: رداء من التل الأبيض، وتنورة زرقاء من القطن الرفيع ذات أثناء، تعلوها نفاخة من التل. وكانت التنورة التلّية يرفعها من كل جانب فروع من ورق الشجر الأخضر تحمل أزهاراً وردية ملفوفة، وهي تكون بذلك حلقة مستديرة تسمح برؤية التنورة القطنية من الأمام والجانبين. وكانت فروع الورق ترتفع حتى الخضر وبين الفرعين يوجد عقد من حرير الستان. وكان صدارها المدبب مطرزاً بالتل ومرصعاً بأكاليل من الدانتلا. وكان على رأسها الأسود الشعر إكليل من الأزهار نفسها، ويكتنف شعرها فرعان من ورق الشجر يتدليان إلى عنقها. وكانت تضع على كتفيها عباءة من الكشمير الأزرق موشاة بالذهب ومبطنة بالحرير الأبيض.

« وسرعان ما أخذ الطوارق بهذه الروعة وهذا الجمال وخاصة جار "كليمنتين" الحاج "ابن جمامة" أخا الشيخ "عثمان" وأمين وكالة "الحجّار". كان قد هام بها عند تناول الحساء. ولما قدمت مربى "المارتنيك" مع الشراب أبدى ما لا حد له من دلائل الهيام بها، وقد أظهر الشراب القبرصي حقيقة مشاعره. وجعلت "أورتانس" تغمزني بقدمها من تحت المائدة. وأراد "جرامونت" أن يفعل هذا الشيء نفسه مع "أنا". ولكنه أخطأ فأثار احتجاج أحد الطوارق وسخطه. وأستطيع أن أؤكد لك أنه لما حان وقت الذهاب إلى "مابيل" كنا قد وقفنا على الطريقة التي يحترم بها مدعوونا الطوارق أمر دينهم بتحريم الخمر.

« وفي "مابيل" – استسلم الجميع– "كليمنتين" و "هوراس" و"أنّا"، و"لودفيك" والطوارق الثلاثة– استسلموا جميعاً لعدو جهنمي. وفي ذلك الوقت انتحى بي الشيخ "عثمان" جانبا وأسر إلي في انفعال ظاهر بمهمة كلفه بها أخوه الشيخ "أحمد".

وفي اليوم التالي ذهبت في الصباح الباكر إلى "كليمنتين".

وبدأت حديثي بعد أن توصلت إلى إيقاظها بمشقة:

– يا صغيرتي أصغي إلي. أمر مهم أود أن أبلغك إياه.

ففركت عينيها في ضجر.

– كيف ترين هذا الأمير العربي الذي كان يعانقك مساء الأمس؟

فقالت وقد علاها الاحمرار:

– أوه.... لا بأس.

– أتعرفين أنه أمير حاكم في بلده. وأنه يبسط سلطانه على أراض تبلغ مساحتها خمسة أو ستة أضعاف الأراضي التي يبسط عليها سلطانه مولانا العظيم الإمبراطور "نابليون الثالث"؟

فقالت في اهتمام:

– لقد أسر إلي بشيء من هذا القبيل.

– إذن هل يسرك أن تتربعي على عرش ملكتنا الجليلة الإمبراطورة "أوجيني"؟

فنظرت إلي "كليمنتين" في ذهول.

– هو أخوه الشيخ "عثمان" الذي عهد إلي بأن أقوم بهذه المهمة نيابة عنه.

لم تجب "كليمنتين" وقد أصابها من البله ما أصابها من الارتياع. وأخيراً قالت:

– أنا إمبراطورة!

– ما عليك إلا أن تتخذي قرارك. لابد من أن تجيبي قبل الظهر. فإذا كان جوابك بالموافقة فسنتناول الغداء معاً عند "فوازان".

ولمست أن "كليمنتين" قد اتخذت قراراً في هذا الأمر، ولكنها رأت أن من الخير أن تظهر عواطفها نحوي بعض الشيء.

وقالت متأثرة:

– وأنت.... أنت. هل أدعك هكذا.... أبداً؟

– يا صغيرتي، دعي عنك هذا الطيش. لعلك تجهلين أني مفلس. مفلس تماماً. بل لست أدري كيف أسدد ثمن دهن التطرية.

فصاحت:

– آه!

ثم أضافت:

– و.... والطفل؟

–أي طفل؟

– طفل.... طفلنا.

– آه! حقا. ولكن ضعيه في حساب الأرباح والخسائر. وعلى كل حال فأنا متأكد أن الشيخ "أحمد" سيجده شبيهاً به.

فقالت وهي بين الابتسام والبكاء:

– إنك لا تعدم دائماً كلمة تبعث على الضحك.

وفي اليوم التالي– في الساعة نفسها– كان قطار "مرسيليا" السريع يحمل معه الطوارق الخمسة و"كليمنتين". وكانت المرأة الصغيرة تتكئ مبتهجة على ذراع الشيخ "أحمد" الذي فقد وعيه من الفرح.

وسألت خطيبها في دلال:

– هل ثمة حوانيت كثيرة في عاصمتنا؟

فأجاب وهو يرسل ضحكة عالية من تحت لثامه:

– بالأسف.... الأسف. بونو رومي بونو.

عندما أزف الرحيل انتابت "كليمنتين" نوبة انفعال، فقالت:

– اسمع يا"كازمير"... لقد كنت دائماً رقيق الحاشية معي. سأصبح ملكة. فإذا قامت في وجهك أية متاعب– هنا– فعدني، أقسم لي....

وفهم الشيخ مرادها، وخلع خاتماً من أصبعه ووضعه في أصبعي وقال مؤكداً علي:

– سيدي "كازمير"! رفيق. تعال لمقابلتنا. خذ خاتم السيد "أحمد" وأظهره. كل فرد في "الحجار" رفيق. بونو حجار بونو.

ولما غادرت محطة "ليون" أحسست بأنني قد أتممت أظرف فكاهة.

كان قائد "جيتومير" ثملا تماماً. وقد لقيت صعوبات جمة لأفهم نهاية حديثه؛ لأنه كان يخلطه بمقطوعات غنائية مأخوذة من أحسن أغنيات "چاك أوفنباخ":

ثمة شاب كان يجتاز غابة

وهو شاب جميل غض الإهاب

وفي يده تفاحة

لعلك من هذا تتخيل المنظر.

«ولكن ترى على من كانت المفاجأة السيئة عند ضربة سيدان؟ كانت على "كازمير"، "كازمير" الصغير. ففي اليوم الخامس من شهر سبتمبر (أيلول) كان علي أن أدفع خمسة آلاف فرنك. ولم يكن معي فلس واحد.... ولا فلس واحد. فأخذت قبعتي واستجمعت شجاعتي ورحلت إلى "التويلري". لم يعد هناك إمبراطور. يالله... ولكن الإمبراطورة طيبة جداً. ألفيتها وحدها– آه! ما أسرع ما يهرب الناس في مثل هذه الظروف– وحدها مع أحد أعضاء مجلس الشيوخ، السيد "ميريميه" الأديب الوحيد الذي عرفته. هو أيضاً رجل نبيل. وكان يقول لها: «سيدتي– يجب أن نفقد كل أمل؛ فإن السيد "تيير" الذي قابلته منذ حين على "البون رويال" لا يريد أن يغير رأيه».

فقلت بدوري:

– مولاتي ..... إن جلالتك ستعرفين دائماً أين يكون الأصدقاء الحقيقيون.

ولثمت يدها.

"إفوهيه" إن للغانيات

وسائل غريبة

لاستمالة الشبان

«وذهبت إلى منزلي في شارع "دي ليل". وفي الطريق قابلت بعض الرعاع الذين أصبحوا يكونون الهيئة التشريعية في دار البلدية فأجمعت أمري، وقلت لزوجتي:

سيدتي! مسدساتي.

فسألت في انزعاج:

– ماذا حدث؟

– لقد فقدنا كل شيء. ولم يبق إلا أن ننقذ شرفنا. سأذهب إلى المتاريس.

فأجهشت بالبكاء وسقطت بين ذراعي وهو تقول:

– آه! "كازمير". لم أكن أعرفك حق المعرفة. اغفر لي.

فأجبت في وقار وانفعال:

– إني أغفر لك يا "أوريلي"، لطالما أخطأت في حقك أنا أيضاً.

وانتشت نفسي من هذا الموقف الكئيب. كانت الساعة السادسة وفي شارع "دي باك" ناديت حوذيا وقلت له:

– أنفحك عشرين فرنكاً إذا أوصلتني إلى محطة "ليون" لألحق بقطارالساعة السادسة والدقيقة السابعة والثلاثين الذاهب إلى "مرسيليا"».

ولم يستطع قائد "جيتومير" أن يحدثني بأكثر من ذلك؛ إذ كان قد تدحرج على الوسائد واستغرق في نوم عميق.

واقتربت من النافذة الكبيرة وأنا أترنح.

كانت الشمس تشرق صفراء شاحبة من وراء الجبال الزرقاء.

الفصل الرابع عشر

ساعات الانتظار

كان "دي سانت أفيت" يؤثر أن يحدثني ليلا بتفاصيل قصته العجيبة فيسردها أجزاء صغيرة حسبما وقعت دون أن يقدم أو يؤخر من حوادث تلك المغامرة التي كنت أعرف نهايتها الفظيعة من قبل. ولم يكن ذلك ليحاول التأثير في من غير شك؛ إذ كنت أشعر بأنه بعيد كل البعد عن هذا. بل السبب الحالة العصبية الشاذة التي أغرقه فيها بعث الذكريات.

ووصلت في هذا المساء القافلة التي تنقل إلينا البريد من فرنسا، وكانت الخطابات التي أحضرها "شاتلان" مازالت ملقاة على المنضدة الصغيرة لم تفض أختامها بعد. وكان المصباح، وهو أشبه بهالة شاحبة وسط بيداء واسعة من الظلمة، ويتيح لنا أن نتعرف أصحاب خطوط العناوين. آه! ما أشد ابتسامة الظفر التي شاعت على وجه "دي سانت أفيت" إذ دفعت جانباً بهذه الرسائل وقلت في صوت مبهور:

– أكمل!

وقبل دون أن ألح في الرجاء:

– ليس ثمة شيء يمكن أن يعطيك فكرة عن الحمى التي انتابتني من اليوم الذي قص علي فيه قائد "جيتومير" قصته حتى اليوم الذي ألفيت نفسي فيه أمام "أنتينيا". وأغرب ما في ذلك هو أن فكرة أنني محكوم عليه بالموت لم يكن لها أثر بأية حال في هذه الحمى. بل هي على العكس كانت ترجع إلى تلهفي إلى وقوع الحادث الذي سيكون رائد موتي: وهو دعوة "أنتينيا". ولكن هذه الدعوة لم تسارع إلى الحدوث. ومن هذا التأخير تولد سخطي المضني.

ترى هل مرت بي لحظات يقظة ذهنية خلال هذه الساعات؟

لا أظن ذلك. لا أذكر أنني قلت لنفسي مطلقاً: "ماذا ؟ ألا تخجل؟ إنك أسير في موقف شائن ولا تحاول أن تسعى إلى تحرير نفسك فحسب، بل تبارك هذه العبودية وتتمنى هلاكك". ولم أكن أنتحل لرغبتي في البقاء هناك كي أتتبع أطوار المغامرة حتى الاعتذار بأني لا أريد الهروب دون "مورانج". ولئن كان قد تملكني قلق خفي لعدم رؤية "مورانج"، فإن ذلك كان لأسباب تختلف عن رغبتي في أن أراه سليما معافى.

وعلى كل حال كنت أعرف أنه سليم معافى. كان الطوارق البيض من خدم "أنتينيا"

الخصوصيين لا ينقلون خبراً بكل تأكيد. ولم تكن النساء أكثر منهم كلاماً. كنت أعرف بالفعل عن طريق "سيدة" و"عجيدة" أن رفيقي مغرم بالرمّان، وأنه لا يحتمل الكسكسي بالموز؛ ولكني إذا حاولت أن آستنبئهن خبراً غير هذه الأخبار، أراهن يهربن مذعورات في الممرات الطويلة. وكانت الحال تختلف كل الاختلاف مع "تانيت زرجا". كان يبدو أن هذه الصغيرة تكره أن تذكر أمامي أي حادث يتصل بـ"أنتينيا". غير أنها كانت- وكنت أعرف ذلك- وفية لسيدتها وفاء الكلب الأمين. ولكنها كانت تلزم الصمت في عناء لو تفوهت أمامها باسم "أنتينيا" أو اسم "مورانج".

أما البيض فكنت لا أرضى لنفسي مطلقاً أن أستنبئ هؤلاء المرائين الكئاب. وعلى كل حال كان ثلاثتهم لا يميلون إلى ذلك. وكان قائد "جيتومير" ينغمس في الشراب أكثر فأكثر. ويخيل إلي أنه قد أذهب بقية عقله في ذلك المساء الذي باح لي فيه بأسرار شبابه. كنت أقابله من حين إلى حين في الممرات التي غدت فجأة ضيقة في نظره وهو يغني بصوت أجش مقطعاً من أنشودة «الملكة هورتانس»:

فلتكن زوج ابنتي "إيزابيل" في الحال،

فهي أجمل الفتيات وأنت أشجع الشبان.

القس "سباردك". كنت لطمت بسرور هذا البخيل. أما الرجل القصير البشع ذو الوشاح، ذلك الرجل جامد الإحساس مسجل بطاقات قاعة المرمر الأحمر، فكيف لي أن أقابله دون أن أصيح به:

«هيه يا سيدي الأستاذ! هاهي ذي حالة ترخيم شاذة أطلنطينيا- حذفت الألف والكاف واللام! هاك حالة شاذة مثلها: "كليمنتينيا"- ترخيم الكاف واللام والياء والميم. ولو كان "مورانج" بيننا لقال كثيراً من الأشياء العلمية الجميلة في هذا الموضوع. ولكن مع الأسف لا يتنزل "مورانج" إلى الحضور بيننا. لم نعد نرى "مورانج"».

ولقيت رغبتي الشديدة في استطلاع الأخبار ترحيباً من جانب "روزيتا" العجوز السوداء مقلمة الأظافر. ولم يحدث لي أن قلمت أظافري قط مثلما فعلت في هذه الأيام القلقة. في هذه الساعة – وبعد ست سنوات- لابد أن تكون قد ماتت. ولا يقلل من احترامي لذكراها أن أقول إنها كانت مغرمة جدًّا بالشراب. كانت تقبل دون ممانعة كل ما أقدم لها من زجاجات الشراب التي كنت أشربها معها تأدباً مني.

على عكس العبيد الذين يجلبون من الجنوب لإرسالهم إلى "تركيا" بوساطة تجار مدينة "غاط". ولدت هذه في "القسطنطينية"، وجاء بها إلى إفريقيا سيدها الذي عين قائمقام "غداميس"... ولكن لا تنتظر مني أن أعقد قصة جد مليئة بالحوادث بسرد كوارث مقلمة

الأظافر.

كانت تقول لي:

– "أنتينيا" هي ابنة الحاج "أحمد بن جمان" أمين وكالة الحجار وشيخ قبيلة "قل رحالة النبيلة". ولدت ١٢٨١هـ. ولم تقبل أن تتزوج من أحد. ونفذت إرادتها لأن إرادة النساء لها قيمتها في "الحجار" الذي تتربع هي اليوم على عرشه. إنها ابنة عم سيدي السنوسي، وحسبها أن تنطق بكلمة واحدة فيسيل دم النصارى متدفقاً من الـ"جريد" إلى الـ"توات" ومن بحيرة "تشاد" إلى "السنغال". ولو أرادت لعاشت جميلة معززة في بلاد النصارى، ولكنها تؤثر أن يحضروا بأنفسهم إليها.

فقلت:

– "صغير بن شيخ" إنك تعرفينه! إنه يخلص لها كل الإخلاص!

– ليس منا من يعرف "صغير بن شيخ" حق المعرفة؛ إذا هو على سفر دائم. إنه مخلص لـ"أنتينيا". إن "صغير بن شيخ" سنوسي. و"أنتينيا" ابنة عم شيخ السنوسيين. زد على ذلك أنه مدين لها بحياته. إنه أحد هؤلاء الذين قتلوا القائد الكبير "فلاترز"؛ ولذلك أراد "أخنوخين" أمين وكالة "الطوارق الأزجر"، أن يسلمه للفرنسيين خشية انتقامهم، ولما نبذته الصحراء كلها وجد مأمنه عند "أنتينيا". ولن ينسى "صغير ابن شيخ" ذلك أبداً؛ لأنه شجاع ويتمسك بسنة النبيﷺ. وحتى يثبت لها عرفانه للجميل أحضر لها– وكانت في ذلك الحين بكراً في العشرين من عمرها– ثلاثة ضباط فرنسيين من جيش الاحتلال الأول في "تونس". إنهم الآن في قاعة المرمر الأحمر يحتلون الأرقام ١ و ٢ و٣ .

– وهل يؤدي "صغير بن شيخ" مهمته بنجاح؟

– إن "صغير بن شيخ" مدرب تمام التدريب، ويعرف الصحراء الواسعة كما أعرف أنا حجرتي على قمة الجبل. ولقد أخطأ في بادئ الأمر. وهكذا في أول أسفاره أحضر لنا الشيخ "لميج" والقس "سباردك".

– وماذا قالت "أنتينيا" حينما رأتهما؟

– "أنتينيا"؟ لقد أغرقت في الضحك حتى عفت عنهما. واضطرب "صغير بن شيخ" إذ رآها تضحك بهذا الشكل. ومنذ ذلك الحين لم يخطئ قط.

– ألم يخطئ بعد ذلك قط؟

– لا! لقد قلمت أظافر كل من جاء بهم إلى هنا، فكانوا جميعا شباناً جميلي الشكل. ولكنني لا أرى بدا من القول بأن رفيقك الذي قادوه إليها بعدك في ذلك اليوم هو على ما يخيل لي أجمل الجميع شكلا.

فسألتها لأحول مجرى الحديث:

– ولماذا لم تعد إلى القس وإلى السيد "لميج" حريتهما مادامت قد عفت عنهما؟

فقالت العجوز:

– يقال إنها وجدت لهما أعمالا يمكن أن يؤدياها لها. ثم لا سبيل لمن يدخل هنا مرة إ
روج، وإلا أسرع الفرنسيون بالمجيء ورأوا قاعة المرمر الأحمر، ونكلوا بنا جميعاً. وعلى
ل فجميع الذين قادهم "صغير بن شيخ" إلى هنا، لم يحاولوا- باستثناء شخص واح
رب بعد أن رأوا "أنتينيا".

– وهل تحتفظ بهم طويلا؟

– ذلك يرجع إليهم وإلى ما تجد فيهم من لذة. في المتوسط شهرين أو ثلاثة ع
سب... وثمة ضابط بلچيكي عملاق لم يمكث إلا ثمانية أيام. وعلى عكس ذل
كر الجميع هنا الصغير "دوجلاس كين" – وهو ضابط إنجليزي- فقد احتفظت به ق
م.

– ثم؟

فأجابت العجوز كأن سؤالي قد أدهشها:

– ثم مات.

– وبأي شيء مات؟

فقالت كما قال "لميج" من قبل:

– كالآخرين جميعاً. مات بالحب.

واستمرت في حديثها.

– بالحب! إنهم جميعاً يموتون بالحب، عندما يدركون أن عهدهم قد ولى. وأن "صغير
يخ" قد رحل يطلب غيرهم. كثيرون منهم قد قضوا نحبهم في بطء وعيونهم مغرور
دمع العزيز؛ إذ صاروا لا يغمض لهم جفن ولا يقبلون على طعام. ولقد جن ضابط
حرية الفرنسية، فكان يرسل صوته في الليل بأغنية حزينة كانت تتردد أصداؤها في أنح
بل. ورجل آخر- وهو إسباني- انتابته ثورة عنيفة، حتى كان يحاول أن يعض كل
صادفه. فاضطررنا إلى قتله. ومات كثيرون بالكيف. والكيف أشد خطراً من الأفيون. فإذ
مرهم اليأس من "أنتينيا" أقبلوا على التدخين. وهكذا مات معظمهم وهم أسعد الجم
ا. أما الصغير "كين" فقد مات ميتة أخرى.

– وكيف مات الصغير "كين"؟

– مات بطريقة شقت علينا جميعاً. قلت لك إنه قضى مدة بيننا، وكنا قد ألفناه. ل

وجد في حجرة "أنتينيا" منضدة صغيرة من القيروان مطلية بالأزرق واللون الذهبي عليها جرس ومطرقة طويلة من الفضة لها يد ثقيلة من الأبنوس. هي "عجيدة" التي أخبرتني بهذه الواقعة. فلما أخلت "أنتينيا" سبيل "كين" الصغير، مبتسمة كعادتها، مثل أمامها صامتاً شاحباً، فضربت الجرس ليخرجوه. فدخل طارقي أبيض، غير أن الصغير "كين" أمسك بالمطرقة. فإذا الطارقي الأبيض ينطرح على الأرض مشجوج الرأس. وعلت ثغر "أنتينيا" ابتسامة ظلت ملازمة لها. ثم اقتيد "كين" الصغير إلى حجرته. وغافل حراسه في الليلة نفسها، وقفز من النافذة على ارتفاع ستين مترا. وأخبرني عمال ورشة التحنيط بأنهم عانوا صعاباً جمة في تحنيط جثته، غير أنهم أتموا مهمتهم في نجاح. ما عليك إلا أن تذهب لترى بنفسك وهو يمثل الكوة رقم ٢٦ في قاعة المرمر الأحمر.

وأخفت العجوز انفعالها بكأس الشراب، ومضت في حديثها قائلة:

- قبل ذلك بيومين جئت لأقلم أظافره هنا. فقد كانت هذه الحجرة حجرته. وقد جعل يكتب بسكينه شيئاً على الحائط بجوار النافذة. انظر! تستطيع أن ترى ذلك الآن...

أليس هو القدر الذي جعل في منتصف هذه الليلة من ليالي شهر يوليو (تموز)....

لو أني قرأت في لحظة أخرى هذا البيت من الشعر المنحوت في الصخر بجانب النافذة التي قفز منها الضابط الإنجليزي الصغير لامتلأت نفسي اضطراباً لا يحد. غير أنه كانت تستولي على نفسي في تلك اللحظة فكرة أخرى. فقلت في صوت حاولت أن يكون هادئاً ما استطعت:

- أخبريني.... عندما تبسط "أنتينيا" سلطانها على الواحد منا تحتجزه بالقرب منها. أليس كذلك؟ ألا نراه بعد؟

فأومأت العجوز بالنفي قائلة:

- إنها لا تخشى أن يهرب؛ فإن الجبل مغلق تماماً. وليس عليها إلا أن تطرق الجرس فيكون في الحال بجوارها.

- على أني لم أر زميلي منذ دعته.

- إن كنت لم تره فذلك يعود إلى أنه يؤثر البقاء بجوارها. إن "أنتينيا" لا ترغمه على ذلك، وهي أيضاً لا تحرم عليه شيئاً.

فضربت المنضدة بقبضة يدي في عنف:

- اذهبي أيتها العجوز المعتوهة! اغربي عن وجهي بأسرع ما يمكن. وفرت "روزيتا" مذعورة بعدما جمعت في عجلة أدواتها الدقيقة.

أليس هو القدر الذي جعل في منتصف هذه الليلة من ليالي شهر يوليو (تموز)....

وأذعنت لاقتراح المرأة السوداء، وتتبعت الممرات، وضللت طريقي ثم هداني إليه القس "سباردك" الذي صادفته أمامي. وأخيراً دفعت باب قاعة المرمر الأحمر ودخلت.

وأنعشتني هذه البرودة المعطرة. ليس ثمة مكان كئيب، مهما تكن كآبته، إلا يشيع البهجة فيه خرير الماء. وسكنت نفسي إلى الهدير الذي وسط القاعة. وتذكرت أني كنت ذات يوم– قبل المعركة– منطرحاً على الأرض مع فصيلتي بين الأعشاب العالية في انتظار اللحظة التي نسمع فيها الصفير فننهض تحت طلقات الرصاص. وكان هناك عند قدمي جدول صغير، فجعلت أنصت إلى خرير الماء وأنا أعجب بتلاعب الظلال والأضواء في الماء الشفاف والحشرات الصغيرة والأسماك السوداء والأعشاب الخضراء والرمال الصفراء المتموجة المتون.... ما أشد ما أثارني غموض الماء!

هنا في هذه القاعة الكئيبة أحس أن الهدير المظلم يثير شجوني، وأنه صار صديقاً لي. فهو يحثني على ألا أتخاذل أمام هذه البراهين الجامدة على كثير من الجرائم الشنيعة.

رقم ٢٦ حقا إنه الملازم "دوجلاس كين" ولد في "أدنبرة" يوم ٢١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٨٦٢ . توفي في "الحجار" يوم ١٦ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٠ ». ثمان وعشرون سنة. ولما يكن قد بلغ الثامنة والعشرين! وجه نحيل جداً تحت الرداء الأوريشلكي، وفم حزين مشبوب العاطفة. إنه هو بالفعل. ياله من صغير مسكين! "أدنبرة"! إنني أعرف "أدنبرة" حق المعرفة وإن كنت لم أذهب إليها قط. يمكن أن نرى تلال "بنتلاند" من جدران القصر. كانت الآنسة "فلورا ستفنسن" الرقيقة تقول لـ"آن دي سانت إيف": «انظري إلى أسفل قليلا! سترين في ثنية التل مجموعة من الأشجار يتصاعد من بينها خيط دقيق من الدخان. إنه كوخ "سوانستون" حيث نقيم أنا وأخي مع خالتنا. ما أسعدني إذا أعجبك منظره حقا!» ولما رحل "دوجلاس كين" إلى "دارفور" كان قد ترك وراءه من غير شك "فلورا" أخرى شقراء مثل شقراء "سانت إيف". ولكن أين تكون أولئك النحيفات من "أنتينيا"! حتى "كين"، الرجل الفطن الذي خلق لمثل هذا الحب قد هام هو أيضاً بالأخرى: لقد مات . وها هو ذا الرقم ٢٧ الذي تحطم بسببه "كين" على الصخور الصحراوية، وقد مات هو أيضاً.

الموت والحب. هاتان الكلمتان : يا لدويهما الطبيعي في قاعة المرمر الأحمر! وما أعظمها حين تبدو "أنتينيا" وسط هذه الدائرة من التماثيل الشاحبة! وهل يحتاج الحب إلى الموت ليتكاثر؟ فثمة نساء أخريات في العالم يماثل جمالهن جمالها من غير شك. بل ربما كن يبذذنها جمالا. إني لأشهدك على أني لم أقل إلا القليل عن جمالها. فكيف إذن كان هذا الميل، هذه الحمى، هذه التضحية بإرادتي؟

كيف تأتي لي- كي أحتضن هذا الشبح المتهالك، أن أقدم على أعمال لا أجرؤ على تذكرها خشية أن تعروني لذكراها رعدة في الحال؟

ها هو ذا رقم ٥٣ ، الأخير. سيكون "موراتج" رقم ٥٤، ورقم ٥٥ سأكونه أنا بعد ستة شهور أو ربما كان بعد ثمانية. وعلى كل حال كما حدث للآخرين سيضعون في هذه الكوة صورة مطابقة لي دون عينين: روح ميت وجسد ظفر بمأربه.

قد بلغت الآن قمة السعادة، بلغت النشوة التي أستطيع أن أحللها. ما أشد ما كنت طفلا منذ حين! ثارت ثائرتي في وجه مقلمة الأظافر العجوز. كنت أغار من "موراتج" أقسم على ذلك. ولماذا لم تأخذني الغيرة من هؤلاء الماثلين أمامي ومن غيرهم ممن سيأتون واحداً بعد آخر هنا ليملأوا هذه الدائرة السوداء من الكوات الفارغة... "موراتج"، أعرف أنه في هذه اللحظة بجوار "أنتينيا". أشعر ببهجة مريرة إذ أفكر في بهجته. ولكن في ذات مساء بعد ثلاثة أشهر- أو لعلها أربعة- سيحضر المحنطون إلى هنا وستشتمل الكوة رقم ٥٤ على فريستها. وحينئذ سيتقدم إلي طارقي أبيض. سأرتعد لروعة الموقف. سيلمس ذراعي. وسيحين حينئذ دوري في ولوج الأبدية من طريق باب الحب الدامي.

ولما أفقت من تأملاتي، وجدت نفسي في المكتبة وقد أخذ الليل الثقيل يشوه خيالات الأشخاص المتجمعين في الحجرة.

عرفت السيد "لميج" والقس والقائد و"عجيدة" واثنين من الطوارق البيض وآخرين غيرهم. تجمعهم كلهم مناقشة حامية.

فدنوت منهم، وقد أوحشني بل أقلقني أن أرى هذا العدد الكبير من أناس متنافري الأمزجة يجتمعون في مكان واحد.

فقد وقع حادث محير أثار في الحال ثائرة أهل الجبل؛ إذ شوهد اثنان من المستكشفين الإسبان ناحية الغرب وكانا قادمين من "ريو دي أورو".

ولما علم "صغير بن الشيخ" بذلك، تهيأ في الحال ليلقاهما.

غير أنه تلقى الأوامر في التو بعدم الرحيل.

ومنذ هذه اللحظة غدا مستحيلا أن يتطرق إلى أحد أي شك.

لقد أحبت "أنتينيا" لأول مرة.

الفصل الخامس عشر

شكاية "تانيت زرجا"

- أراوو.... أراوو.....

وصحوت من الغفوة التي غشيتني، وتفتحت عيناي، وتراجعت فجأة إلى الوراء.

- أراوو.

على نحو قدمين من وجهي رأيت رأس "هيرام الملك"، الأصفر المخطط بالسواد. كان الفهد يشاهد يقظتي في غير اهتمام كبير إذ كان يتثاءب. كان يفتح فمه الأحمر القاني ويقفله في كسل، فتلمع أنيابه الجميلة البيضاء.

وفي اللحظة نفسها سمعت رنين ضحكة عالية.

كانت الصغيرة "تانيت زرجا" تجلس القرفصاء على وسادة بجوار الأريكة التي أتمدد عليها، وكانت ترقب في تلهف كيف أواجه الفهد ورأت أن تقول لي:

- "هيرام الملك" ضجر، فجئت به إلى هنا.

فأجبت في غضب:

- حسناً! ولكن أليس في الإمكان أن يذهب بضجره إلى جهة أخرى؟

فقالت الصغيرة:

- إنه وحيد الآن. لقد طرد؛ إذ كان يحدث جلبة وهو يلعب.

وذكرتني هذه الكلمات بحوادث الليلة السابقة.

أردفت "تانيت زرجا":

- أستطيع أن أذهب به إن شئت.

- بل دعيه.

وجعلت أنظر إلى الفهد في رثاء. كانت تعاستنا المشتركة قد قاربت بيننا. وأخذت أربت جبهته البارزة. وأظهر "هيرام الملك" سروره بأن تمطى وأبدى مخالبه الضخمة. لابد أن يكون الحصير قد تجشم آلاماً جساماً في هذه اللحظة. وقالت الفتاة الصغيرة:

- "جاليه" هنا أيضاً.

- "جاليه"! ما هذا؟

وفي الوقت نفسه لمحت على ركبتي "تانيت زرجا" حيواناً غريباً في حجم قط كبير مفرطح

الأذنين، رمادي الشعر خشنه، كان يمعن النظر بعينين صغيرتين ورديتين.

فقالت "تانيت زرجا":

– إنه من نوع "المنجوست".

وقلت في ضجر:

– أهذا كل شيء؟

لابد أنني كنت أبدو عابساً مضحكاً مما جعل "تانيت زرجا" تضحك، فضحكت أنا أيضاً. وقالت بعد أن سكت عنها الضحك:

– إن "جاليه" صديقتي. إنني أنقذت حياتها. كنت حينئذ صغيرة جدا. سأحدثك بذلك مرة أخرى،انظر! ما أظرفها!

ووضعت الحيوان على ركبتي وهي تقول ذلك.

وقلت في بطء وأنا أمرّر يدي على ظهر الحيوان:

– إنه لظريف منك. يا "تانيت زرجا" أن جئت لزيارتي. كم الساعة إذن؟

– بعد التاسعة بقليل. انظر! لقد ارتفعت الشمس في السماء، اسمح لي بأن أسدل الستائر.

فملأ الظل الحجرة، وغدت عينا "جاليه" أكثر احمراراً، أما عينا "هيرام الملك" فقد غدتا خضراوين.

وأعدت قولي:

– إنه لظريف منك. أراك اليوم حرة. لم تأت قط إلى هنا مبكرة.

وغشيت سحابة سوداء جبهة الفتاة الصغيرة وقالت في خشونة:

– في الواقع إنني حرة.

وأمعنت النظر في "تانيت زرجا". ولأول مرة أدركت أنها جميلة. كان شعرها المرسل على كتفيها مجعداً أكثر منه مموجاً. وبدت ملامحها طاهرة للغاية، أنف معتدل، وفم رقيق دقيق الشفتين، وذقن يدل على العزم، كان لونها نحاسيا لا أسود. ولم يكن جسمها النحيف يشبه في شيء هذه القطع الكريهة من الدهن كما هو الحال في أجسام غيرها من السود المدللين.

كان يكتنف جبهتها وشعرها إطار مستدير عريض من النحاس. كانت تلبس في ساعديها وأسفل ساقيها سوارين وخلخالين أعرض من إطار شعرها، وكانت ترتدي قميصاً من الحرير الأخضر ذا رقبة مستديرة موشاة بالذهب: خضرة وبرنز وذهب.

وسألتها في هدوء:

– أأنت سنراوية يا "تانيت زرجا" ؟

فأجابت في شيء من الزهو:

– أنا سنراوية.

وقلت لنفسي: «طفلة غريبة».

ومن الواضح أن ثمة نقطة لا تريد "تانيت زرجا" أن تحول دفة الحديث إليها. وإنني لأذكر مسحة الألم التي غشيتها حين أخبرتني بأنهم بطرد "هيرام الملك" وهي تنطق كلمة «لقد طرد». واستطردت قائلة:

– إنني "سنراوية". ولدت في بلدة "جاو" على نهر "النيجر"، وهي عاصمة السنراويين القديمة. لقد تربع آبائي على عرش الإمبراطورية المندنجية، وليس ثمة ما يدعو إلى احتقاري إذا كنت تراني هنا.

وأخذت "جاليه" تصقل شواربها البراقة بيديها وقد جلست على مؤخرتها الصغيرة تحت أشعة الشمس في حين كان "هيرام الملك" منبطحاً على الحصير غارقاً في النوم، وأخذ يرسل من حين إلى حين زفرات الألم. وقالت "تانيت زرجا" وقد وضعت أصبعها على شفتيها:

– إنه يحلم.

فقلت:

– لا يحلم غير حيوان الببر.

فأجابت في رزانة دون أن يبدو عليها أنها فهمت النكتة الباريسية:

– إن الفتاة تحلم أيضاً.

ثم كانت لحظة صمت، ثم قالت:

– لابد أن تكون جائعاً، وأعتقد أنك لا تجد لذة في تناول الطعام مع الآخرين.

لم أجب. فاستطردت قائلة:

– يجب أن تأكل، سأذهب لإحضار طعام لك ولي إن سمحت، وسأحضر طعام "هيرام وجاليه" كذلك. يجب ألا تظل وحيداً إذا ما خالجتك الشجون.

وخرجت الساحرة الخضراء الذهبية دون أن تنتظر مني جواباً. وهكذا بدأت علاقتي بـ"تانيت زرجا". كانت تأتي إلى حجرتي كل صباح وبصحبتها الحيوانان. وقلما تحدثني عن "أنتينيا"، وإن حدث فبطريق غير مباشر دائماً. ولعل السؤال الذي كانت تراه دائماً على شفتي قد بدا لها لا يحتمل. وكنت أشعر بها تتجنب دائماً كل المواضيع التي لا أجرؤ أن أحول إليها مجرى الحديث.

ولكي تتجنب هذه المواضيع تماماً كانت تتكلم وتتكلم كببغاء محمومة.

ومرضت، فعالجني هذا الملك العطوف معالجة لم أعهدها عن قبل. وكان الحيوانان الكبير والصغير يقبعان بجواري من الناحيتين. وقد كنت أراهما طيلة مدة هذياني يثبتان فيَّ أعينهما الحزينة. وأخذت "تانيت زرجا" تقص علي أقاصيصها الحلوة في صوت شجي، من بينها القصة المفضلة عندها وهي تاريخ حياتها.

ولم ألاحظ، إلا بعد ذلك بكثير وفجأة، وإلى أي مدى بلغ تأثير هذه المتوحشة الصغيرة في حياتي. أي فتاتي العزيزة أينما تكوني في هذه اللحظة ومهما يكن من بعد الشاطئ الهادئ الذي ترقبين منه فجيعتي ومأساتي، فالقي نظرة على هذا الصديق واغفري له أن لم يولك من الاهتمام منذ اللحظة الأولى ما أنت خليقة به.

قالت لي:

– إني أحتفظ من ذكريات طفولتي بصورة للشمس وهي فتية وردية تتصاعد خلال ضباب الصباح على نهر جار قوي التيار «النهر المليء بالماء» "النيجر". كان.... ولكنك لا تصغي إلي.

– أي صغيرتي "تانيت"! أقسم إنني لمصغ إليك.

– أحقاً أني لا أضايقك؟ أتريد أن أتكلم؟

– تكلمي يا "تانيت زرجا". تكلمي.

– إذ كنا، أنا ورفيقاتي الصغيرات، كنت رقيقة الحاشية معهن، كنا نلعب على شاطئ النهر المليء بالماء تحت شجر العناب وهو من فصيلة "الزجزج" الذي أدمى شوكه رأس نبيكم والذي نسميه شجر الفردوس؛ إذ تحت هذا الشجر– كما قال نبينا– سيأوي المختارون في الجنة. وقد يبلغ حجمه أحياناً من الضخامة بحيث لا يستطيع فارس أن يجتاز ظلاله في قرن من السنين.

«وهناك كنا نجدل أكاليل جميلة من الأزهار المتنوعة، ثم نلقيها إلى المياه الخضراء لإبعاد النحس، وكنا نضحك كثيراً حينما يخرج فرس البحر رأسه الضخم السمين ليستنشق الهواء، ونحن نضربه في غير ما خبث حتى يغوص ثانية وسط الزبد المنهمر».

«كان ذلك في الصباح. ثم ينتشر في "جاو" المحترقة موت ساعة القيظ، حتى إذا انتهت أخذنا نعود إلى شاطئ النهر لنرى بين سحب الناموس والحشرات التماسيح الضخمة التي كأنها مطعمة بالبرنز وهي تصعد شيئاً فشيئاً على النهر وتنغمس في خبث في الأوحال الصفراء والأراضي المنحدرة المنخفضة».

« نطاردها أيضاً كما طاردنا فرس النهر في الصباح، ونحتفل بالشمس وهي تنحدر وراء

فروع "الدلدل" الأسود. كنا نشكل الدائرة العادية ونحن نضرب بأقدامنا ثم بأيدينا وننشد نشيد السنراويين».

«وهكذا كانت مشاغلنا العادية ونحن فتيات طليقات. وإنك لتخطئ إذا اعتقدت أننا كنا طائشات. وسأقص عليك، إذا أردت، كيف أنقذت أنا التي تحدثك الآن، قائداً فرنسياً عالي المقام وأعلى منك رتبة بكثير كما كان يدل على ذلك عدد الأشرطة المذهبة التي كان يضعها على كم ردائه الأبيض».

فقلت ونظرتي شاردة:

– قصي يا صغيرتي "تانيت زرجا".

فاستطردت في قليل من الكدر:

– إنك مخطئ إذ تبتسم ولا تعيرني اهتماماً كثيراً. ولكن ما خطر ذلك؟ إنني أقص هذه الأشياء لنفسي.... للذكرى. ووراء "جاو" تجد "النيجر" ثانية. وثمة في النهر رأس صغير تكثف فيه أشجار المطاط. كان ذلك في أمسية من أمسيات أغسطس (آب) والشمس على وشك المغيب، ولم يكن في الغابة المجاورة من عصفور إلا جثم على غصن جامد في ارتقاب الفجر. سمعنا فجأة صوتاً غريباً آتياً من الغرب: بوم، بوم، بوم، بوم..... بوم، بوم..... بوم ثم أخذ يعلو، وتلاه فجأة طيران غريب من طيور مائية، القنبر والبط والبجع وغيرها، وانتشرت فوق شجر المطاط يتبعها عمود من الدخان الأسود وقد أماله النسيم الذي أخذ يتحرك.

كانت باخرة تدور حول الرأس، فهيجت في جميع أنحاء النهر أمواجاً أخذت تهز الأعشاب المتمايلة. وعلى مؤخرتها كنا نرى العلم الأزرق الأبيض الأحمر كأنما يجر على الماء ظلمة المساء الشديدة.

«وأقبلت لترسو بجانب المرسى الخشبي، وأنزل قارب فيه بحاران يجدفان وثلاثة قواد قفزوا بعد قليل إلى الشاطئ".

وطلب أكبرهم سنا، وهو ضابط فرنسي كبير يلبس برنساً كبيراً أبيض يعرف لغتنا معرفة جيدة، طلب أن يتحدث إلى الشيخ "سني أزكيه". فتقدم أبي قائلا إنه هو الشيخ. فأخبره الضابط الكبير بأن قائد منطقة "تمبكتو" في غاية من الغضب،وأن الباخرة قد ارتطمت على مسافة ميل بحاجز لا يرى من الأعشاب، وقد أصيبت بعطب، وأنه لا يستطيع مواصلة سيرها إلى "أنسانجو" على هذه الحال.

فأجاب أبي بأنه يرحب بالفرنسيين حماة السكان البائسين من الطوارق، وأن هذا الحاجز لم يبن لقصد خبيث وإنما للأسماك والغذاء، وأنه يضع تحت تصرف القائد الفرنسي كل موارد

"جاو" وبينها ورشة حديثة لإصلاح الباخرة.

« وبينما كان يتكلم نظر إلي القائد الفرنسي ونظرت إليه أيضاً ».

« كان رجلا كبير السن ضخم الجثة عريض المنكبين قويهما وإن كانا مقوسين قليلا، وله عينان صافيتان صفاء الينبوغ ».

فقال بصوته الرقيق:

– تعالي هنا يا صغيرتي.

فقلت وقد غاظني عدم اكتراثه:

– إنني ابنة الشيخ "سني أزكيه" وأنا أفعل ما أريد.

فأجاب وهو يبتسم:

– أنت على حق، لأنك جميلة. هلا أعطيتني الأزهار التي تحملينها حول عنقك؟

كان عقد كبير من الزنابق الحمراء، فأعطيته إياه، فقبلني وساد بيننا السلام.

وفي أثناء ذلك كان البحارة ومعهم أقوى رجال القبيلة قد جروا الباخرة إلى منحنى من النهر بإرشاد أبي.

وقال رئيس الميكانيكيين بعد أن فحص العطب:

– سيستغرق العمل طول سحابة غد ياسيدي الكولونيل. لن نستطيع الرحيل إلا بعد صباح الغد. هذا ويجب أن يواصل هؤلاء البحارة الكسالى العمل.

فأجاب صديقي الجديد متذمراً:

– يا للمضايقة!

ولكن ضيقه لم يدم طويلا وقد سعينا جهدنا أنا ورفيقاتي إلى تسليته. استمع إلى أجمل أغانينا، ولكي يشكرنا أذاقنا أطيب الأشياء التي أنزلت من الباخرة لعشائه. ونام في بيتنا الكبير الذي أخلاه أبي له. ونظرت طويلا قبل أن أنام من بين الغصون التي تكون جدران المنزل حيث انسحبت مع والدتي، فرأيت علم الباخرة يهتز في حركة لولبية حمراء على سطح المياه المظلمة.

وفي تلك الليلة رأيت حلماً مفزعاً: رأيت صديقي القائد الفرنسي يرقد آمناً وقد حلق فوق رأسه غراب وهو ينعق: غاق، غاق، إن ظل أشجار المطاط في "جاو"– غاق، غاق لن تساوي شيئاً الليلة القادمة– غاق، غاق، لا للقائد الأبيض ولا لأعوانه.

وما إن شعشع الفجر حتى ذهبت لمقابلة البحارة. كانوا يرقدون على ظهر السفينة منتهزين أن البيض الذين كانوا لا يزالون نائمين يستولي عليهم الكسل. فناديت أكبرهم سنا وحدثته آمرة:

- اسمع! هذه الليلة رأيت في حلمي الغراب الأسود، وقال لي إن ظل شجر "جاو" سيكون شؤماً على قائدكم الليلة القادمة....

ولما رأيت أنهم لا يزالون جامدين ممددين وعيونهم شاخصة نحو الأفق كأنهم لم يسمعوا شيئاً أضفت:

- وعلى أتباعه.

وكانت الشمس في كبد السماء، وكان الكولونيل يتناول الطعام في المنزل مع غيره من الفرنسيين عندما دخل الميكانيكي وقال:

- لست أدري ماذا حدث للبحارة، إنهم يعملون كالملائكة. فإذا استمروا هكذا ياسيدي الكولونيل فسنستطيع مواصلة السير هذا المساء.

فقال الكولونيل:

- هذا حسن، ولكني لا أحب أن يفسدوا العمل بسرعتهم. لا داعي للوصول إلى "أنسانجو" قبل نهاية الأسبوع... يستحسن أن نستأنف السير في الصباح.

فارتعدت رتقدمت منه متوسلة، وقصصت عليه قصة حلمي. فاستمع في ابتسامة الدهش، ثم قال في وقار:

- اتفقنا يا صغيرتي "تانيت زرجا"، سنبحر الليلة ما دمت تريدين ذلك.

وقبلني. كان الظلام قد انتشر لما نزلت الباخرة بعد إصلاحها منحنى النهر. وحيانا الفرنسيون طويلا، وكنت أرى في وسطهم صديقي. كانوا يلوحون بخوذاتهم إلى أن تواروا عن أبصارنا. ثم ظللت واقفة، وقد أصبحت وحدي على المرسى المترجح، وجعلت أنظر في النهر وهو يسيل، حتى اختفى في الليل صوت الباخرة ذات الدخان(١).

وتوقفت "تانيت زرجا" عن الحديث قليلا:

- كانت هذه ليلة "جاو" الأخيرة. وبينما أنا نائمة والقمر مازال عالياً فوق الغابة، نبح كلب ولكنه لم يطل، وأعقب ذلك صيحات الرجال ثم النساء... عويل وصرخات ليس في الإمكان أن تنسى أبداً إذا قدر للمرء أن يسمعها مرة واحدة. ولما طلعت الشمس ألفتني عارية مع رفيقاتي الصغيرات ونحن نجري متعثرات نحو الشمال بسبب سرعة الجمال التي يركبها الطوارق الذين يحرسوننا. وفي المؤخرة كانت نساء القبيلة، وبينهن أمي، يتبعننا اثنتين اثنتين والمذراق في أعناقهن. ولم يكن معنا إلا القليل من الرجال. وظل من بقي مع أبي "سني أزكيه" الشجاع أجساماً هامدة تحت أطلال "جاو" العشبية.

(١) انظر محاضر و"مجلة الجمعية الجغرافية" بـباريس (١٨٩٧) الخاصة برحلات الكولونيل "وفر" قائد منطقة "تومبكتو والملازمين" "بوردي وبلوزيه"، والأب "هاكار" من جمعية الآباء البيض، على نهر "النيجر". (تعليق السيد "لورو").

"جاو" التي هدمتها مرة أخرى عصابة من أولياء "مدين" أتوا ليجهزوا على فرنسيي الباخرة.

وأخذ الطوارق يدفعوننا ويدفعوننا لأنهم كانوا يخشون أن يُلحق بهم. وسرنا على هذا النحو عشرة أيام تقريباً. وكانت الحال تشتد بنا ما اختفت الذرة والكتان. وأخيراً بالقرب من "إبزاكريين"، في بلاد الـ"كيدال"، باعنا الطوارق لقافلة من المراكشيين الطرارزة، كانوا ذاهبين من "مبروك" إلى "غاط". وظننت أول الأمر أن السعد سيلازمنا إذا أبطأنا السير. ولكن فجأة أصبحت الصحراء حصى وصواناً وأخذت النسوة يتساقطن في حين كان آخر الرجال قد مات منذ أمد طويل تحت ضربات العصا إذ أبوا أن يتقدموا.

وكنت مازلت أقوى على المسير في المقدمة، وكنت أحاول ذلك ما استطعت لكي لا أسمع صرخات رفيقاتي الصغيرات على من تسقط منهن. ومن البديهي أن من تسقط لن تنهض ثانية، إذ ينزل أحد الحراس عن مطيته ويجرها قليلا إلى ناحية القافلة ويذبحها. ولكني سمعت ذات يوم صرخة اضطرتني إلى الالتفات إلى الوراء.... أمي كانت جاثية على ركبتيها وقد مدت إلي ذراعيها البائستين. وفي لحظة كنت إلى جوارها ولكن فرق بيننا مغربي ضخم يرتدي البياض وكان يلبس حول عنقه مسبحة سوداء وغمداً من الجلد نزع منه خنجره. مازلت أرى السلاح الأزرق على جلدها الأسمر. صيحة أخرى مفزعة... وبعد لحظة طردت بضربات هراوة غليظة وأخذت أجري وأنا أبتلع دموعي لأستعيد مكاني في القافلة.

وبالقرب من آبار "أسبو" هاجم فريق من الطوارق «قل تازحولت»، وهم عبيد القبيلة الكبرى «قل رحالة» التي تسيطر على "الحجار"، هاجم تجار الرقيق المغاربة وأبادوهم جميعا. وهكذا جيء بي إلى هنا. وقدمت هديه لـ"أنتينيا" التي أعجبت بي وأظهرت منذ ذلك الحين عطفها علي. فالتي تخفف اليوم من حمّاك بما تقص عليك من أقاصيص لا تصغي إليها، ليست بأمة، بل هي آخر سلالة الأباطرة الكبار السنراويين آخر سلالة "سني علي" مبيد الرجال والأقطار، آخر سلالة "محمد أزكيه" الذي قام بالحج إلى "مكة" مستصحبا معه ألفا وخمسمائة فارس وثلثمائة مثقال من الذهب. وكان سلطاننا يمتد من بحيرة "تشاد" إلى الـ"توات" والبحر الغربي، عندما كانت "جاو" ترفع قبابها عالية بين البلاد الأخرى، وبين أعدائها، ترفعها عالية أكثر مما يرتفع الأثل على نبات الذرة المتواضع.

الفصل السادس عشر

المطرقة الفضية

("لست أمتنع. ولست أريد إلا أن أعرف أين يجب أن أبخره[١]")

وها هي ذي حالة الجو في تلك الليلة التي حدث فيها ما سأقصه عليك. في نحو الساعة الخامسة أظلمت السماء وفي الجو الخانق نذر عاصفة قريبة.

سأذكر ذلك دائماً. كان ذلك يوم ٥ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٧ .

كان "هيرام الملك" و"جاليه" منطرحين على حصير حجرتي وقد أثقلتهما الهموم. وجعلت أرقب العلامات المنذرة بالبرق وأنا متكئ مع "تانيت زرجا" على حافة النافذة الصخرية.

وظهرت هذه العلامات واحدة بعد أخرى جاعلة في الظلمة التي أطبقت في ذلك الحين خطوطاً زرقاء، ولكن لم يعقبها رعد. لم تتمكن العاصفة من أن تقف عند قمم "الحجار"، مرت دون أن تنفجر. وتركتنا. غارقين في عرق كئيب.

فقالت "تانيت زرجا":

– إني ذاهبة للنوم.

لقد قلت إن حجرتها كانت فوق حجرتي، وكانت النافذة التي تنيرها تعلو النافذة التي كنت متكئاً عليها بعشرة أمتار.

حملت "جاليه" بين ذراعيها. أما "هيرام الملك" فلم يطعها، تشبث بمخالب أقدامه الأربعة في الحصير وجعل يرسل عواءه في غضب وحزن.

فقلت لـ"تانيت زرجا" آخر الأمر:

– دعيه يمكن أن ينام هنا هذه المرة.

وهكذا يتحمل هذا الحيوان حظا كبيراً من تبعة الحوادث التي ستقع بعد ذلك.

ولما أمسيت وحيدا، غرقت في أفكاري. كان الليل حالكاً وقد شمل السكون الجبل كله.

وأخذت زمجرة الفهد تزداد، فأفقت من تأملاتي.

كان "هيرام الملك" قد انتصب واقفاً عند الباب وقد أخذ يحفر بأظافره وهو الذي أبى منذ

---

(١) من "أندروماك" - ترجمة "طه حسين".

لحظات أن يتبع "تانيت زرجا". كان يريد أن يخرج. كان يريد أن يخرج. فقلت:

- حسبك! هذا كثير. فنم الآن.

وحاولت أن أنتزعه بعيداً عن الباب.

ولم يكن لمحاولتي هذه من نتيجة غير لطمة من مخلبه أضاعت توازني.

وحينئذ جلست على الأريكة.

ولم يمكث جمودي إلا لحظة قصيرة. وقلت في نفسي: "لابد أن أكون على شيء من الصراحة مع نفسي. فمنذ تركني "موراغ"، منذ رأيت "أنتينيا"، لم يدر بخلدي إلا خاطر واحد. وأي غناء في أن أخادع نفسي بقصص "تانيت زرجا"، وإن كانت طريفة؟ إن هذا الفهد علة ولعله يكون رائداً. آه! إني لأحس بأنه ستقع اليلة أحداث غامضة. فكيف تأتّى لي أن أجمد هكذا طويلا دون أن أفعل شيئاً.

وفي الحال حزمت أمري:

وقلت في نفسي: «لو أني فتحت الباب لقفز "هيرام الملك" في الممرات، ولكان علي أن أتبعه جارياً. لابد أن أغير خطتي».

كان ثمة حبل رفيع يحرك ستار النافذة فاقتلعته، وصنعت منه زماماً أثبته في طوق الفهد الحديدي.

ووار بت الباب.

- والآن نستطيع أن نسير. رويداً رويداً.

ولقد تجشمت مصاعب جمة في سبيل أن أحد من اندفاع "هيرام الملك" الذي أخذ يجرني وراءه مجتازاً الممرات المظلمة.

كانت الساعة دون التاسعة بقليل، والمصابيح الوردية في كواتها قد أوشكت أن تنطفئ. وكنا نصادف- من حين إلى حين- مصباحاً يقذف بآخر أضوائه. ياله من تيه! وأدركت في تلك اللحظة أنني لا أستطيع أن أهتدي إلى الحجرة. فلم يكن بد من أن أتبع الفهد.

كان ثائراً أول الأمر، ثم أخذ يعتاد صحبتي شيئاً فشيئاً وهو ينساب زاحفاً على الأرض ويرسل شهيق الفرح.

ليس ثمة ما يشبه ممرا مظلما كممر مظلم، على أنه جال بنفسي خاطر: لو أنني ألفيت نفسي فجأة في قاعة "البكاراه"! على أن هذا يعد ظلما نحو "هيرام الملك". لقد حرم هو أيضاً شخصاً عزيزاً عليه. إنه يحسن قيادتي إلى حيث أرجو أن يقودني.

وعند منحنى الممر انقشعت فجأة الظلمة التي كنا نتجه نحوها. وظهرت نافذة صغيرة خضراء حمراء يضيؤها نور خافت.

وتوقف الفهد في تلك اللحظة، وجعل يعوي عواء مختنقاً أمام أحد الأبواب عند النافذة المنيرة.

فعرفت فيه الباب الذي ولجته أول مرة مع الطارقي الأبيض أصبوحة وصولي، عندما هاجمني "هيرام الملك" وعندما ألفيت نفسي في حضرة "أنتينيا".

وهمست وأنا ألاطفه حتى لا يصدر عنه صوت يفضحنا:

- إننا اليوم صديقان حميمان.

وحاولت في اللحظة نفسها أن أفتح الباب. وكانت صورة النافذة في خضرتها وحمرتها تنعكس على الأرض.

مزلاج صغير أدرته. وفي هذه اللحظة قصرت من الزمام لكي أتمكن جيداً من "هيرام الملك"، وقد صار مهتاج الأعصاب.

كان الظلام يخيم على القاعة التي رأيت فيها "أنتينيا" لأول مرة. ولكن الحديقة التي تطل عليها كانت تلمع تحت أشعة باهتة يرسلها القمر من سماء أثقلتها عاصفة لما تهب. ما من نسمة، وكانت البركة تلمع كقطعة من القصدير.

جلست على إحدى الوسائد في حين أخذ الفهد يزمجر نافد الصبر، وقد أطبقت عليه بركبتي. وأخذت أفكر لا في الغاية- إذ كنت عقدت العزم عليها منذ أمد طويل- ولكن في الوسيلة إليها.

وحينئذ، خيل إلي أنني أسمع كلاماً يأتي من بعيد، همهمة أصوات خافتة.

وعلت زمجرة "هيرام الملك"، وحاول أن يفلت. فأطلت له الزمام قليلا وراح يتسلل ملتصقاً بالجدران المعتمة، متجهاً نحو ما بدا لي أنه مصدر الصوت. فتبعته وأنا أتعثر في الوسائد المنتثرة دون أن أحدث صوتاً ملحوظاً.

والآن، وقد تعودت النظر في الظلام، رأيت هرم البسط حيث كانت "أنتينيا" قد ظهرت لي.

وتعثرت فجاة. كان الفهد قد توقف عن السير. وشعرت بأني قد مشيت على ذيله. يا له من حيوان أمين! إنه لم يصرخ.

وشعرت بباب آخر وأنا أتحسس الجدار. ففتحته كالسابق في كثير من الخفة. فأرسل الفهد زمجرة ضعيفة. فتمتمت:

- "هيرام الملك"! صه.

ولففت عنقه القوي بذراعي.

وأحسست بلسانه الرطب الدفيء على يدي. كانت فرائصه ترتعد كأن سعادة بالغة

تهزها.

وظهرت أمامنا قاعة أخرى، أضيء الجزء الأوسط منها وحده. وفي منتصفها كان ستة رجال يجلسون القرفصاء على حصير يلعبون النرد وهم يحتسون القهوة في أقداح صغيرة طويلة العنق.

إنهم الطوارق البيض.

وكان المصباح المعلق في السقف يضيء حلقتهم والظلام يغمر كل ما حولهم.

وكانت الوجوه السوداء والأقداح النحاسية والبرانس البيضاء، والظلام والضوء المتحركان، كان كل ذلك يكون لوحة فنية فريدة.

كانوا يلعبون في جد وتفكير معلنين عن ضرباتهم بأصوات جافية.

وحينئذ وفي هدوء أيضاً نزعت الزمام من طوق الحيوان الصغير نافد الصبر.

- اذهب يا بني.

وقفز وهو يعوي عواء حادا. وحدث ما كنت أتوقع.

لقد بلغت القفزة الأولى بـ"هيرام الملك" وسط الطوارق البيض؛ فأحدث اضطرابا في هيئة الحراس. وفي قفزة أخرى دخل في الظلام. لمحت في إيهام، في الجانب الآخر للقاعة، مدخلا مظلما لممر آخر مواجه للممر الذي كنت توقفت فيه.

فقلت لنفسي: «إنها هناك».

وكان الاضطراب في الحجرة لا يوصف وإن كان صامتاً، وكان جليا أن مجاورة شخصية مهمة هي التي فرضت هذا التحفظ على الحراس المتخوفين، . كانت النقود وأبواق الزهر قد تدحرجت جانباً على حين تدحرجت الأقداح في جانب آخر.

وأخذ اثنان من الطوارق يدلكان جوانبهما ويبديان السخط لما اعتراهما.

وليس ثمة ما يدعو إلى القول بأني اهتبلت فرصة هذا الاضطراب الصامت لأتسلل إلى الحجرة.

وأصبحت الآن ملتصقاً بجدار الممر الثاني... الممر الذي اختفى فيه "هيرام الملك".

وفي تلك اللحظة قطع السكون رنين واضح. وتبينت من الرعدة التي انتابت الطوارق أن الطريق التي اتبعتها هي الصواب.

ونهض رجل من الستة، ومر بجواري فاقتفيت خطاه. وكان هدوئي تاما، وكانت كل حركاتي متزنة.

وقلت في نفسي: «وبم أخاطر وأنا في هذا الموقف؟ أن يعيدوني إلى حجرتي في أدب جم».

ورفع الطارقي ستاراً ودلفت وراءه إلى حجرة "أنتينيا".

كانت الحجرة الكبيرة مضاءة ومظلمة في وقت واحد. وبينما كان الجزء الأيمن حيث تقف "أنتينيا" يلمع من الضوء الذي ترسله مصابيح ذات مظلات، كان الجزء الأيسر مظلما.

إن من دخل بيوت المسلمين يعرف ما هو "الجنيول"، وهو كوة مربعة في الجدار على ارتفاع متر وربع المتر سد مدخلها ببساط، يرقى إليها المرء بأربع درجات خشبية. وتراءى لي "جنيول" عن اليسار، فولجته. كانت عروقي تنبض في الظلام غير أني كنت هادئاً جداً.

ومن هذا المكان كنت أرى كل شيء وأسمع كل شيء.

كنت في حجرة "أنتينيا". لا شيء غريب في هذه الحجرة سوى بعض السجاجيد الفاخرة. كان السقف مظلما، غير أن ثمة مصابيح متعددة الألوان كانت ترسل على الأقمشة البراقة والفراء أضواء متباعدة رقيقة.

كانت "أنتينيا" تدخن وهي ممدة على جلد أسد، وبجانبها صينية من فضة وإبريق. وكان "هيرام الملك" قد جثم عند قدميها يلعقهما في شغف. وكان الطارقي الأبيض قد وقف جامداً واضعاً يداً على قلبه والأخرى على جبهته في هيئة تحية.

وتكلمت "أنتينيا" في صوت جاف دون أن تنظر إليه:

- لم تركتم الفهد يمر؟ قلت إنني أريد أن أكون وحيدة.

فقال الطارقي الأبيض في خشوع:

- لقد داهمنا يامولاتي.

- لم تكن الأبواب موصدة إذن؟

لم يجب الطارقي، وسأل:

- أيجب أن أقصي الفهد؟

وكانت عيناه على "هيرام الملك"، الذي كان ينظر إليه في غير اكتراث، تعبران عن أمله في أن يكون الجواب بالسلب.

وقالت "أنتينيا":

- دعه مادام قد جاء هنا.

كانت تنقر خفيفاً على الصينية بغليونها الفضي.

وسألت:

- ماذا يفعل الكابتن؟

فأجاب الطارقي:

- لقد تناول عشاءه بشهية منذ قليل.

– ألم يقل شيئاً؟

– بلى! لقد طلب أن يقابل رفيقه الضابط الآخر.

وأخذت "أنتينيا" تنقر الصينية نقرات أخف.

– ألم يقل شيئاً غير ذلك؟

فأجاب الرجل:

– لا يا سيدتي.

وجرى الامتقاع على جبهة "غانية أطلنطا".

وخرج الطارقي بعد أن اكفهر لونه.

استمعت إلى هذا الحديث في قلق لا يمكن الإفصاح عنه. هكذا "موراني"... "موراني"... أصحيح إذن؟ أكان ظلما مني أن ارتبت في أمر "موراني"؟ لقد أراد أن يراني ولكنه لم يستطع...

ولم أحول نظري عن "أنتينيا".

لم تعد تلك الأميرة المتعجرفة الساخرة كما كانت في أول مقابلة لنا. ولم أعد أرى على رأسها الثعبان الذهبي ولا الأساور ولا الخاتم. كانت ترتدي فقط قميصاً واسعاً. وكان شعرها الأسود طليقاً من غير رباط وكان يشبه غطاء من الأبنوس وقد استرسل على كتفيها النحيفتين وذراعيها العاريتين.

كان جفناها الجميلان العريضان مصبوغين بلون أزرق، وفمها ينحرف به ميل يائس. ترى أخامرني فرح أم ألم حين رأيت "كليوباترة" الجديدة هذه ترتعد على هذا النحو؟ لست أدري.

كان "هيرام الملك" وهو جاث عند قدميها يرنو إليها في خضوع. وكانت مرآة من الأوريشلك ذات بريق ذهبي مثبتة في الجدار الأيمن. وفجأة نهضت "أنتينيا" لتمثل أمامها فرأيتها عارية، أي منظر مرير أخاذ! كيف تمثل أمام المرآة امرأة تعتقد أنها وحيدة، وهي تنتظر الرجل الذي تريد أن تخضعه لسلطانها.

وكانت تتصاعد أعمدة من الدخان العطري من ست مباخر منتشرة في أرجاء الحجرة. وكانت العطور البلسمية العربية التي يكوّن دخانها نسيجاً متموجاً مما هدأ من ثورة حواسي... كانت "أنتينيا" تبتسم وقد استدبرتني بظهرها ومازالت في استقامتها كالزنبقة أمام المرآة. ورنت خطوات صماء في الممر، وسرعان ما اتخذت "أنتينيا" مظهر الاسترخاء الذي بدت لي فيه أول مرة. لابد للمرء أن يرى مثل هذا المنظر لكي يؤمن به.

ودخل "موراني" الحجرة وقد سبقه الطارقي الأبيض.

كان هو أيضاً شاحباً بعض الشيء. ولكن أدهشني خاصة هذا التعبير الهادئ الذي كان يبدو على هذ الوجه الذي كنت أعتقد بأنني أعرفه. وشعرت أنني لم أفهم قط أي رجل كان "مورانخ".

ووقف منتصب القامة بين يدي "أنتينيا" دون أن يظهر أنه لاحظ حركة الدعوة إلى الجلوس التي أبدتها.

ونظرت إليه وهي تبتسم. وأخيراً قالت:

- لربما أدهشك أن طلبت إحضارك في مثل هذه الساعة المتأخرة.

ولم تتحرك قط أهداب "مورانخ".

وسألته:

- هل فكرت ملياً؟

وابتسم "مورانخ" ابتسامة رزينة ولم يجب.

ولمحت على وجه "أنتينيا" ماتبذله من مجهود لتحتفظ بابتسامتها؛ كنت أعجب برباطة جأش هذين المخلوقين.

واستأنفت قائلة:

- لقد طلبت إحضارك. أتدري لم؟ لأخبرك بشيء لا تتوقعه مطلقاً. لست أنبئك بشيء جديد إذ أقول لك إنني لم أصادف رجلا مثلك؛ فإنك لم تبد طيلة أسرك عندي إلا رغبة واحدة. لعلك تتذكر ما هي.

فقال "مورانخ" في بساطة:

- لقد طلبت منك الإذن لي برؤية صديقي قبل أن أموت.

لست أدري أي الشعورين تغلب في قلبي على الآخر عند سماعي هذه الكلمات: الفرح أم التأثر؛ الفرح أن أرى أن الكلفة لم ترفع بين "مورانخ" و "أنتينيا". والتأثر إذ أعلم رغبته الوحيدة. غير أن "أنتينيا" قالت في صوت هادئ:

- بالضبط. وقد دعوتك للحضور لهذا الغرض. ولأقول لك إنك ستراه، بل أزيد على ذلك. لربما زاد احتقارك لي حينما تتبين أنه يكفيك أن تعاندني لتضطرني إلى الخضوع لإرادتك، وأنا من أخضعت حتى اليوم الآخرين جميعاً لإرادتي. ومهما يكن من شيء فقد قررت أن أخلي سبيلكما أنتما الاثنين، وغداً سيقودكما "صغير بن شيخ" إلى خارج الجدران الخمسة. أيرضيك كل هذا؟

فأجاب "مورانخ" وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- نعم.

كانت "أنتينيا" تنظر إليه. ثم عاد وقال:

- سيهيئ لي ذلك أن أعد رحلتي القادمة التي عزمت أن أقوم بها إلى هنا على وجه أحسن. إذ إنك لا تشكين في أنني مصمم على أن أعود لأعبر لك عن وفائي، ولكن في تلك المرة سأطلب إلى حكومتي أن تعهد إلي بمائتي أو ثلاثمائة جندي أوربي وبضعة مدافع أيضاً لأقدم لملكة عظيمة ما هي خليقة به من حفاوة وإجلال.

ونهضت "أنتينيا" في شحوب شديد:

- ماذا تقول؟

فأجاب "مورانج" في برود:

- أقول إني كنت أتوقع هذا: الوعد بعد الوعيد.

وتقدمت "أنتينيا" فجأة نحوه وكان قد شبك ذراعيه بعضهما ببعض وأخذ ينظر إليها نظرة رثاء. وأخيراً قالت:

- سأجعلك تموت من التعذيب.

فأجاب "مورانج":

- إنني أسيرك.

- ستقاسي عذاباً لا يمكنك أن تتخيله.

وكرر "مورانج" في الهدوء الحزين ذاته:

- إنني أسيرك.

كانت "أنتينيا" تدور في الحجرة كحيوان سجين في قفصه، وذهبت نحو رفيقي ولطمته على وجهه طائشة الصواب. فابتسم وسيطر عليها وقد ضم معصميها الدقيقين اللذين أمسك بهما متلاصقين في مزيج غريب من قوة ورقة.

وزمجر "هيرام الملك". وظننت أنه سيقفز. ولكن نظرات "مورانج" الباردة ألزمته مكانه مبهوتاً.

وتمتمت "أنتينيا":

- سأقتل رفيقك أمامك.

فبدا لي أن شحوب "مورانج" قد زاد كان ذلك للحظة قصيرة. وأجاب بجملة راعني ما فيها من نبل وتبصر:

- إن زميلي شجاع لا يخشى الموت. وأنا واثق بأنه يؤثره على حياة أردها له بالثمن الذي تعرضينه.

كان قد ترك معصمي "أنتينيا" وهو يقول هذه الكلمات. وغدت هي في شحوب مزعج.

وأحسست كأن الأوامر القاطعة ستخرج من فيها وقالت:

- صه!

ما كان أجملها حينذاك في عظمتها المحتقرة وفي جمالها الذي فقد سلطانه لأول مرة! وعادت تقول:

- صه. صه للمرة الأخيرة. فكر في أنني أضع يدي على أبواب القصر. فكر في أن لي سلطاناً عظيماً على حياتك. فكر في أنك لا تتنفس إلا بقدر ما أحبك. فكر...

فقال "مورانج":

- لقد فكرت في كل هذا.

فكررت "أنتينيا":

- مرة أخيرة.

كان الهدوء الذي يبدو على وجهه جد عجيب، حتى صرت لا أرى وجه محدثته. لم يكن ثمة شيء أرضيٌّ في هذا الوجه المتغير.

وقال صوت "أنتينيا" المتكسر تقريباً:

- مرة أخيرة.

لم يكن "مورانج" يراها.

وقالت:

- إذن فطب نفساً.

ودوى صوت واضح. لقد دقت الجرس الفضي، فظهر الطارقي الأبيض.

- اخرج.

وخرج "مورانج" مرتفع الرأس.

والآن "أنتينيا" بين ذراعي. ليست هي المتكبرة المزدرية الشهوانية التي أضمها إلى صدري. لم تعد إلا فتاة صغيرة بائسة مهانة. هكذا كان شأنها. لم تدهش عندما

رأتني أقفز إلى جانبها. إن رأسها على كتفي. ورأيت وجهها يظهر ويختفي بين شعرها كأنه الهلال بين السحب. ويطوقني ساعداها الدافئان في رعشة... «آه أيها القلب البشري الخفاق....».

من يستطيع مقاومة مثل هذا العناق بين هذه العطور الذكية وهذه النداوة الليلية! أشعر بأنني أصبحت مخلوقاً معقداً. أهذا صوتي، ذلك الصوت الذي يغمغم:

- ما تريدينه، ما تطلبينه، فسأفعله.

إن حواسي لمرهفة. ويستند رأسي المائل إلى الوراء على ركبة صغيرة عصبية رقيقة...

وتدور سحب العطور. وخيل إلي فجأة أن مصابيح السقف الذهبية أخذت تتحرك كأنها مباخر ضخمة. أهذا صوتي، ذلك الصوت الذي تردد في حلم:

– ما تريدينه فسأفعله.

ألمح وجه "أنتينيا" كأنه لاصق بوجهي. ومر وميض غريب في حدقتي عينيها الكبيرتين.

وعلى بعد أرى حدقتي "هيرام الملك" البراقتين وبجانبه ثمة منضدة صغيرة من القيروان زرقاء ذهبية. وعلى المنضدة أرى المطرقة التي طرقت بها منذ لحظة. مطرقة ذات يد طويلة من الأبنوس ورأس فضي. المطرقة التي قتل بها الملازم الصغير "كين"....

صرت لا أرى شيئاً....

الفصل السابع عشر

عذارى الصخور

واستيقظت في حجرتي والشمس في الأصيل تملؤها بضوء وحرارة لا يمكن احتمالهما.

وأول ما رأيت عندما فتحت عيني كان الستار منزوعاً وملقى به في وسط الحجرة. وحينئذ بدأت أحداث الليلة الماضية تعاودني في غموض.

وكان رأسي المثقل يؤلمني. وكان عقلي حائراً وذاكرتي تعب بالأحداث. «إني خرجت مع الفهد. هذا مؤكد! إن العلامة الحمراء في سبابتي لدليل على القوة التي كان يجذب بها الزمام. وإن ركبتي ما زالتا ملطختين بالتراب. لقد زحفت فعلا لحظة على طول جدار الحجرة التي كان الطوارق يلعبون فيها النرد عندما قفز "هيرام الملك". وبعد ذلك؟ آه! نعم. "مورانج" و "أنتينيا"... ثم بعد ذلك؟....

لا أدري. ولكن لابد أن ثمة شيئاً خطيراً... شيئاً لم أعد أذكره قد حدث.

واعتراني قلق. كنت أريد أن أذكر هذا الشيء، غير أنه كان يخيل إليَّ أنني أخشى أن أتذكره. لم أشعر بشيء أكثر إيلاماً من هذا التناقض.

« كانت الطريق طويلة من هنا إلى جناح "أنتينيا". لابد أنني كنت غارقاً في النوم حينما نقلت إلى هنا– لأنني نقلت إلى هنا بالفعل– حتى إنني لم ألحظ شيئاً».

ووقفت بحوثي عند هذا الحد. كنت أشعر بصداع شديد في رأسي فغمغمت:

- فلأخرج لأستنشق الهواء. إن الجو لحار هنا. أكاد أجن.

كنت في حاجة إلى أن أرى أناساً أيا كانوا، واتجهت دون تفكير إلى المكتبة، فوجدت السيد "لميج" في حالة فرح جنوني. كان الأستاذ يفتح طرداً محوكاً بعناية في غطاء أسمر.

فصاح حين رآني داخلا:

- لقد جئت في الوقت المناسب يا سيدي العزيز. وصلت المجلات. الآن.

كان يتحرك في سرعة المحموم، وقد تدفق من جانب الطرد سيل من الكتب الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء.

واستطرد قائلا وهو يرقص من شدة الفرح:

- هلم. هلم! كل شيء حسن. ليس ثمة من تأخير كبير مادامت أعداد شهر أكتوبر (تشرين الأول) موجودة. يجب أن نهنئ "عمر".

وكان فرحه شديداً مبهجاً.

- إنه التاجر التركي المحترم في "طرابلس" الذي يقبل الاشتركات في المجلات القيمة بالقارتين، ويرسلها إلى جهة لا تهمه كثيراً عن طريق غداميس. ولكن ها هي ذي المجلات الفرنسية.

كان السيد "لميج" يتصفح الفهارس كالمحموم:

- سياسة داخلية: مقالات من السادة "فرنسيس شارم"، "أناتول ليروا بوليه"، "دي هوسنفيل"، عن رحلة القيصر إلي "باريس". وهذا بحث عن الأجور في القرون الوسطى بقلم السيد "دافنل". وها هي ذي أشعار- أشعار من الشعراء الشبان.... "فيرنان جريج" و"إدمون هاروكور". آه! نقد لكتاب "هنري دي كاستري" عن الإسلام. هذا يبدو أنه على حظ كبير من الأهمية.... ولكن يا سيدي العزيز أرجو أن تأخذ لنفسك ما يروقك.

إن الفرح يجعل الناس محبوبين. وكان السيد "لميج" يهذي حقا. وكان نسيم خفيف يدخل في هذه اللحظة من النافذة، فاقتربت من حافتها، وأخذت أتصفح عدداً من "مجلة العالمين" وأنا متكئ على حاجز النافذة.

كنت لا أقرأ بل أتصفح وعيناي تجريان تارة على الصفحات حيث تزدحم الحروف الصغيرة السوداء، وتارة أخرى على الوعاء الصخري الذي بدا ورديا باهتاً تحت أشعة الشمس المنحدرة.

وفجأة أخذ انتباهي يستيقظ. كانت ثمة صلة غريبة بين النص الذي أتصفحه والمنظر الطبيعي.

«لم يبق بالسماء من فوقنا إلا بعض الآثار الخفيفة من السحاب كأنها شيء من الرماد الأبيض الذي يتخلف عن احتراق الحطب. وكانت الشمس تلهب قمم الصخور جميعاً مبرزة في السماء خيوطها العظيمة. وكان يهبط من علي داخل الجدار الوحيد شجان وعذوبة عظيمان كأنهما شراب سحري في كأس عميقة... (١)».

وتصفحت الصفحات في انفعال، وبدت أفكاري أكثر وضوحا كان السيد "لميج" يجلس خلفي غارقاً في نسخة من إحدى المجلات وهو يزمجر استنكاراً مما يقرؤه.

وتابعت اطلاعي.

«ومن كل جانب، في هذا الضوء الوضاح، كان يمتد تحت قدميّ منظر جميل جدًّا. كانت سلسلة من الصخور وهي تظهر برمتها في جدبها الموحش إلى أعلى قمتها كأنها كومة من أشياء ضخمة ليس لها شكل. قامت لتبعث دهشة الإنسان، دليلا على الضخامة الأولى. أبراج مهدمة....

وكان الأستاذ يقول مكرراً:

– هذا مخجل، مخجل تماماً.

«أبراج مهدمة، وقلاع مدمرة، وأقباء متساقطة، وعمد محطمة، وتماثيل ضخمة مهشمة، صدور سفن، وأعجاز وحوش، وعظام عمالقة، إن هذا الجرم يمثل بمرتفعاته ومنخفضاته كل ما يوجد من ضخامة. وكانت الأقاصي من النقاء»....

وكان السيد "لميج" يقول في غضبته وهو يضرب المنضدة بقبضة يده:

– هذا مخجل حقا.

وكانت الأقاصي من النقاء بحيث كنت أميز كل دائرة مضخمة كأنها تقع تحت بصري مباشرة. كنت أميز الصخرة التي أرانيها "فيولنتيه" من النافذة في إيماءة منشئة...

وأقفلت المجلة وأنا أرتعد. تحت قدمي صخرة ضخمة منحدرة، قد علتها حمرة، تسيطر على الحديقة الحمراء، وهي الصخرة البيضاء التي أشارت إليها "أنتينيا" يوم مقابلتنا الأولى.

لقد قالت:

– إنها أفقي كله.

والآن قد جاوز غضب "لميج" الحد:

---

(١) "جبرييل دانتزيو": "عذارى الصخور". أنظر "مجلة العالمين" ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٨٩٦ صفحة ٧ و٨ وما يليها.

- إنه ليس مخجلا فحسب بل شائن!

وددت لو خنقته لأسكته. كان قد أمسك بذراعي ليستشهد بي:

- سيدي! ستقرأ هذا مع أنك غير متخصص في هذه المواضيع. سترى أن المقال عن إفريقيا الرومانية عجيب؛ فهو مثال لقلة الإدراك والجهل. وهذا المقال، أتدري بقلم من هو؟

فقلت له في عنف:

- دعني وشأني.

- إنه بقلم "جاستون بواسييه". نعم يا سيدي! "جاستون بواسييه" حامل وسام الـ"لجيون دونير" بدرجة فارس، والأستاذ بمدرسة الـ"نورمال العليا"، السكرتير الدائم للمجمع اللغوي الفرنسي، العضو في مجمع النقوش والآداب وأحد الذين رفضوا رسالتي، أحد الذين.... ياللجامعة البائسة! يا لـ"فرنسا" البائسة!

لم أكن أصغي إليه، وعاودت القراءة. كانت جبهتي غارقة في العرق. ولكن كان يبدو لي أن الذكريات تتضح في رأسي كحجرة تفتحت نوافذها واحدة بعد أخرى. عادت الذكريات إلى رأسي كما يعود الحمام إلى برجه مرفرفاً بجناحيه.

وثمة رعدة لا تقاوم كانت تهزها جميعا. وأخذت عيناها تتسعان كأن رؤيا مفزعة ملأتهما رعباً.

وتمتمت:

- "أنطونيللو"....

لم تستطع لمدة ثوان أن تفوه بغير هذه الكلمات.

ونظرت إليها في قلق لا يوصف وروحي يتعذب لما يعرو شفتيها العزيزتين من تشنج. وانتقلت إلى عيني الرؤيا التي كانت في عينيها، ورأيت من جديد وجه "أنطونيللو" الشاحب النحيف. كانت خلجات جفنيه السريعة وأمواج القلق التي أخذت تهزه كأنه الثمام[1] قد ملأت فجأة جسمه الطويل النحيف.

وألقيت بالمجلة على المنضدة لا أبغي متابعة القراءة.

وقلت:

- نعم! هو ذاك بالضبط.

كنت قد استخدمت في فصل الصفحات سكيناً استعملها السيد "لميج" في قطع خيوط الطرود، وهو خنجر قصير، مقبضه من الأبنوس. كان كتلك الخناجر التي يحملها الطوارق في

---

(١) الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية ينمو بارتفاع ١٥٠ سنتيمترا.

غمد له سوار يلتصق بعضلات أذرعهم اليسرى.

فوضعته في جيب حلتي الصوفية الواسع واتجهت نحو الباب. وكدت أعبر الباب حين سمعت السيد "لميج" يناديني:

- السيد "دي سانت أفيت"! السيد "دي سانت أفيت"!

فالتفت:

- استعلام بسيط من فضلك.

- ماذا تريد؟

- آه، لا شيء كثير. لعلك تعلم أنني مكلف بوضع البطاقات في قاعة المرمر الأحمر.

فاقتربت من المنضدة.

- لقد نسيت أن أستفهم أولا من السيد "مورانج" عن تاريخ مولده ومكانه. لم تسنح لي الفرصة بذلك إذ لم أعد أراه، بحيث أصبحت الآن مضطرا إلى الاستعانة بك. أيمكنك أن تنبئني؟

فقلت في هدوء:

- نعم! يمكنني ذلك.

وأخذ بطاقة من الورق المقوى الأبيض من صندوق يحتوي على كثير منها وغمس ريشته في الحبر.

- نقول إذن: رقم ٥٤ ... كابتن؟

- الكابتن "چان ماري فرنسوا مورانج".

وبينما أنا أملي عليه ويدي على حافة المنضدة لمحت على كمي الأبيض بقعة صغيرة حمراء قاتمة.

فأعاد السيد "لميج" وهو ينتهي من كتابته اسم زميلي.

- "مورانج". ولد في....

- فيل فرانش.

فيل فرانش. رون. التاريخ؟

- ١٤ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٨٥٩.

- ١٤ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٨٥٩. هذا حسن. توفي في الحجار في ٥ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٧. ها قد انتهت المهمة. وجزيل شكري يا سيدي العزيز لظرفك.

- أنا في خدمتك ياسيدي.

ويعدئذ تركت السيد "لميج" في سلام.

كنت قد اعتزمت نهائيا. وأكرر أن هدوئي كان تاماً. ومع ذلك شعرت حينما تركت السيد "لميج" بضرورة بأن أفصل بين العزم والتنفيذ ببضع لحظات. وجعلت أسير أول الأمر في الممرات. حتى إذا ألفيت نفسي بالقرب من حجرتي توجهت إليها وولجتها. كانت كعهدي بها في حرارة غير محتملة.

فجلست على أريكتي وأخذت أفكر.

كان الخنجر يضايقني في جيبي، فأخرجته ووضعته على الأرض. كان الخنجر متيناً ذا سلاح معين الشكل، وكان بين المقبض والسلاح حلقة من الجلد الأحمر.

وذكرني منظره بالمطرقة الفضية. وتذكرت ما أحسست به من سهولة حينما أمسكتها وضربت....

وعاودتني جميع تفاصيل الحادثة بوضوح لا شبيه له. ولكن لم تعترني أية رعدة. كان يبدو لي أن عزيمتي على أن أقتل المحرضة على الجريمة قد مكنتني من أن أستعيد في برود هذه التفصيلات الوحشية.

وإذا ما فكرت في فعلتي كنت أدهش منها دون أن أقر بذنبي.

وقلت لنفسي:

ماذا؟ إن "مورانج" هذا الذي كان طفلا والذي كلف أمه العذاب كالآخرين في أثناء مرضه وهو رضيع. أنا قتلته. لقد انتهت هذه الحياة وأرسلت إلى العدم هذا الهيكل من الحب والدموع والعقاب المتغلب عليها التي تكوِّن حياة آدمية. حقا يا لها من مغامرة شاذة!

كان هذا هو كل شيء. لاخوف ولا تأنيب ضمير، ولا هذا الرعب الذي يسود مسرحيات "شكسبير" عقب القتل والذي يحملني اليوم- وأنا متشكك، جامد الحس- يقظاً أكثر من أي شخص آخر- على أن أرتعد فجأة إذا انفردت ليلا في حجرة مظلمة.

وقلت في نفسي:

- هلم! لقد حانت الساعة. يجب أن أنتهي من ذلك.

تناولت الخنجر. وقبل أن أعيده إلى جيبي قمت بحركة الطعن. كان كل شيء مرضياً: كان مقبضه ثابتاً في يدي.

لم يحدث لي أن قطعت الطريق المؤدية إلى جناح "أنتينيا" بغير رائد. في أول مرة كان رائدي الطارقي الأبيض. وفي الثانية الفهد. غير أني اهتديت إليها في غير مشقة. وقبل أن أصل إلى الباب ذي النافذة المنيرة بقليل، صادفت أحد الطوارق.

فقلت له آمراً:

- أفسح لي الطريق. لقد طلبتني سيدتك.

فانزوى الرجل مطيعاً.

وبعد قليل وصلت إلى أذني أغنية مختنقة. فعرفت صوت الربابة وهي آلة موسيقية ذات وتر واحد يستعملها نساء الطوارق. كانت "عجيدة" هي التي توقع عليها وهي جالسة القرفصاء كالعادة عند قدمي سيدتها. وكانت النساء الثلاث الأخريات يحففن بها كذلك. ولم تكن هناك "تانيت زرجا".

آه! بما أن هذه هي آخر مرة رأيتها فيها فلتدعني أحدثك عنها وأخبرك كيف بدت لي هذه اللحظة الأخيرة.

أكانت تستشعر الخطر الذي يحدق بها؟ وهل أرادت أن تتحدى هذا الخطر بالتجائها إلى حيلها التي لا تقهر؟ كان قد علق بذهني ذلك الجسد النحيف العاري الذي ضممته إلى صدري في الليلة السابقة وهو عاطل من الخواتم والحلي. وهأنذا أكاد أقفل راجعاً. إذ أجد أمامي امرأة مزينة كأنما هي أميرة؟ لا! بل ملكة.

كان يثقل هذا الجسد النحيف تبرج الفراعنة الهائل. كانت تحمل على رأسها تاج الأباطرة والملوك، وهو ذهبي ضخم قد رسم اسمها عليه بالزمرد- وهو حجر الطوارق الوطني- رسم مرات ومرات بحروف تيفينارية. كانت تلبس الكنتي كأنه مسح كهنوتي. وكان الكنتي من الحرير الأحمر موشى بالذهب وبأزهار اللوتس. وكان عند قدميها صولجان من الأبنوس ينتهي بثلاث شعب. وكان يحيط بذراعيها العاريتين ثعبانان يرتفع رأساهما إلى إبطيها كأنهما يكمنان فيهما. وكان ينحدر من جانبي التاج عقد من الزمرد يمر صفه الأول تحت ذقنها العنيد على هيئة رباط الرقبة، على حين تتدلى الصفوف الأخرى مستديرة على نحرها العاري.

ولما دخلت ابتسمت، وقالت في بساطة:

- كنت في انتظارك.

فتقدمت، ولما صرت على بعد أربع خطوات من العرش توقفت تجاهها تماماً.

فنظرت إلي نظرة استهزاء، وقالت في هدوء تام:

- ما هذا؟

وتتبعت اتجاه حركتها، فرأيت مقبض الخنجر يبرز من جيبي. فأخرجته كله وأمسكت به بقوة في يدي على استعداد للطعن.

وقالت "أنتينيا" لنسائها في برود وقد أثارت إيماءتي بينهن تمتمة فزع:

- إن أول واحدة منكن تبدي أقل حركة، سآمر بتركها عارية على بعد عشرة كيلو مترات من هنا في وسط الصحراء الحمراء.

وأردفت تخاطبني:

- حقا إن هذا الخنجر لدميم. ويبدو لي أنك تسيء مسكه. أتريد أن أبعث بـ"سيدة" إلى حجرتي لتحضر لك المطرقة الفضية؟ إنك تحسن استعمالها أكثر من الخنجر.

فقلت في صوت مختنق:

- "أنتينيا" سأقتلك.

فقالت وهي تشير إلى النساء وقد سترن أعينهن من الخوف:

- لا تتكلف في حديثك معي. لقد رفعت الكلفة بيننا أمس. ألا تجرؤ على رفع الكلفة أمامهن؟

وأردفت:

- تقتلني؟ إن تصرفك هذا لا يتفق مع ما تكنه في دخيلة نفسك. أتقتلني في اللحظة التي تستطيع فيها أن تجني ثمرة قتل الآخر؟

فقلت فجأة وأنا أرتعد:

- هل ..... هل تعذب؟

- قليلا! لقد قلت لك إنك استعملت المطرقة كما لو كنت اعتدت استعمالها طيلة حياتك.

فغمغمت:

- مثل "كين" الصغير؟

فارتسمت على وجهها ابتسامة دهشة.

- آه! إنك تعرف هذه القصة... نعم مثل "كين" الصغير.

إن "كين" كان معقولا. أما أنت... فلست أفهم.

- وأنا أيضاً لست أفهم تماماً.

كانت تنظر إلي في فضول مرح. قلت:

- "أنتينيا"!

- ماذا؟

- لقد نفذت ما طلبت إلي أن أفعله. هل أستطيع بدوري أن أوجه إليك رجاء، أن ألقي عليك سؤالا؟

-تكلم.

– هل كانت الحجرة التي وجدناه فيها مظلمة؟

– مظلمة تماماً. واضطررت إلى أن أقودك إلى الأريكة حيث كان نائماً.

– كان نائماً! أواثقة أنت بهذا؟

– أؤكد ذلك.

– إنه.... لم يمت في الحال. أليس كذلك؟

– لا. أنا أعرف تماماً متى مات.... دقيقتين بعد أن ضربته وهربت وأنت تصيح.

– حينئذ هو لم يعرف بغير شك....

– ماذا؟

– إنني أنا أحمل... المطرقة.

قالت "أنتينيا":

– كان من المستطاع ألا يعرف شيئاً بالفعل. ولكنه عرف.

– كيف؟

فقالت وهي تحدق بنظرها إلى عيني في شجاعة فائقة.

– عرف ذلك لأنني قلته له.

فغمغمت:

– وهل صدقك؟

– لقد عرفك بمساعدتي من الصيحة التي بدرت منك.

وأتمت حديثها في ضحكة ازدراء:

– إذا لم يكن عرف أنه أنت لم يكن ثمة قيمة للحادث عندي، لقد قلت إن أربع خطوات تفصلني عن "أنتينيا". فاجتزتها في وثبة واحدة، ولكن قبل أن أتمكن من طعنها سقطت على الأرض.

كان "هيرام الملك" قد أطبق على عنقي.

وسمعت في اللحظة ذاتها صوت "أنتينيا" يأمر في هدوء:

– نادوا الرجال.

وبعد هنيهة كنت قد خلصت من قبضة الفهد.... وأحاط بي الرجال الستة، وحاولوا أن يوثقوني.

إنني قوي وعصبي جدا. وتمكنت من النهوض لحظة قصيرة. كان أحد أعدائي ملقى على بعد ثلاثة أمتار وقد وجهت إليه في ذقنه لكمة على أحسن قواعد فن الملاكمة، وكان آخر يئن تحت ركبتي. وحينئذ رأيت "أنتينيا" لآخر مرة. كانت واقفة ومتكئة بيديها على

صولجانها الأبنوسي تشاهد المعركة بابتسامة واهتمام ساخر.

وفي اللحظة نفسها أرسلت صيحة عالية، وتركت فريستي: قرقعة في ذراعي اليسرى. كان أحد الطوارق قد خلع كتفي بعد أن قبض على ذراعي من الخلف ولواها.

ولما غشي علي تماماً كان قد حملني في الممرات شبحان أبيضان، وأنا موثق بحيث لم أكن أستطيع القيام بأية حركة.

الفصل الثامن عشر

الجعلان

كان ضوء القمر الشاحب يدخل قويا في حجرتي من النافذة المفتوحة.

وبجانب الأريكة حيث كنت ممدداً كان يقف شبح أبيض.

فغمغمت:

- أهذا أنت؟ أنت! "تانيت زرجا".

فوضعت أصبعها على شفتيها.

- صه! نعم أنا.

وأردت أن أنهض من "فراشي"، فشعرت بألم فظيع في كتفي. وعادت حوادث ما كان بعد الظهر إلى رأسي المسكين.

- آه! يا صغيرتي! يا صغيرتي! لو عرفت.

فقالت:

- أعرف.

كنت أضعف من طفل، وحل- عند ما أقبل الليل- محل اضطراب النهار انهيار عصبي، وخنقتني العبرات.

- لو عرفت، لو عرفت! خذيني يا صغيرتي خذيني!

فقالت:

- اخفض من صوتك، فثمة طارقي أبيض خلف بابك يسهر على حراستك.

فكررت:

- خذيني.... أنقذيني!

وقالت في بساطة:

- لقد جئت من أجل ذلك.

ونظرت إليها. لم تكن ترتدي رداءها الجميل الحريري الأحمر بل كانت ملتفة في عباءة وقد رفعت جزءاً منها على رأسها.

فقالت في صوت منخفض:

- وأنا أيضاً أريد الرحيل. منذ زمن بعيد وأنا أريد الرحيل. أريد أن أرى "جاو" مرة أخرة، القرية على شاطئ النهر وشجر المطاط الأزرق والماء الأخضر.

وكررت:

- منذ جئت إلى هنا أريد الرحيل. ولكني كنت صغيرة جداً حيث لا أستطيع الرحيل وحدي في الصحراء الكبرى. ولم أكن أجرؤ على الإفضاء بذلك إلى أحد من الذين أتوا إلى هنا قبلك، وهم جميعاً لم يكونوا يفكرون إلا فيها... ولكنك أنت، أردت أن تقتلها.

وأرسلت أنيناً مختنقاً.

وقالت:

- إنك تتألم! لقد كسروا ذراعك، أو جزعوها على أقل تقدير.

- أرنيها.

ومرت بيديها الصغيرتين المفرطحتين على كتفي في رقة لا نهاية لها وقلت:

- يقوم على حراستي خلف الباب طارقي أبيض يا "تانيت زرجا". فمن أين أتيت إذن؟

فقالت:

- من هنا.

وأشارت بحركة إلى النافذة. كان خط أسود عمودي يقسم وسط النافذة الزرقاء المربعة.

وذهبت "تانيت زرجا" إلى النافذة. ورأيتها واقفة على المسند وبيدها مدية تلمع، وقطعت الحبل من أعلاه في مستوى الفتحة. فسقط الحبل على الأرض في صوت جاف.

وعادت إلى جانبي.

فقلت:

- نرحل! نرحل! من أين؟

فكررت:

- من هنا.

وأشارت مرة أخرى إلى النافذة.

فانحنيت، وتفحصت عيناي المحمومتان البئر المظلمة باحثة عن الصخور الخفية، والصخور التي تحطم عليها "كين" الصغير.

وقلت وأنا أرتعد:

- من هنا! يوجد ستون مترا تقريبا إلى الأرض.

فأجابت:

- إن طول الحبل خمسة وسبعون مترا. إنه حبل متين جداً.

لقد سرقته منذ لحظة من الواحة. كان يستعمل في قطع الأشجار. إنه جديد جداً.

- أنزل من هنا يا "تانيت زرجا". وكتفي؟

فقالت في قوة:

- أنا التي سأنزلك، المس ذراعي وتأكد من قوتهما. لن أنزلك بذراعي بكل تأكيد. ولكن انظر. فثمة عمودان من المرمر على جانبي النافذة. فإذا أمررت الحبل حول أحدهما ولففته مرة واحدة فسأجعلك تنزلق دون أن أشعر بثقلك.

وقالت أيضاً:

- ثم انظر: لقد عقدت عقدة كبيرة، كل ثلاثة أمتار ستسمح لي بالاستراحة من وقت إلى آخر إذا احتجت إلى استعادة قواي.

وقلت:

- وأنت؟

- حينما تصل إلى الأرض، سأربط الحبل في العمود وسألحق بك. وهناك العقد لأستريح إذا حز الحبل يدي بشدة. ولكن لا تخف؛ إنني ماهرة. ففي "جاو" كنت أتسلق- وأنا طفلة- شجر المطاط على ارتفاع يقارب هذا، لآخذ فراخ "التوكان" من أعشاشها. إن النزول أسهل.

- ولكن عندما نصل إلى الأرض كيف السبيل إلى الخروج؟

أتعرفين الحواجز إذن؟

فقالت:

- ما من أحد يعرف الحواجز غير "صغير بن شيخ"، وربما كانت "أنتينيا". كذلك.

- وعندئذ؟

وعندئذ... يوجد أيضاً جمال "صغير بن شيخ" التي يستخدمها في أسفاره. لقد

فككت رباط أحدها وهو أقواها وقدته إلى هنا مع كثير من الحشائش لكي لا يصيح، وسيكون قد شبع عندما نرحل.

وقلت أيضاً:

- ولكن..

فضربت بقدمها وقالت:

- ماذا؟ فابق إن كنت تريد، إن كنت تخاف. أما أنا فسأرحل. أريد أن أرى "جاو"، وشجر المطاط الأزرق، والماء الأخضر.

وأحسست بالخجل.

- سأرحل يا"تانيت زرجا". إنني أوثر الموت عطشاً وسط الرمال على البقاء هنا. هيا بنا...

فقالت:

- صه! لم يحن الوقت بعد!

وأرتني الهاوية التي تحدث الدوار وكان القمر يضيئها بشدة.

- لم يحن الوقت بعد، يجب أن ننتظر خشية أن يرونا. بعد ساعة سيكون القمر قد دار وراء الجبل. وحينئذ تسنح الفرصة.

وجلست وظلت كذلك دون أن تلفظ بكلمة وقد غطت بعباءتها وجهها الدقيق القاتم. هل كانت تصلي؟ قد يكون.

وفجأة صرت لا أراها. كانت الظلمة قد دخلت من النافذة والقمر قد اختفى.

ووضعت "تانيت زرجا" يدها على ذراعي وجذبتني نحو الهاوية. وحاولت ألا أرتعد.

لم يكن تحتنا غير الظلام. وفي صوت خافت ولكنه ثابت قالت لي "تانيت زرجا":

- كل شيء معد. لقد لففت الحبل حول العمود. وها هي ذي العقدة المتحركة، اجعلها تحت ذراعيك .آه! خذ هذه الوسادة واحتفظ بها ملاصقة لكتفك المصابة.... وسادة من الجلد... إنها سميكة. وليكن وجهك جهة الجدار. ستقيك الوسادة الاصطدام والاحتكاك.

كنت في هذا الوقت مسيطراً على نفسي تمام السيطرة، هادئا كل الهدوء. فجلست على حافة النافذة وقدماي في الفضاء. وأنعشتني نسمة باردة هبت من القمم.

وشعرت بيد "تانيت زرجا" الدقيقة في جيب حلتي.

- إنه صندوق. عندما تصل إلى أسفل يجب أن أعرف ذلك لأنزل أنا أيضاً. ستفتح هذا

الصندوق وبه جعلان ساراها وساحضر. وقبضت بيدها يدي طويلا.

وتمتمت:

- اذهب الآن.

ذهبت.

ولست أذكر من هذه الهوة البالغة ستين مترا إلا شيئاً واحداً:

كان ينتابني ضجر شديد كلما توقف الحبل إذ أرى نفسي، وساقاي مدلاتان عند سفح الجدار الأملس تماماً. وكنت أقول في نفسي: ماذا تنتظر هذه الحمقاء الصغيرة؟ لقد مضى ربع الساعة تماماً وأنا معلق هكذا.....آه! أخيراً! حسن هانذا أتوقف مرة أخرى. مرة أو اثنتين اعتقدت أني لمست الأرض؛ غير أنه لم يكن إلا بروزاً في الصخر. كان لابد أن أضرب بقدمي ضربة خفيفة.... وفجأة ألفيت نفسي جالساً على الأرض فمددت يدي. فإذا أعشاب.... وشاكت شوكة أصبعي. لقد وصلت.

وفي الحال أصبحت في حالة عصبية حادة.

فتخلصت من الوسادة وفككت العقدة المتحركة، وبيدي الصحيحة مددت الحبل مبعداً إياه خمس أو ست خطوات عن حافة الجبل ووضعت قدمي عليه. وفي الوقت نفسه أخذت الصندوق الصغير المصنوع من الورق المقوى وفتحته ورأيت ثلاث هالات متحركة ترتفع في الليل واحدة بعد أخرى. رأيت الجعلان ترتفع مصعدة مصعدة على جانب الصخر. وزحفت في رخاوة هالتها الوردية الشاحبة. ودارت واحدة بعد أخرى ثم اختفت.....

- إنك متعب ياسيدي الملازم. اسمح لي أن أمسك بالحبل. كان "صغير بن شيخ" قد ظهر فجأة بجانبي.

ونظرت إلى قامته السوداء الطويلة وارتعدت طويلا، ولكني لم أترك الحبل وقد لاحظت عليه تموجات بعيدة.

فرددت بلهجة آمرة:

- اتركه.

وأخذ الحبل من يدي.

وفي هذه اللحظة لم أدر أي شيء أصبحت. كنت واقفاً بجانب الشيخ الأسود الضخم. فما العمل ياصاحبي، وهذه الرضوض في كتفي، مع هذا الرجل الذي أعرف قوته الحاذقة؟ ثم أي غناء؟ كنت أراه منحنياً يمد الحبل بيديه وقدميه وبكل جسمه أحسن مما كنت أستطيع أن أفعل.

وسمعنا حفيفاً فوق رؤوسنا. ثمة جسم صغير قاتم.

فقال "صغير بن شيخ" وهو يمسك بين ذراعيه القويتين الشبح الصغير ويضعه على الأرض في حين أخذ الحبل، وقد أرسلناه، يتخبط على الصخر:

- ها هي ذي!

وشهقت "تانيت زرجا" عندما عرفت الطارقي.

فوضع يده في عنف على فمها.

- هلا اسكتي، يا سارقة الجمال! أيتها الشريرة الصغيرة! وأمسك بذراعها والتفت نحوي وقال بلهجة آمرة:

- والآن اتبعني.

فأطعت. وفي أثناء رحلتنا القصيرة كنت أسمع اصطكاك فكي "تانيت زرجا" من الخوف!

ووصلنا إلى كهف صغير. فقال الطارقي:

- ادخل.

وأوقد مشعلا. فتمكنت على هذا الضوء الأحمر من أن ألمح جملا فخما يجتر في هدوء.

فقال "صغير بن شيخ" وهو يشير إلى الحيوان:

- ليست هذه الطفلة غبية. لقد استطاعت أن تختار أحسن الجمال وأقواها. ولكنها غريرة.

وقرب مشعله من الجمل وأردف قائلا:

- إنها غريرة. لم تعرف إلا أن ترحله. ولكنها لم تأخذ ماء أو طعاماً. ولو رحلتم بدونهما لكنتم في ظرف ثلاثة أيام وفي مثل هذه الساعة ميتين أنتم الثلاثة على قارعة الطريق... وأية طريق!

وتوقفت أسنان "تانيت زرجا" عن الاصطكاك، وأخذت تنظر إلى الطارقي نظرة هي مزاج من الأمل والرعب. وقال "صغير بن شيخ":

- يا سيدي الملازم! هلم إلى هنا بجوار الجمل لأشرح لك.

ولما اقتربت منه قال:

- على كل جانب توجد قربة مليئة بالماء. حافظ على هذا الماء ما استطعت؛ لأنك ستجتاز بلاداً مرعبة. ولعلك لا تجد بئراً على طول خمسمائة كيلو متر.

واستأنف قائلا:

- وهنا في هذه الخروج يوجد الطعام المحفوظ، شيئا يسيرا منه؛ لأن حاجتك إلى الماء أشد، ويوجد أيضاً بندقية، بندقيتك يا سيدي. وحاول ألا تستعملها إلا في صيد الغزال. والآن لم يبق إلا هذا.

ونشر شريطاً من الورق رأيت وجهه الملثم ينحني وعيناه تبتسمان ونظر إلي وسألني:

- إلى أية جهة أزمعت أن تذهب بعد خروجك من الأسوار؟

فقلت:

- إلى أية جهة لأصل إلى الطريق حيث قابلتني والكابتن.

فهز "صغير بن شيخ" رأسه وتمتم:

- كنت أتوقع ذلك.

وأردف في برود تام:

- لو فعلت للحقوا بك وبالصغيرة غداً قبل غروب الشمس ومثلوا بكما.

ثم استأنف الحديث فقال:

- نحو الشمال تصل إلى الحجار والحجار بأكمله تابع لـ"أنتينيا". يجب أن تتجه نحو الجنوب.

فقلت:

- سنتوجه إذن نحو الجنوب.

- وبأية طريق تذهبان نحو الجنوب؟

- عن طريق "سلة" و"طميسة".

فهز الطارقي رأسه ثانية وقال:

- سيبحثون عنكما في هذه الجهة أيضاً لأنها الطريق الحسنة، الطريق الغنية بالآبار. وهم يعرفون أنك على علم بها. والطوارق لن يغفلوا عن انتظارك عند أحد الآبار.

- حينئذ.

فقال "صغير بن شيخ":

- حينئذ يجب ألا تصل إلى طريق "طميسة- تامبكتو" إلا على مسافة سبعمائة كيلو متر من هذا المكان، أي عند "إيفروان"، أو أحسن من ذلك، عند وادي "تليمسي". فهناك تنتهي الأراضي التي يرتادها طوارق "الحجار" وتبتدئ أراضي طوارق "أولياء مدين".

وارتفع صوت "تانيت زرجا":

- إن أ"ولياء مدين" هم الذين ذبحوا أهلي واستعبدوني. لا أريد المرور بين "أولياء

مدين".

فقال "صغير بن شيخ" في قسوة:

- اسكتي أيتها الشريرة.

واستمر موجهاً حديثه إلي:

- لقد قلت ما يجب علي أن أقول. ليست الصغيرة مخطئة؛ إن "أولياء مدين" متوحشون. ولكنهم يهابون الفرنسيين. وكثير منهم على اتصال بالمراكز الفرنسية شمال نهر "النيجر". وزد على ذلك أنهم في حالة حرب مع أهل "الحجار" الذين لن يقصوا آثاركما في أراضي أعدائهم. لقد قلت ما يجب علي أن أقول: يجب أن تصلا إلى طريق "تامبكتو" إلى حيث تتوغل في الأراضي التي يرتادها "أولياء مدين". وبلادهم كثيرة الغابات غنية بالينابيع. إذا وصلتما إلى وادي "تليسمي" فستواصلان رحلتكما تحت سماء من الورد. وعلى أية حال فالطريق من هنا إلى وادي "تليمسي" أقصر من الطريق التي تمر بـ"طميسة"؛ فهي طريق مستقيمة.

فقلت:

- إنها مستقيمة حقا. ولكنك تعلم أنه يجب عليك لتسلكها أن تجتاز الـ"تانزرفت".

فأبدى "صغير بن شيخ" بحركة تدل على نفاد صبره وقال:

- إن "صغير بن شيخ" يعرف ذلك ويعرف ما هو الـ"تانزرفت"، ويعرف أيضا- وهو الذي عبر الصحراء كلها- أنه يرتجف خوفا لو مرَّ من الـ"تانزرفت" و"تاسلي" الجنوبية. ويعرف أن الجمال التي تضل طريقها هناك تموت أو تستوحش؛ لأنه ما من أحد يخاطر بحياته للبحث عنها.... وإن هذا الخوف الذي يحيط بهذا المكان هو منقذكما. ثم يجب أن تختار: إما التعرض للموت عطشاً في طرق الـ"تانزرفت"، وإما أن تنحر بالتأكيد في أية طريق أخرى.

وأضاف:

- ويمكنك أن تمكث هنا.

فقلت:

- يا "صغير بن شيخ" لقد صح عزمي.

فقال وهو يعاود نشر ورقته الملفوفة:

- حسن. إن هذا الخط يبتدئ عند ثغرة ثاني الحواجز اليابسة حيث سأقودكما، وينتهي عند "إيفروان". لقد عينت مكان الآبار ولكن لا تثق بها كثيراً لأن معظمها جاف. واحرص على ألا تحيد عن هذا الخط. فإذا انحرفت عنه.... كان الهلاك....

والآن امتط الجمل مع الصغيرة. إن ما يحدثه اثنان من الضوضاء أقل بكثير مما يحدثه أربعة.

وسرنا طويلا في صمت يتقدمنا "صغير بن شيخ" يتبعه بعيره في دعة. واجتزنا على التوالي ممراً مظلما ثم آخر خانقاً ثم ممرا ثالثاً..... كان كل مدخل يختفي تحت أكوام متشابكة من الصخور والأعشاب.

وفجأة أحسسنا بلهيب حول رؤوسنا. ودخل وميض أحمر قاتم حيث نهاية الممر. كانت الصحراء.

وتوقف "صغير بن شيخ" وقال:

- ترجلا.

كان ينبوع يتغنى في الصخر، فاقترب منه الطارقي وملأ كوباً من الجلد بالماء وناولنا إياه كلا بدوره وهو يقول:

- اشرب.

ففعلنا.

ثم قال آمراً:

- اشربا ثانية. هذا ما يوفر من ماء القربتين. واجتهدا ألا يعاودكما الظمأ قبل غروب الشمس.

واستوثق من أحزمة البعير وتمتم:

- كل شيء على ما يرام. هلما! لم يبق على الفجر إلا ساعتان: يجب أن تكونا بعيدين عن هذا المكان.

تملكني شيء من الانفعال في هذه اللحظة الأخيرة، فتوجهت نحو الطارقي وأخذت يده وقلت له في صوت خفيض:

- "صغير بن شيخ"، لم تفعل ذلك؟

فتقهقر راجعاً ورأيت عينيه القاتمتين العميقتين تلمعان وقال:

- لم؟

- نعم. لم؟

فأجاب في جد:

- إن النبي يسمح للمؤمن بأن يؤثر الشفقة على الواجب مرة واحدة في حياته. و"صغير بن شيخ" ينتهز هذه الرخصة لينقذ من أنقذ حياته.

فقلت:

- ألا تخشى أن أتكلم فأبوح بسر "أنتينيا" عند عودتي بين الفرنسيين؟

فهز رأسه وقال في صوت ساخر:

- لا أخشى ذلك، لأنه ليس من مصلحتك يا سيدي الملازم أن يعرف أهل بلدك كيف مات سيدي الكابتن.

وارتعدت عند سماعي هذا الرد المنطقي. وأضاف الطارقي:

- ربما كنت أخطات إن لم أقتل الفتاة.... ولكنها تحبك. لن تقول شيئاً. اذهبا فقد أوشك النهار أن يطلع.

وحاولت أن أصافح هذا المنقذ الغريب ولكنه تقهقر مرة أخرى.

- لا تشكرني. إن ما أفعله هو من أجلي أنا، لأنال ثوابي من الله. واعلم جيداً أنني لن أعاود هذا الصنيع أبداً مرة أخرى لا مع غيرك ولا معك.

وبينما أنا أحاول أن أطمئنه بإشارة قال في سخرية ما زالت تدوي في أذني:

- لا تحتج! لا تحتج. إن ما أفعله هو لمصلحتي لا لمصلحتك. ونظرت إليه دون أن أفهم. فقال في صوته الرزين:

- لا لمصلحتك ياسيدي الملازم، لا لمصلحتك؛ لأنك ستعود ويومئذ لا تعتمد على مساعدة "صغير بن شيخ".

فتمتمت في رعدة:

- سأعود؟

فقال الطارقي:

- ستعود. ستعود.

كان واقفاً كأنه تمثال مظلم بجانب صخرة رمادية. وعاود الكلام في عنف:

- ستعود. إنك تهرب الآن. ولكنك تخطئ إذا اعتقدت أنك سترى عالمك بالعيون نفسها التي كنت تراه بها قبل مغادرتك إياه. فستلاحقك في كل مكان فكرة واحدة لا تتغير. وفي يوم ما بعد سنة أوخمس أو ربما كانت عشراً ستمر ثانية من هذا الممر نفسه الذي مررت به الآن.

فقالت "تانيت زرجا" وصوتها يرتعد:

- اسكت يا "صغير بن شيخ"!

فأجاب "ابن شيخ":

- بل اسكتي أنت أيتها الشريرة.

وضحك مستهزئاً.

– ألا ترى أن الصغيرة يخالجها الخوف لأنها تعرف أن ما قلته هو الحق، لأنها تعرف قصة الملازم "جيبرتي".

فقلت وقد تفصد جبيني عرقاً:

– الملازم "جيبرتي"؟

– إنه ضابط إيطالي كنت قابلته بين "غاط" و"غداميس" منذ ثماني سنوات. وحدث أن حبه لـ"أنتينيا" لم ينسه كل النسيان أول الأمر حبه للحياة، فحاول الهروب ووفق في ذلك، لست أدري كيف كان ذلك لأنني لم أساعده. وعاد إلى بلاده. ولكن صه! بعد سنتين اثنتين كنت خارجاً للاستكشاف إذ وجدت أمام الحاجز الشمالي رجلا في حالة بؤس شديد يقاسي الأمرين من الجوع والتعب وهو يبحث في غير طائل عن المدخل. كان الملازم "جيبرتي" قد عاد إلينا. وهو الآن يحتل في قاعة المرمر الأحمر الرقم ٣٩.

وضحك الطارقي ضحكة قصيرة.

– هذه هي قصة الملازم "جيبرتي" التي أردت أن تعرفها.... ولنكتف بهذا القدر. امتط الجمل.

فأطعت دون أن أنبس ببنت شفة. وأحاطتني "تانيت زرجا" – وكانت خلفي– بذراعيها.

كان "صغير بن شيخ" مازال ممسكاً برحل الجمل. وقال لي وهو يشير نحو الجنوب إلى بقعة سوداء في السماء البنفسجية:

– أترى هذا الغور؟ إنه وجهتك وهو يبعد ثلاثين كيلومتراً.....

يجب أن تشرف عليه عندما تشرق الشمس. وحينئذ انظر إلى الخريطة؛ فقد عينت لك النقطة التالية. إذا لم تنحرف عن هذا الخط فستكون في وادي "تليمسي" بعد ثمانية أيام.

وكان عنق الجمل الطويل يمتد نحو ريح الجنوب المظلم.

وترك الطارقي رحل الحيوان في حركة منبسطة:

– والآن ارحل.

فقلت له وأنا أدور على الرحل:

– شكراً، شكراً لك يا "صغير بن شيخ". الوداع!

وسمعت صوته– وقد غدا بعيداً– يقول:

– إلى اللقاء يا سيدي الملازم "دي سانت أفيت".

الفصل التاسع عشر

الـ"تانزرفت"

وفي أثناء الساعة الأولى من هروبنا كان جمل "صغير بن شيخ" يسير في سرعة فائقة. وقطعنا أكثر من ثمانية كيلو مترات. وقد كنت أوجه دابتنا، ثابت العينين، نحو الغور الذي عينه لي الطارقي والذي أخذت قمته تتسع في السماء الباهتة.

وكانت ريح خفيفة في آذاننا من شدة السرعة، وعشب الرتم الكبير يمر بسرعة عن يميننا وشمالنا كأنه هياكل عظمية كئيبة.

وسمعت صوت "تانيت زرجا" يهمس:

– قف الجمل.

لم أفهم في بادئ الأمر.

– قف الجمل.

وأمسكت في عنف ذراعي اليمنى.

فأذعنت. وهدأ الجمل من سرعته بالرغم عنه. وقالت الفتاة:

– اسمع.

ولم أسمع شيئاً في بادئ الأمر، ثم سمعت من ورائنا صوتا خفيفاً، حفيفاً ناشفاً. وأمرت "تانيت زرجا":

– قف الجمل ولا داعي لأن تنيخه.

وفي اللحظة نفسها قفز جسم هزيل رمادي على الجمل الذي أخذ يعدو.

فقالت "تانيت زرجا":

– اتركه وشأنه، لقد قفزت "جاليه".

وفي اللحظة نفسها شعرت تحت يدي بخصلة من الشعر المتوتر، لقد قصت القطة أثرنا حتى لحقت بنا. وسمعت أنفاس هذا الحيوان الصغير اللاهثة وقد أخذت في الهدوء شيئاً فشيئاً.

وتمتمت "تانيت زرجا":

– إنني سعيدة.

لم يكن "صغير بن شيخ" مخطئاً. فقد مررنا حول الغور عند شروق الشمس. ونظرت إلي

الخلف: لم يعد الـ"أتاكور" غير خواء مفزع وسط سواد الليل الذي كان يكتسحه ضوء الصباح. لم يعد من اليسير أن نميز بين هذه القمم التي لا اسم لها، والجبل حيث تواصل "أنتينيا" تدبير مؤامراتها الغرامية.

إنك تعرف ما هو الـ"تانزرفت" تلك الهضبة العظيمة، هذه البقعة المهجورة الموحشة حيث العطش والجوع. كنا في تلك اللحظة متوغلين في الجزء الذي يسميه "دوفرييه" "تاسيلي" الجنوبي، والذي يحمل على خريطة وزارة الأشغال العمومية هذه البيانات الخلابة: «هضبة صخرية خالية من الماء والنباتات لا تصلح لمأوى الإنسان أو الحيوان».

لا شيء أفظع من هذه الصحراء الصخرية إلا بعض أجزاء صحراء "كلهاري". آه! لم يغال "صغير بن شيخ" حينما أكد لي أنهم لن يفكروا في اللحاق بنا هناك.

مازالت بقع كبيرة من الظلمة تعاند في أن تستحيل واضحة تماما. وكانت الذكريات في رأسي تتخبط في اختلاط تام. وعادت إلى ذاكرتي جملة:«كان يبدو لديك أنه منذ بدء الخليقة لم يفعل شيئاً آخر في ظلمته سوى أن يشق عباب الفضاء على ظهر جمل». وضحكت ضحكة قصيرة وفكرت: «منذ بضع ساعات أجمع بين المواقف الأدبية، فمنذ قليل على ارتفاع ثلاثين مترا كنت أعتقد أنني "فابريس" بطل "ديربارم" في برجه الإيطالي. والآن هأنذا على متن الجمل فأصبح "ديك" بطل "الضوء الذي ينطفئ" وهو يجتاز الصحراء لمقابلة رفقائه في السلاح». وضحكت مرة أخرى ثم ارتعدت وقد تذكرت الليلة السابقة، فكرت في "أورست" بطل "أندروماك" الذي قبل أن ينحر "بيروس"‏.... إنه موقف أدبي أيضاً....

لقد قدر "صغير بن شيخ" ثمانية أيام لوصولنا إلى منطقة "أولياء مدين" الغابية التي تسبق مناطق الأعشاب في "السودان". لقد كان على دراية تامة بمقدرة دابته التي أطلقت عليها "تانيت زرجا" في الحال اسم "الملين" أي الأبيض؛ لأن الجمل الفخم كان يبدو كأنه يرتدي ثوباً أبيض ناصعا. ولقد مكث يومين من غير طعام، يجتذب من هنا وهناك فرعاً من الأشجار كان ما فيه من أشواك يقلقني على حنجرته. وكانت الآبار موجودة في الأماكن التي عينها "صغير بن شيخ". ولكن لم نجد فيها إلا وحلا مصفرا حارا. كان الجمل يكتفي بذلك حتى إننا لم نكن بعد مضي خمسة أيام وبفضل قناعتنا العجيبة قد أفرغنا إحدى القربتين. وفي هذه اللحظة استطعنا أن نعتقد أننا نجونا.

وبجانب إحدى هذه الآبار المستوحلة تمكنت من صيد غزال ذي قرنين مستقيمين بطلقة من بندقيتي. وسلخت "تانيت زرجا" الحيوان وأكلنا فخذه وكان جيد الشي. وفي هذه الأثناء استكشفت "جاليه" – وهي دائبة على البحث بين الصخور كلما توقفنا

عن السير في القيلولة- تمساحاً من تماسيح الرمال طوله ثلاث أذرع وبادرت بقتله. وأكلت حتى لم تستطع حراكاً، مما كلفنا جزءاً من مائنا لنساعدها على الهضم. وقد منحناها ماءنا عن طيب خاطر لأننا كنا سعيدين. لم تعبر لي "تانيت زرجا" عن سعادتها؛ غير أني لاحظت المرح الذي ولده فيها اعتقادها بأني نسيت المرأة ذات التاج الذهبي المطعَّم بالزمرد. وبالفعل لم أكن أفكر فيها. في هذه الأيام، كنت لا أفكر إلا في الحرارة الشديدة التي يجب أن نتجنبها، وفي القربة التي كان علينا أن نخفيها ساعة في فجوة إحدى الصخور، إذا أردنا أن يصبح الماء بارداً، وفي السعادة العميقة التي تغمرك حينما تقترب بشفتيك من الكوب المليء بهذا الماء المنقذ.... يمكنني أن أقول أكثر من غيري بملء شدقي إن العواطف القوية عقلية كانت أو حسية لا تنتاب إلا أناساً أصابوا ما هو واجب لهم من الشبع والري والراحة.

كانت الساعة الخامسة مساء، وأخذت الحرارة الشديدة تنكسر، فخرجنا من الثغرة الصخرية حيث قضينا وقت القيلولة. وكنا جالسين على حجر كبير ننظر إلى الغرب وهو آخذ في الاحمرار.

ونشرت شريط الورق حيث عين "صغير بن شيخ" مراحلنا حتى طريق "السودان". فلاحظت في سرور أن خط السير الذي أوضحه لنا صحيح. إنني قد سلكته بكل دقة. وقلت:

- بعد غد مساء سنكون على وشك أن نجتاز المرحلة التي ستوصلنا في اليوم التالي في الفجر، إلى وادي "تليمسي". وهناك لن نفكر في الماء.

وبرقت عينا "تانيت زرجا" في وجهها النحيف، وسألت:

- و"جاو"؟

- سنكون على مسافة أسبوع فقط من "النيجر". ولقد قال "صغير بن شيخ" إننا سنقطع نهاية من وادي "تلمسي" تحت أشجار الميموزا.

فقالت:

- أنا أعرف الميموزا. إنها كويرات صغيرة صفراء تذوب في اليد، ولكني أوثر زهرة الكبر. ستصاحبني إلى "جاو". إن أبي "سني أزكيه" كما قلت لك قتله "أولياء مدين". ولكن لابد أن يكون بنو وطني قد أعادوا بناء القرية. إنهم اعتادوا مثل هذه الأمور. سترى كيف يستقبلونك.

- سأصحبك يا "تانيت زرجا"، سأصحبك. إني أعدك بذلك، ولكن لابد أن تعديني أنت أيضاً...

- ماذا؟ آه أعرف ماذا تقصد. تعتقد أنني بلهاء حتى خامرك أني سأتحدث عن بعض الأشياء التي تؤذي صديقي.

قالت هذه الكلمات وهي تنظر إلي وكأن التعب والحرمان قد جمدا وجهها الأسمر حيث تلمع عينان كبيرتان... وكنت توصلت إلى جمع الخرائط والفرجار، وعينت إلى الأبد المكان الذي أدركت فيه لأول مرة جمال عيني "تانيت زرجا".

وخيم السكون بيننا ولم تقطعه إلا بقولها:

- إن الليل آت. لابد أن نأكل لنستطيع الرحيل مسرعين ما أمكننا.

ونهضت وذهبت إلى الصخرة.

وفي الحال سمعت صوتها يناديني ولكن في لهجة مضطربة أفزعتني:

- هلم! هلم!

وفي قفزة كنت بجانبها وتمتمت:

- الجمل! الجمل!

ونظرت فإذا برعدة تنتابني.

كان ممدداً في الجانب الآخر من الصخرة وجانباه الشاحبان يرتعدان في عنف. كان الأبيض يحتضر.

وليس هناك من حاجة إلى أن أؤكد هذه الحمية التي اندفعنا بها نحو الجمل. وما كنت أعرف سبب موت البعير، بل ما عرفته قط. هكذا حال الإبل جميعاً فإنها أقوى الحيوانات وأرقها، تسير ستة أشهر عابرة أفظع الأماكن، تأكل القليل. وتصبر على الظمأ، وتظل كأحسن ما تكون حالا. ثم تتمدد ذات يوم على جنوبها وتقلع عن صحبتك في يسر محير.

ولما رأينا "تانيت زرجا" وأنا، أنه لم يبق في وسعنا أن نفعل شيئاً، نهضنا وجعلنا ننظر في صمت إلى انتفاض الحيوان الذي أخذ يتناقص تدريجيا. ولما لفظ النفس الأخير شعرنا بأن حياتنا تفارق أجسادنا كذلك.

وكانت "تانيت زرجا" هي البادئة بالحديث. سألت:

- كم نبعد عن طريق "السودان"؟

فأجبت:

- إننا نبعد مائتي كيلومتر عن وادي "تلمسي"، ويمكننا أن نقتصد ثلاثين كيلو متراً إذا سرنا نحو "أفروان"، غير أن الآبار ليست مبينة على هذه الطريق.

فقالت:

– فعلينا إذن أن نسير نحو وادي "تلمسي". مائتا كيلومتر: هذا يعني سبعة أيام؟

– سبعة أيام على أقل تقدير يا "تانيت زرجا".

– وكم تبعد أولى الآبار؟

– ستين كيلو متراً.

وانقبضت أسارير الفتاة شيئاً ما، ولكنها سرعان ما تشددت.

– يجب أن نرحل في الحال.

– أنرحل، يا "تانيت زرجا"، أنرحل راجلين؟

فضربت الأرض. وأعجبني أن أراها قوية شديدة.

واستطردت تقول:

– يجب أن نرحل. فلنأكل ولنشرب! ولنطعم "جاليه" أيضاً! ما دمنا لا نستطيع أن نحمل صناديق المؤن جميعها ومادامت القربة ثقيلة لا نستطيع أن نحملها مدى عشرة كيلو مترات، فلنضع بعض الماء في أحد الصناديق بعد أن نفرغها بوساطة ثقب ما. سينفعنا ذلك في مرحلة الليل، وهي مرحلة لا ماء فيها وتبلغ الثلاثين كيلو متراً، ثم نسير مساء الغد مرحلة ثلاثين كيلو متراً أخرى ونصل إلى البئر المبينة على خريطة "صغير ابن شيخ".

فتمتمت محزوناً:

– لو لم تكن كتفي على ما هي عليه الآن لقمت بحمل القربة.

فقالت "تانيت زرجا":

– إنها كما هي عليه. فعليك أن تحمل البندقية وكذلك صندوقي طعام، أما أنا فسأحمل صندوقين آخرين علاوة على الصندوق المليء بالماء. فهلم الآن؛ إذ علينا أن نكون في الطريق قبل مضي ساعة ونحن نريد أن نقطع مرحلة الثلاثين كيلومتراً. ولعلك تعرف أنه حين تشرق الشمس فإن الصخور تصبح شديدة الحرارة بحيث لا نستطيع بعد ذلك مواصلة السير.

فبأي صمت كئيب انتهت هذه الساعة التي ألفانا مبدؤها جد مطمئنين. وإني لأترك هذا الحدس. ويخيل إلي أنني لولا الفتاة لقبعت على الصخرة وتمددت وانتظرت. ولكن "جاليه" وحدها كانت سعيدة.

وقالت "تانيت زرجا":

– يجب ألا ندعها تأكل كثيراً. إذ كثرة الأكل تثقلها فلا تستطيع متابعتنا. ثم يجب عليها أن تعمل عملا في الغد. إذ أمسكت تمساحاً برياً آخر فسيكون من نصيبنا.

لقد سرت في الصحراء. وأنت تعلم أن الساعات الأولى من الليل ساعات فظيعة، وعندما يطلع القمر أصفر كبيراً، يبدو أن ثمة غباراً خانقاً ينبعث مصعداً كأنه بخار يخنق الأنفاس، فتحرك فكيك في حركة آلية مستمرة، كأنما تريد أن تصحن هذا الغبار الذي يتوغل في حنجرتك الملتهبة. ثم يتبع ذلك في العادة شيء من الراحة أو من الغفوة. تسير في غير ما تفكير. وتنسى أنك تسير، ويجب أن تتعثر حتى تتذكر أنك تسير. والحق أننا نتعثر في الغالب، ولكن الحال تصبح محتملة آخر الأمر، وتقول: "لا يلبث الليل أن ينتهي- وستنتهي معه المرحلة. وعلى كل حال فإني أقل تعباً الآن مني عند الرحيل". وينتهي الليل، وهذه هي أشد اللحظات قسوة، فنحن نموت عطشاً، ونرتعد برداً، وتتراكم علينا الأعباء ثانية. والريح الخفيفة الفظيعة التي تؤذي بالفجر لا نجد فيها عزاء، ويحدث الإنسان نفسه عند كل عثرة: «العثرة القادمة هي الأخيرة».

وهذا ما يشعر به وما يقوله هؤلاء الذين يعرفون أنهم سينعمون بوقفة بعد بضع ساعات ليأكلوا ويرووا ظمأهم....

كنت أتألم بشدة. فلكل عثرة صداها في كتفي الكسيرة. وأحسست مرة بأنني أرغب في التوقف عن السير لأجلس. فلمحت "تانيت زرجا". كانت تتقدم مغمضة العينين وقد بدا على محياها مزيج من الألم والعزيمة لا يمكنني التعبير عنه.

فأغمضت عيني وواصلت السير.

وكانت هذه هي الرحلة الأولى. وعند الفجر وقفنا عن السير عند أخدود صخري، واضطرتنا الحرارة بعد قليل إلي النهوض للبحث عن أخدود آخر أكثر عمقاً. لم تأكل "تانيت زرجا" شيئاً، ولكنها ابتلعت في جرعة واحدة نصف صندوق الماء. ومكثت خاملة طيلة النهار. وكانت "جاليه" تدور حول صخرتنا وهي تبعث بأناتها الشاكية.

لن أتكلم عن المرحلة الثانية، فقد فاقت كل ما يمكن أن يتخيله عقل بشري. لقد عانيت ما يمكن أن يعانيه بشر من عذاب في الصحراء، ولكني أحسست في شفقة لا نهاية لها أن قوتي بوصفي رجلا قد أخذت تتفوق على أعصاب رفيقتي الصغيرة. كانت تسير صامتة متلثمة بخمارها وهي تعلك جانباً منه.

أما البئر التي اتجهنا نحوها فكانت مبينة على ورق "صغير بن شيخ" تحت اسم "تيساريرين". و"تيساريرين" هو مثنى كلمة تيسارير ومعناها الشجرتان المنعزلتان.

وكان الصباح قد أخذ يسفر عندما لمحت الشجرتين، وهما شجرتان من شجر المطاط. لم يكن يفصلنا عنهما سوى كيلو متر ونصف الكيلو متر. فصحت فرحاً:

- أي "تانيت زرجا" تشجعي، ها هي ذي البئر.

فأزاحت لثامها فرأيت محياها البائس المضطرب، وقالت:

- حسناً. حسناً وإلا....

ولم تستطع أن تتم عبارتها.

وقطعنا هذه المسافة الأخيرة ونحن نجري أو نكاد.

ووصلنا آخر الأمر إلى البئر.

كانت جافة.

إنه لشعور غريب أن يموت الإنسان عطشاً. فالآلام مبرحة أول الأمر، ثم تهدأ بعد ذلك. ويتملكك جمود وتظهر في ذهنك تفاصيل دقيقة مضحكة عن حياتك، تحوم حولك كما يحوم البعوض. وأخذت أتذكر امتحان التاريخ في مسابقة الدخول لكلية "سان سير". كان موضوعه موقعة "مارنجو". وأخذت أكرر في عناد: «لقد قلت إن قوام المدفعية التي استكشفها "مارمون" كان ثمانية عشر مدفعاً.... ولكني أذكر الآن أنها لم تكن سوى اثني عشر مدفعاً. أنا موقن بذلك؛ اثنا عشر مدفعاً».

ثم رددت ثانية:

«اثنا عشر مدفعاً».

ورحت في شبه غيبوبة.

ثم أفقت منها وأنا أحس بحديد متوهج على جبيني. كانت "تانيت زرجا" قد انحنت فوقي وكانت يدها هي التي تحرقني هكذا. قالت:

- انهض! انهض! فلنرحل.

- نرحل! إن الصحراء نار تتوهج والشمس في كبد السماء! نحن الآن في وقت الظهر.

فأعادت قولها:

- فلنرحل.

فأيقنت أنها تهذي.

كانت واقفة وقد سقط خمارها على الأرض، "وجاليه" نائمة عليه وهي ملتفة فيه.

وأخذت تردد وهي عارية الرأس لا تخشى الشمس الفظيعة:

- فلنرحل.

وعاد إلي بعض رشدي.

- غطي رأسك يا "تانيت زرجا"! غطي رأسك!

فاستطردت قائلة:

- فلنرحل، فلنرحل، إن "جاو" هناك، إنها قريبة جداً. إني أشعر بها. أريد أن أرى

"جاو".

فاضطررتها إلى الجلوس إلى جانبي في ظل الصخرة.

وشعرت بأن قواها قد خارت. وأعاد إلي صوابي ما استشعرت من شفقة شديدة نحوها. وسألت:

- إن "جاو" هناك قريبة، أليس كذلك؟

وغدت عيناها البراقتان تتوسلان.

- نعم يا صغيرتي المحبوبة! إن "جاو "هناك. ولكن تمددي بالله عليك. إن الشمس شديدة الخطر.

وعادت تقول:

- آه! جاو! جاو! كنت أعرف تماماً، كنت أعرف تماماً أني سأرى جاو مرة ثانية.

كانت قد نهضت قاعدة، ويداها المحرقتان تشدان على يدي:

- صه! يجب أن أحدثك حتى تستطيع أن تدرك لماذا كنت أعرف أني سأرى "جاو" مرة أخرى.

- اهدئي يا صغيرتي! اهدئي!

- لا.. يجب أن أحدثك. كان ذلك منذ زمن بعيد على ضفة النهر حيث الماء في "جاو"، حيث كان أبي أميرا... وذات يوم، كان يوم عيد، أقبل علينا من الداخل ساحر شيخ يرتدي الجلد والريش، وعلى وجهه قناع وعلى رأسه قلنسوة مدببة ومعه صنوج، ويحمل أفعيين في حقيبة. وفي ميدان القرية حيث اجتمع الأطفال على شكل دائرة أخذ يرقص رقصة "البوصادلا" وكنت في الصف الأول. ولما كنت أضع حول عنقي عقداً من الماس الوردي عرف أنني ابنة شيخ "سونراوي". فأخبرني وقتئذ عن الماضي، وعن الإمبراطورية المندنجية [١] الكبرى التي حكمها أجدادي، وعن أعدائنا قبيلة "كونتاس" المتوحشين. أخبرني بكل شيء ثم قال لي....

- اهدئي ياصغيرتي.

- ثم قال لي: «لا تخافي، لربما كشرت لك الأيام عن أنيابها، ولكن لا تراعي، فسيأتي اليوم الذي ترين فيه مرة ثانية "جاو" تلمع في الأفق، ولن تكون "جاو" المغلوبة على أمرها والتي اعتبرت ضيعة سودانية لا غناء فيها، ولكن "جاو" كما كانت قديماً، "جاو" الرائعة، العاصمة الكبرى لبلاد السود، جاو المبعوثة من جديد بمسجدها ذي الأبراج السبعة، وقبابها الأربع عشرة من الياقوت الأزرق، ومنازلها ذات الأفنية الرطبة

(١) المندنغ: شعب أسود يسكن أعلى "السنغال" و "النيجر". (المترجم).

والنافورات والحدائق الريا المليئة بالأزهار الكبيرة من حمراء وبيضاء. حينئذ ستكون ساعة خلاصك وسيادتك.

كانت "تانيت زرجا" منتصبة وأخذت الشمس ترسل حرارتها من فوقنا ومن حولنا وفي كل مكان على الـ"حمادة" وتصهرها بلهيبها.

وفجأة مدت الطفلة ذراعيها، وأرسلت صيحة مفزعة:

- "جاو". ها هي ذي "جاو".

ونظرت. فرددت:

- "جاو"، آه! لقد كنت أعرف ذلك جيداً. ها هي ذي الأشجار والينابيع والقباب والأبراج والنخيل والزهور الكبيرة الحمراء والبيضاء. "جاو"!

وبالفعل قد أخذت تبدو عند الأفق مدينة عجيبة تتدرج مبانيها الرائعة كأنها قوس قزح. وأمام أعيننا المتسعة كان السراب يزيد في حمّانا البغيضة.

فصحت:

- "جاو"! "جاو"!

ثم صحت مرة أخرى بعد ذلك في التو صيحة هي مزيج من الألم والفزع. شعرت بيد "تانيت زرجا" الصغيرة تتراخى في يدي. وتمكنت من أن آخذ الفتاة بين ذراعي وأن أسمعها تتمتم في همس:

- وحينئذ تكون ساعة الخلاص. ساعة الخلاص والسيادة.

وبنفس المدية التي استعملتها قبل ذلك بيومين في سلخ ظبي الكثبان حفرت في الرمل، وعلى قاعدة الصخرة التي أسلمت "تانيت زرجا" أنفاسها عندها، حفرة ستكون مثواها.

ولما انتهيت أردت أن أرى ذلك الوجه الصغير العزيز، فانتابني دوار قصير... فنشرت خمارها الأبيض سريعاً على هذا الوجه الأسمر ووضعت جثمان الصغيرة في الحفرة.

ولم أكن قد أعرت "جاليه" اهتماماً.

وكانت نظرات الهرة لا تفارقني وأنا أقوم بهذه المهمة المحزنة. وما إن سمعت حفنات الرمل الأولى تسقط على الخمار حتى صرخت صرخة حادة. ونظرت إليها فرأيتها وقد احمرت عيناها تتهيأ للوثوب علي. فناديتها متوسلا:

- "جاليه".

وأردت ملاطفتها.

فعضت يدي، ثم وثبت على الحفرة وأخذت تنبش وتزيح الرمال في غضب شديد. وحاولت إبعادها ثلاث مرات. ولكني شعرت بأنني لن أنجح في إبعادها مطلقاً، وأنني إذا

توصلت إلى ذلك فستمكث "جاليه" هنا لتخرج الجثمان من التراب.

كانت بندقيتي عند قدمي. ورددت الأجواء صدى طلقة في أنحاء الصحراء الشاسعة الموحشة. وبعد لحظة كانت "جاليه" ممددة تنام نومتها الأخيرة على عنق سيدتها في المكان نفسه الذي رأيتها تنام فيه مراراً. ولما لم يبق على سطح الأرض غير حشوة من الرمل نهضت وأنا أترنح وهمت على وجهي في الصحراء متجهاً نحو الجنوب.

الفصل العشرون

الدائرة تتصل

في أعماق وادي المياه وفي المكان الذي نبح فيه ابن آوى في تلك الليلة التي اعترف لي فيها "دي سانت أفيت" بأنه قتل "مورانج"، نبح ابن آوى آخر- ولربما كان الحيوان نفسه.

فأحسست في الحال أنه سيحدث في هذه الليلة ما لا تحمد عقباه. كنا جالسين في هذا المساء، كما كنا في ذلك المساء الماضي، تحت الرواق المتضع في جانب حجرة الطعام: أرض من الجبس، حاجز من الخشب المستدير الشكل المتشابك الأجزاء، وأربع دعائم تحمل سقفاً من القش.

قلت إن هذا الحاجز يطل على الصحراء. ولما كف "دي سانت أفيت" عن الكلام نهض واقفاً وراح يتكئ على الحاجز فتبعته وقلت:

- ثم؟

فنظر إلي:

- ثم ماذا؟ أعتقد أنك لا تجهل ما ذكرته الجرائد كلها: كيف عثرت عليَّ دورية تحت قيادة الكابتن "أيمار"، وأنا أموت جوعاً وعطشاً في بلاد "أولياء مدين"، وكيف نقلت إلى "تمبكتو"، وأخذت أهذي لمدة شهر. أما ما قلته أثناء نوبات الحمى فلم أعرفه قط. وضباط نادي "تمبكتو" ليسوا مكلفين كما تعلم بأن يعيدوا علي هذه الأقوال. وحين سردت لهم حديث مغامراتي كما هي مدونة في التقرير عن بعثة "مورانج"- "سانت أفيت"، لمست دون عناء لما أبدوه من جفاء مؤدب وهم يستمعون إلى قصتي، أن النص الرسمي الذي تلوته عليهم يختلف في مواضع بعينها عما أفلت مني من تفاصيل أثناء هذياني.

لم يدققوا. وبقي معروفاً أن الكابتن "موراڠ"، قد توفي على أثر لفحة شمس، ووري الثرى تحت إشرافي على ضفة وادي "تارحيت" على ثلاثة مراحل من "تيمساو". وكانوا جميعاً يلمسون ما في حديثي من نقط ضعف. وكانوا لا يشكون في أن ثمة مأساة. ولم يستطيعوا جمع الأدلة فآثروا حفظ مسألة قد تؤدي إثارتها إلى فضيحة ليست بذات غناء. على العموم فأنت تعرف هذه التفاصيل مثل ما أعرفها تماماً.

فسألته في تردد:

– و.... هي؟

فابتسم ابتسامة النصر، النصر لأنه حملني على ألا أفكر في "موراڠ" أو في جريمته؛ النصر لأنه شعر بنجاحه في أن يلحقني بجنونه، فقال:

– هي! هي! لم أعرف عنها شيئاً منذ ست سنوات. ولكنني أراها وأتحدث إليها، وإني أفكر في اللحظة التي سأمثل فيها مرة أخرى بين يديها... سأرتمي على قدميها وسأقولها لها فقط: «عفوك. لقد خرجت على قوانينك. لم أكن أدرك شيئاً. وأنا الآن أعرف كل شيء، وهأنت ذي ترينني أعود إليك، مثل الملازم "جيبرتي"».

«الأسرة، الشرف، الوطن، ستنسى كل شيء من أجلها».

هكذا كان يتكلم الشيخ "لميج". إن "لميج" رجل أبله. ولكنه كان يتكلم عن خبرة. إنه يعرف ما كانت تساويه إرادة خمسين شبحاً من أشباح قاعة المرمر الأحمر، أمام "أنتينيا".

«والآن أتستطيع أن تقول لي بالضبط من هي هذه المرأة؟».

وهل أدري تماماً من هي؟ وعلى كل حال ما خطر ذلك! وما خطر ماضيها وسر نشأتها، سواء أكانت من سلالة شياطين البحار و"اللاجيد" العظام أم بنت غير شرعية من بولندي سكير وساقطة من حي "ماربوف"؟

وقد تمكنت هذه التفاصيل عندما تملكني الضعف، فغرت من "موراڠ"، أن تثير الأثرة التي لا يفتأ الناس المتمدنون أن يخلطوها بالمسائل العاطفية. لقد طويت بين ذراعي جسد "أنتينيا": فلا أريد أن أعرف شيئاً آخر، لا ازدهار الحقول ولا مصير الإنسان...

لا أريد أن أعرف ذلك. أو إن شئت فإني لكوني أرى بكل وضوح هذا المصير أرغب في أن أفنى في المصير الأوحد الذي يستحق أن أفنى فيه: طبيعة غامضة عذراء، حب غامض.

طبيعة غامضة عذراء– يجب أن أوضح لك. كان ذلك في بلد مزدحم في أحد أيام الشتاء. كنت أشيع جنازة وقد لطخني الهباب الذي يتساقط من مداخن المصانع السوداء

ومنازل الضواحي الفظيعة.

وشيعنا الجنازة وسط الأوحال، وكانت الكنيسة حديثة العهد، رطبة متضعة. وكان المشيعون- ما عدا اثنين أو ثلاثة أشخاص من أقارب المتوفى- أفقدهم الحزن وعيهم- لا تساورهم إلا فكرة واحدة هي البحث عن ذريعة للانسحاب. والذين والوا السير إلي المقابر هم من لم يجدوا سبباً للانسحاب. إني أرى الجدران الرمادية وشجر السرو النخرة، السرو أشجار الشمس والظل ما أجملها في مناظر الجنوب،على تل مرتفع أزرق. وأرى أيضاً حملة النعش، في بشاعة منظرهم، وحللهم وقبعاتهم القذرة اللامعة العتيقة. أرى ... لا، كفى. هذا فظيع.

وثمة حفرة كانت إلى جانب الجدار حفرت في صلصال أصفر مليء بالحصى، وهناك أودعوا جثة الميت الذي صرت لا أذكر اسمه.

وبينما كانوا ينزلون الجثة في الحفرة نظرت إلى يدي- هاتين اليدين اللتين ضمتا يدي "أنتينيا" في مشهد فريد في لألائه. أشفقت على جسدي إشفاقا عظيما، وخشيت عليه كثيراً مما يتهدده في تلك البلاد الموحلة. ورددت: «أيقدر لهذا الجسد، هذا الجسد العزيز، هذا الجسد الفريد بلا شك، أن ينتهي إلى هذا المكان؟ لا! لا أيها الجسد الثمين بين الكنوز. إني أقسم لك لأجنبك هذه الإهانة. لا! لن تتعفن تحت رقم في قذارة مقبرة تحت الأرض. إن رفاقك في الحب، هؤلاء الفرسان الخمسين من الأوريشلك، ينتظرونك صامتين جامدين في قاعة المرمر الأحمر. سأعرف كيف أقودك إلى جوارهم.

حب غامض- يالعار من يفشي أسرار حبه! إن الصحراء تبسط حول "أنتينيا" حاجزها الذي لا سبيل إلى اختراقه؛ ولذا تجد أن مطالب هذه المرأة المعقدة في الواقع أكثر حياء وعفة من زواجك وما إليه من إعلانات مبهرجة فاحشة وإذاعات ودعوات تنبئ شعباً ساخراً وضيعاً .

أعتقد في أن هذا هو كل ما أردت أن أحدثك به، لا! فهناك شيء آخر.

لقد حدثتك منذ لحظة عن قاعة المرمر الأحمر. فهناك في جنوب تشرشل القيصرية القديمة، غربي النهر ماء زعفران الصغير، وعلى تل، يتبدى في الصباح وسط الضباب الوردي، هرم غامض من الحجر، يسميه أهل المقاطعة "مقبرة المسيحية". هناك دفن جثمان جدة "أنتينيا"، "كليوباترا سيليني"، ابنة "مارك أنطوان" و"كليوباترا". وقد احتفظ هذا الأثر بكنزه مع أنه قائم في طريق الغزوات، ولم يستطع أحد أن يستكشف الحجرة الملونة حيث يثوى هذا الجسد الرائع في تابوته الزجاجي. إن الحفيدة لتعرف كيف تفوق ما عملته الجدة عظمة وكآبة. وفي وسط قاعة المرمر الأحمر، وعلى الصخرة حيث تتردد أنات النافورة الخافتة

المظلمة، أعد سطح مستو ستثوى فيه تلك المرأة العجيبة التي حدثتك عنها جالسة على مقعد من الأوريشلك، وقد وضع على رأسها التاج والثعبان الذهبي، وفي يدها عصا "نبتون" المثلثة يوم تتلقى كل من المائة والعشرين كوة المحفورة على شكل دائرة حول عرشها، فريستها مبتهجة راضية.

لما غادرت "الحجار" كانت المقبرة رقم ٥٥ هي المخصصة لي، كما تذكر، ومنذ ذلك الوقت وأنا لم أكف عن الحساب. انتهيت إلى أنني سأرقد في الكوة المتمة الثمانين أو الخامسة والثمانين. ولكن لعلي مخطئ في حسابي، مادام يرتكز على أساس ضعيف مثل نزوات امرأة؛ ولذا تجدني دائم الاضطراب. يجب أن نسرع، يجب أن نسرع.

فرددت كأنني في حلم:

- يجب أن نسرع.

فرفع رأسه وعلى وجهه علامات فرح لا توصف، وكانت يداه ترتعدان من السعادة وهما يضمان يدي. وردد في نشوة:

- ستراها! ستراها!

وضمني في وله بين ذراعيه طويلا.

كانت تغمرنا سعادة غريبة. وحين كنا نضحك مرة ونبكي أخرى كالأطفال لم نكن نكف عن القول:

- فلنسرع، فلنسرع.

وفجأة هبت ريح خفيفة جعلت تهز أعشاب السقف هزاً عنيفاً، وزاد لون السماء البنفسجي الشاحب شحوباً. وفجأة شق السماء خيط كبير أصفر من ناحية الشرق، وشعشع الفجر في الصحراء الخالية. وسمعت ضجة صماء في أقاصي الحصون: هديراً، وأصوات سلاسل. كان المركز يستيقظ.

وظللنا بضع ثوان دون أن ننبس بكلمة، ونظرنا متجه نحو طريق الجنوب، الطريق التي تؤدي إلى "تيماسنين"، و"أجبريه" و"الحجار".

وسمعنا من خلفنا على باب حجرة الطعام، طرقة جعلتنا نرتعد.

فقال "دي سانت أفيت" في صوت غدا ناشفا.

- ادخل.

فإذا الجاويش "شاتلان".

فسأله "أندريه سانت أفيت" في لهجة جافية:

- ماذا تريد مني في مثل هذه الساعة؟

كان الجاويش قد وقف و قفة انتباه.

- أطلب المعذرة يا سيدي الكابتن. لقد فاجأت الدورية الليلة وطنيا بالقرب من المركز. ولم يكن مختبئاً على كل حال. وعندما نقل من مكانه طلب أن نوصله إلى القائد. وكان الليل قد انتصف ولم أرد أن أزعجك.

- من هو هذا الوطني؟

- طارقي ياسيدي الكابتن.

- طارقي! اذهب وأحضره.

فانزوى "شاتلان" جانباً. كان الرجل خلفه يخفره أحد جنودنا. ودخلوا السطح.

كان القادم طارقياً فعلا، وكانت قامته مائة وثمانين سنتيمترا تقريباً، وكان النهار الناشئ يلمع ملابسه القطنية الزرقاء اللون. وكنا نرى عينيه الواسعتين الداكنتين تلمعان. ولما وقف أمام زميلي رأيت رعدة تهز الرجلين سرعان ما تغلبا عليها.

ونظر كل منهما إلى الآخر لحظة في صمت.

ثم قال الطارقي بصوت هادئ وهو ينحني:

- السلام عليكم أيها الملازم "دي سانت أفيت".

فأجابه "أندريه" بنفس الصوت الهادئ:

- وعليك السلام يا "صغير بن شيخ".

تمّت بعون الله

هذه فرصتك الآن...

أرسل طلبك اليوم..!

الروايات الكاملة.. والمعرّبة لشوامخ الكتاب العالميين

كتب لا تموت ولن تموت... من **روائع الأدب العالمي**...
وباللغة العربية.

أخي القارئ العربي :

تحية طيبة وبعد،

هذه فرصتك الآن لقراءة أشهر القصص والروايات العالمية المعرّبة لشوامخ الكتّاب العالميين وباللغة العربية.

لقد قمنا بترجمة هذه الروائع ترجمة أمينة وصحيحة ومنقّحة بلغة عربيّة صحيحة وَسَلِسَة يفهمها الكبار والصغار. فلا غِنى لك أو لأحد أفراد عائلتك من البدء في شراء هذه الكتب التي تُثري مكتبتك.

هذه فرصتك اليوم... وليس غداً.

إنّ دار **البشير** تتيح لك هذه الفرصة النادرة للإطلاع على حضارات وروائع أشهر كتّاب العالم.

وقد قامت بترجمة هذه الروائع من لغات مختلفة واضعة بين يديك دائماً قصص وروايات عالمية قد تفيدك في دراسة الآداب العالمية.

فما عليك سوى الكتابة إلينا لنُرسل لك مجاناً لائحة مفصّلة بآخر إصدارتنا من هذه السلسلة العالمية.

قصص وروائع جديدة تصدر كل شهر...

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك.

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرْسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي

مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط).

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت - لبنان.

وهذه قائمة بأسماء ا لكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دوستوفسكي
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيم جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك
٣٣	المقعد المسكون	جاستون ليرو
٣٤	الطريق إلى بئر سبع	إيثيل مانين
٣٥	غرام سوان	مارسيل بروست
٣٦	الظمأ... للحب	ميكا والتاري
٣٧	هل تحبين "برامس"؟	فرانسواز ساجان
٣٨	بيللا دونا	روبرت هيتشنز
٣٩	قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
٤٠	قلوب ضالة	رابندرانات طاغور
٤١	رحلات جاليفر	جوناثان سويفت
٤٢	ماري ستيوارت	فردريك شيللر
٤٣	موبي ديك	هيرمان ميلفيل
٤٤	كبرياء وهوى	جين أوستن
٤٥	روبنسون كروزو	دانيال ديفو
٤٦	مغامرات "توم ساوير"	مارك توين
٤٧	ذات الثوب الأبيض	ويلكي كولنز
٤٨	فن الحياة	أندريه موروا
٤٩	قضية بليرو	ألفونس ألي

إسم المؤلف	إسم الكتاب	الرقم
تيوفيل جوتيه	المومياء	٥٠
جي دي موباسان	الغيرة	٥١
السير أرثر كونان دويل	شارلوك هولمز	٥٢
هنري بوردو	الإبن الضال	٥٣
إدوارد مورجان فورستر	رحلة إلى الهند	٥٤
روبرت لويس ستنفنسون	المخطوف + أولالا ساكنة الجبال	٥٥
بيير بنوا	غانية أطلنطا	٥٦
مارك توين	الأمير والفقير	٥٧
جوته	آلام فرتر	٥٨
أرشيبالد جوزيف كرونين	القلعة	٥٩
جورج برنانوس	الجريمة	٦٠
هنري جيمس	حياة في لندن	٦١
ميجويل دي سيرفنتس	دون كيشوت	٦٢
ديل كارنيجي	الخالدون	٦٣
ألان فورنيه	مولن العظيم	٦٤



"بيير بينوا" (١٩٦٢-١٨٨٦)
كاتب رومانسي فرنسي ومؤلف "غانية أطلنطا" التي جعلته أحد رواد روايات اللهو..
حصل على ليسانس الحقوق من "مونبيليه" وبدأ عمله في وظيفة حكومية بـ "باريس" . مع نهاية الحرب العالمية الأولى حققت رواياته الأوليان - "كوينجسمارك ١٩١٨ و"غانية أطلنطا" نجاحا مبهراً مما جعله أستاذ رواية اللهو. كتب سلسلة عظيمة من الروايات المسلسلة .
إن جاذبية عمله ترجع إلى شخصياته (التقليدية) وبصفة خاصة إلى إحساسه بالحبكة، وميله إلى المواقف الغريبة التي تثير لدى القارئ الإحساس بالاستكشاف الحر والمطلق . هذا الاجتماعي المغرم بالجغرافيا أحب الترحال ونصب منضدة عمله في غرف الفنادق أو كبائن البواخر.

تقع الأحداث في صحراء "الجزائر"في عام ١٨٩٦، حيث يخول إلى الضابط "أندريه دي سانت أفييه" التحقيق في الاختفاء الغامض لضباط آخرين وخبراء قد اختفوا في هذه الصحراء . وخلال مهمته في الصحراء مع رفيقه الراهب اللاترابي (راهب ينتمي إلى الدير اللاترابي وهو يمنع عن الكلام) "جين مورانج"، ينقذ "أندريه" حياة محارب يعمل سراً كقواد لدى الملكة "أنتينيا".

وهناك يغشى عليهما ثم يفيقان ليجدا نفسيهما في "أطلنطا" - قصر ملكي مخفى داخل الجبل ويطل على واحة نخيل غناء ، وفي الوقت نفسه محاط بجبال "هوجار" وعرة التضاريس.

ISBN 9953-38-021-X
9789953380216